للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت]

- فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

- وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى » .

ومن الجدل أُخذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفى معناها : الحوار والحِجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منهما مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أى : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق فى الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفى ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراءٍ أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل فى هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون]

لكن إذا فَتَلْنا الشىء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل فى الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّى نفسك فى مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوى يقينه فى شىء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذى كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفى العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضى) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب فى الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعى .

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهى الأرض ، كأن يطرح القوى الضعيف أرضاً فى صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذى يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذِى يألف إلى

رأيك الذى لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما ألف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقى رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خفَّة البيان ؛ لأنك تُخرج خَصْمك عما ألف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذى رأى فى منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاى أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعنى أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله . فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكى فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أُخِذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغى له أن يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتل له عزيز فجلس يصرخ ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابنى قُتل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذى جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .

إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن

يراعى بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق فى البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبى ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم انصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا - عز وجل - أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتَّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذى ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذى يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيى ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل ملَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها فى أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ** (٣٦) ﴾ [الطور]

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التى لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء فى صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السموات والأرض والشمس والقمر .. إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون . فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذى خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] ولم يقُلْ أحد أنا الإله : إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا فى جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالى : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوَحدانية . وقال : أنا واحد لا شريكَ لى ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين تنتفى عنهم صفة الألوهية ، فأىُّ إله هذا الذى لا يدرى بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف يعبدونها ، ثم هى آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم

مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم يقدر على شيء معين ؟

إنْ كانوا يزاولون الأشياء بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفى والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفى موضع آخر : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

وبعد أنْ بينَّا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التى نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ فى حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيْزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتى رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه فى أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟

فربنا - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ

مـؤمنون بإلهكم وبالرسل وبـالكتب ، غـاية ما هنـالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبـيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتـزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القوَامة فى الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حـين يتزوج كتـابية مؤمن برسولهـا ، أما الزوج الكتابى فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفَرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أن فى الجدال حسناً وأحسـن ، وقد سبق الجدال الحسن فى قـوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَـلالٍ مُّبِـينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] ونوح عليـه السلام يتلطف فى جدال قومه ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد ﷺ يقول فى جدال قومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] فيذكر ﷺ الجريمة فى حقه هو ولا يذكرها فى حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأيُّ أدب فى الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلمـوا أنفـسهم فى مـسـألة القمـة الإيمـانيـة ، فادعـوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنـهم بذلك يدخلون فى صفوف سابقيهم من المـشركين ، فإنْ كنا مأمـورين بأن نجادلهم بالتى هى أحسن وقـالوا بهذا القول ، فعلينـا أن نجادلهم بما يقـابل الأحسن ، نجـادلهم إما بالحـسن ، وإما بغير الحسن أى : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)** ﴾ [الشعراء] فإنْ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون في نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ **الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)** ﴾ [الأعراف]

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. (١٧)** ﴾ [المائدة] وقال أيضاً : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ .. (٧٣)** ﴾ [المائدة]

أي : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئلْنا في الخارج من أبنائنا الذين يرغبون في الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سَلْها أولاً : ماذا تقول في عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابْن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا فى معنى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ونحن لا نحمل السيف فى وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمى اختيار المختار ، فلى أنْ أعرض دينى ، وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعونى من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركونى أعلن عن دينى فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به فى بلادنا ، ونظير حمايتنا لهم ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم جزية .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] لأننى لا أُكرهك على شىء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشْد بيِّن والغيّ بيِّن ، فلا داعىَ للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صلِّ . يقول لك ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه فى أصل الدين فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت فى هذه حُرٌّ ، أمّا إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه فى الدين » و « لا إكراه فى التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب فى الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ.. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفى موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام[1] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر فى كتبهم باسمه ووصفه : ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين فى

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) .

المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يُبعث فى مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[1] ؟ فلما جاءكم النبى الذى تعرفون أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وردت فى القرآن ، لكن فى غير الجدل فى الدين ، وردت فى كل شىء يُوجب جدلاً بين أُناس ؛ وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد جاءنى رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولى الحميم ؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر فى رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتى هى أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه ولىٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين[2] :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التى وَمِنَ الذى

ادْفَعْ فديْتُكَ بالتى حتَّى تَرى فإذَا الذى

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

والمعنى : من التى تسىء إليك ، أو الذى يسىء إليك ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] حتى ترى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنه جاءنى شاب يقول : إن عمى مُوسر ، وأنا فقير ، وهو يتركنى ويتمتع بماله غيرى ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تتوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد فى قلبك لعمك ، وثقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل - والله يشهد - دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لى : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءنى عمى قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال علىَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركنى للأجانب يأكلون مالى وأنت موجود ؟ ثم أعطانى المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملى بنفسك . فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما بالتوبة وإما برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلِّمنا الحق - تبارك وتعالى - التى هى أحسن فى الردِّ على الذين ظلموا منهم : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

يعنى : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذى يأتى بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكى أن زوجها لم يُوف بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعنى أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيت به ؟ قالت : أعجبنى وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمى حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، لماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ تُسلم له الأمر فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] فقال هنا : ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت] يعنى : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ (٤٧)﴾

قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. (٤٧)﴾ [العنكبوت] أى : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة فى كل الكتب التى أُنزلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذى جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله ﷺ ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف

التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

في حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم ، حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتي بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتي إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتي المعجزة لتثبت صدْقه في البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر - رضي الله عنه - والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا في حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعي للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز ﷺ على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته . وسبق أنْ قلنا : إن الحق - تبارك وتعالى - يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشيء لا عِلْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدَّانا به ؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتي أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقى منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهى ما يشاء . أما العقائد فهى ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ فى القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا فى التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتى مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، فى زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة فى مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم فى بيئة مجاورة .

أما محمد ﷺ فقد جاء - كما يعلم ربه أزلاً - على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم فى آخر الدنيا ، فنعلم به ، بل ، ونشاهده فى التوِّ واللحظة ، وكأنه فى بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفى لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون فى أوصاف النبى الجديد التى وردتْ فى كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسى[1] أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ،

---

(١) سلمان الفارسى ، صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب فارس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، وسمع كلام النبى ﷺ ، أظهر إسلامه ، وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، توفى ٣٦ هـ بالمدائن وكان أميراً عليها . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فطْنة النبوة التى أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عَن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة(١) .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو - ابن سلام - على يهوديته - فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت - يعنى يُكثرون الجدال دون جدوى - وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامى أن يسبونى ، وأن يظلمونى ، ويقولوا فِىَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أنْ تسألهم عنى ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنتُ إسلامى ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون فى عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا .. إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت(٢) ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَمِنْ هَـٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : من كفار مكة مَنْ سيأتى بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿ وَمَا يَجْحَدُ

(١) ذكر البيهقى قصة إسلام سلمان الفارسى فى كتاب دلائل النبوة فى ١٨ صفحة (١/٨٢-١٠٠) وفيه أنه عندما قابل رسول الله ﷺ ورأى أنه يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة دار خلف رسول الله ، يقول سلمان : « ففطن لى النبى ﷺ فأرخى ثوبه ، فإذا الخاتم فى ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٦ - ٥٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧)﴾ [العنكبوت] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتى من أن النِّسب إما نفى ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفى القلب سلْب أو قال سلب وفى القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ فى النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١)﴾ [المنافقون] أى : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا فى قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل فى شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين فى مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾

قوله : ﴿تَتْلُوا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : تقرأ ، واختار تتلو لأنك

لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعنى : يأتى بعده ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفٍّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه ؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدى مهمتها فى الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شئ آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك ؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن ؟

فإنْ قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سِنِّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتى فى أواخر العقد الثانى من العمر فى السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن لمحمد البقاء حتى سِنِّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه ؟

لو كان عندك شئ من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ،

ولكان فى الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب فى أمرك ، كما قالوا : ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥﴾ [الفرقان]

وقالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝١٠٣﴾ [النحل] فردَّ القرآن عليهم[1] ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل]

وقالوا : ساحر . وقالوا : شاعر . وقالوا : مجنون . وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهى المسألة ؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته ؟

وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك ؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط فى الملكات وفى التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون ؟

وكلمة ﴿مِن قَبْلِهِ .. ۝٤٨﴾ [العنكبوت] لها عجائب فى كتاب الله منها هذه الآية : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. ۝٤٨﴾ [العنكبوت] فيقول بعض العارفين (من قبله) : أى من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول ﴿مِن قَبْلِهِ .. ۝٤٨﴾ [العنكبوت] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله ﷺ قد علم كيف يقرأ وكيف

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يُعلِّم قيناً بمكة اسمه بلعام ، وكان عجمى اللسان ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ۝١٠٣﴾ [النحل] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٦٧) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف .

يكتب بعد نـزول القرآن عليه ، حـتى لا يكون فى أمتـه من هو أحسن حالاً منه فى أى شىء ، أو فى خصلة من خصال الخير(١) .

ثم تأمل قولـه تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة] بالله لو جاءت هذه الآية بدون كلمـة (مِنْ قَبْلُ) ألاَ يدخل فى روع رسول الله أنهم ربما يجـترئون عليـه فيقتلوه ، فيـتهيب منهم ، أو يدخل فى نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل ؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كـان فى الماضى ، أما الآن فلن يحدث شىء من هذا أبداً ، ولن يُمكِّنكم الله من نبيه .

وكلمة ﴿وَمَا كُنتَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] تكررت كثيراً فى كتاب الله ، ويُسمُّـونها (مـاكُنَّات القرآن) وفـيهـا دليل على أن القـرآن خرق كل الحجب فى الزمن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص]

وقوله تـعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقـوله تعـالى : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾ [آل عمران]

وهنا : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤١/٧) : « ذكر النقـاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبى ﷺ حتى كتب . وأسند أيضاً حديث أبى كبشة السلولى ، مضمنه : أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف » . ثم قال (٥٢٤٣/٧) : « الصحـيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحـداً ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى » .

لذلك وصفه ربه - عز وجل - بأنه ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره ، فهى فيه شرف ؛ لأن معنى أمى يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .

ومن ذلك المكانة التى أخذها الإمام على - رضى الله عنه - فى العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضى الله عنه - مع ما عُرِف عن عمر من سداد الرأى حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيِّداً لقوله - يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] . لماذا ؟

لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ فى مسألة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر من زواجها ، وعمر[2] يريد أنْ يقيم عليها الحد ؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبق إليها ، لكن يكون للإمام على رأى آخر ، فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك ؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] قال : بلى .

قال : ألم يقل : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٥٧/١) ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » .

(٢) ذكر الجصاص فى أحكام القرآن (٥١٧/٣) أن هذا حدث فى زمان عثمان بن عفان ولكن يبدو أنهما حادثتان وقعتا فى عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فقد ذكر ابن قدامة المقدسى فى كتابه « المغنى » (١١٥/٩) أنه كان فى عهد عمر واستشهد بما رواه الأثرم بإسناده عن أبى الأسود وذكر القصة .

وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعى لا ارتيابَ فيه[(١)] .

وفى يوم دخل حذيفة على عمر رضى الله عنهما ـ فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأُصلِّى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة فى يده ، وعندها دخل علىٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالى أراك مغضباً يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال على :

نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التغابن]

ويكره الحق أى : الموت فهو حقّ لكنا نكرهه ، ويُصلِّى على النبى بغير وضوء ، وله فى الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله فى السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

(١) عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت : وما يبكيك ؟ فو الله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله سبحانه فيما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له على رضى الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وقال ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] فلم نجده بقى إلا ستة أشهر . فقال عثمان : والله ما فطنت بهذا ، علىَّ بالمرأة ، فوجدوها قد فُرِغ منها . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

فلماذا تميَّز علىٌّ بهذه الميزة من العلْم والفقه والحجة ؟ لأنه تربَّى فى حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع فى أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تَلِد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه ﴿إذًا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : لو حصل منك قراءة أو كتابة ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : لكان لهم عُذْر ووجهة نظر فى الارتياب ، والارتياب لا يعنى مجرد الشك ، إنما شك باتهام أى : يتهمون رسول الله بأنه كان على علْم بالقراءة والكتابة ؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون فى اتهامهم له ﷺ .

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩)﴾

﴿بَلْ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده ﴿هُوَ﴾ أى : القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] وقال ﴿فِى صُدُورِ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : فى ذاكرتهم ؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر فى القلب وفى الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] فقال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] أى :

مباشرة استقر فى قلبه ، ولم يقُلْ على أذنك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ(١) مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾

أى : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] فلما كذَّبوا بالآية التى طلبوها أهلكهم الله ؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هى الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطع العهد لرسوله محمد ﷺ ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٥) : « قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى « آية » بالتوحيد . وجمع الباقون ، وهو اختيار أبى عبيد ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [العنكبوت] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تـأتى الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المـقتـرحة آيات كـونية تأتى وتذهب ، كـما تشـعل عود الثـقاب مـرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه .

وكلمـة ﴿لَوْلا .. (٥٠)﴾ [العنكبـوت] تسـتـخـدم فـى لغـة العـرب استـخدامـين : إنْ دخلتْ على الجـملة الاسمـية مـثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهى هنا حرف امـتناع لوجود ، فقد امـتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعليـة مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهى للحضِّ وللحثِّ على الفعل .

فقولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] كأن الآية التى جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : أنتم مـعتـرفون بالقـرآن ، مقـتنعون به ، لكن مـا يقف فى حلوقكم أن ينـزل على مـحـمـد من بين الناس جـمـيـعـاً . ثم نراهم يناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسول الله حينما قالوا :

﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧)﴾ [المنافقون]

فمـا دُمْتم تعرفـون أنه رسـول الله ، فلمـاذا تُعادونه ؟ إذن : فالبـديهة الفطرية تكذِّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] فهى عند الله ، لـيست عندى ، وليست بالـطلب حسب أهوائكم ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [العنكبوت] أى : هذه مهمتى ، واختار

الإنذار مع أنه ﷺ بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ؛ لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعنى : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العِبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتى وقت الصلاة فيصلى بهم رسول الله بما نزل عليه من

(١) سبب نزول الآية : « قيل إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة .. قال : أتى النبى ﷺ بكتف فيه كتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فأنزل الله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] » ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٥) .

الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله ﷺ ، وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝ ٦ ﴾ [الأعلى]

وإلا ، فلَك أن تتحدى أكثر الناس حفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها في المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ .. ۝ ٥١ ﴾ [العنكبوت] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ٥١ ﴾ [العنكبوت] ؛ لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو في آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى في الذين يُحسنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. ۝ ٤٤ ﴾ [فصلت]

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ۝ ٤٤ ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ في يده ليُدفئها في البرد ، ومَنْ ينفخ في الشاي ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ في الشمعة لتطفئها ، وتنفخ في النار لتشعلها .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ٨٢ ﴾ [الإسراء] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعني : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك

العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعتَ فى شىء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن ، فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع فى غفلة من سلوك النفس.

ولو طبقنا قضايا القرآن فى نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعانٍ وأخلاق ، هذه المعانى فى الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكونٍ سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسى ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسى ، وحين تسأل الطبيب النفسى تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدئ المريض أو تهدّه فينام حتى لا يفكر فى شىء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوى والنفسى ، فسلامة الجسم فى أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنتَ من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حَدِّ التُّخمة ، فاقرأ فى القرآن : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف]

ثم تجد فى السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلْبه ، فإنْ كان ولا بُدَّ : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه »[1] .

(١) عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس فى المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق فى التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسى ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء فى النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغى أنْ تظل فى حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن فى منهج ربك - عز وجل - حيث يقول سبحانه : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا[1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد]

فمعنى ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانقباض ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] الانبساط . وكلاهما مذموم منهىٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذى لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم[2] :

وَفى البَلادة مَا فى العَزْم منْ جلَد ... إنَّ البليد قوىُّ النفْس عَاتيها
فَاسْأل أُولى العَزْم إنْ خَارتْ عزائمهمْ ... عَن البَلادة هَلْ مَادتْ رَوَاسيهَا ؟

فالذى تظنه بلادة هو عزم قوىٌّ فى استقبال الأحداث والصمود لها .

---

(١) أسيت عليه أسىً : حزنت . والأسى : الحزن . وأسيت لفلان : حزنت له . [لسان العرب - مادة : أسى] .

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

إذن : الرحمة فى منهج الله إنِ التزمنا به نأمن من الأدواء ، ماديةً كانت أم معنوية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(قُلْ) أى : للمنكرين لك ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حسبى أن يشهد الله لى بأنِّى بلّغتُ ، فشهادتكم عندى لا تنفع ، كما أنه لا ينفعنى إيمانكم ، ولا يضرنى كفركم ، فأجرى آخذه من ربى على مجرد البلاغ وقد بلَّغْتُ ، وشهد الله لى بذلك .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] أى : أنكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكنى أكتفى برب هذه الآيات شهيداً بينى وبينكم ، إذن : هناك خصومة فى البلاغ بين محمد ﷺ وقومه الذين يُكذِّبونه فى البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْلٍ فى هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق فى الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضى ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ فى القاضى ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتى دور تنفيذ الحكم ، وهى السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغى ألاَّ يكون لها

هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضى أو المنفِّذ للحكم ودلَّس فى التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما فى حكومة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت]

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأَخْفى ، فأىُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل فى تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفِّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَن الفائز فى حكومة قاضيها الحق ـ تبارك وتعالى ـ وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله فى أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرون حين كفروا به ، ولم تكفِهم البينة التى جاءتهم فى القرآن الكريم .

وعِلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتى الأمور بتوقيت منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أى : يقول للشىء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السموات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾ [طه] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه في نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون في نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ⑳﴾ [النور] وقوله سبحانه : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ⑪⓪﴾ [الأنبياء]

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعِلْم ما نُبدى ، فهذا شيء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدى أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى في المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة في الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً في الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن ؛ فهو فى حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شىء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا علْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾[البقرة] أى : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقى : هو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذى قال الله عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن] فالرسول ـ إذن ـ لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] أى : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] الخالق واجب الوجود ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾ [العنكبوت] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر فى ذاته سبحانه ، ولا فى صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتى بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة واقعة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا

يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال فى الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان فى الموت نراه يحب البقاء فى ولده ، وفى ولد ولده ليبقى ذكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهى حياة الآخرة . إذن : فمَن الخاسرون ؟ الخاسرون هم الكافرون الذى قصروا حياتهم على عمرهم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إنْ أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو وَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن كل شيء عند الله بميقات وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهى آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : بآجالهم المتفرقة . أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بين الأجلين أن الآجال المتفرقة فى الدنيا تنهى حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .

والمعنى ﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ويقول : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك لما عقد النبى ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضى أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلى وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبى ﷺ دخل على أم سلمة رضى الله عنها وقال : « هلك المسلمون »[1] قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : « أمرتهم فلم يمتثلوا » فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْقٍ لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

ثم بيَّن الله لهم الحكمة فى العودة هذا العام دون قتال ، ففى مكة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٦/٤) ضمن حديث صلح الحديبية الطويل من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » .

إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر - رضى الله عنه - كعادته شديداً فى الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ « بلى » قال : أليسوا على الباطل ؟ قال ﷺ « بلى » قال : فلَمَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر[1] .. يعنى قف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية - لا فتح مكة .

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأى ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها فى ربوع الجزيرة العربية ، لكن فى وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله - عز وجل - لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] يعنى : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

بهـا . إذن : فليس المراد أنهم لا يشـعرون بالبـغتـة ؛ لأن شعـورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشىء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾

أى : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العـذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم فى شوق إليه فجهنم فى انتـظاركم ، بل ستمتلىء منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعـذِّب هو الله ـ عز وجل ـ فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ [العنكبوت] الإحاطة أن تـشمل الشىء من جـميع جـهاته ، فـالجـهات أربع : شـمال وجنوب وشـرق وغرب ، وبين الجهـات الأصلية جهات فـرعية ، وبين الجهات الفـرعية أيضاً جهات فرعية ، والإحاطة هى التى تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَعْـتَـدْنَا لِلظَّالِمِـينَ نَاراً أَحَـاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] يعنى : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار فى الآخرة أن النار فى الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخـصاً بنار تحوطه لا يسـتطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبـيعتـها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفىء مثـلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٧) : « قيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء] .

تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفىء النار فيه ، أما فى نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم :

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر]

وهاتان الجهتان لا تأتى منهما النار فى الدنيا ؛ لأن النار بطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء . إذن : هذا ترقٍّ فى العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدث توازناً فى السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً فى كل شىء حتى فى الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسى أنه عبد لله مقهور فى أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت فى قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء فى العبودية لله ، لكن الفرْق فى العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه فى سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هى العبودية والعبادية معاً .

ومعنى ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت] يخاطبهم ربهم هذا

الخطاب وهم فى الأرض وفى سعتها ، ليلفت أنظارهم إلى أنهم سيُضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصْرفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضى واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فأقِمْ حيث يكون »[1] .

فالذى نعانى منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التى وضعناها فى جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة فى الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادىء القرآن فلن يوجد شر فى الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، وإلا فالذى يُتعِب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هى السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضى لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ للقيود التى وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

---

(١) عن الزبير بن العوام قال قال ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٦٦) ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٣٤٢) بلفظ « فأى موضع رأيت فيه رفقاً فأقم » وقال : « رواه الطبرانى عن الزبير بسند ضعيف ، وعزاه النجم أيضاً لأحمد والطبرانى عن الزبير بسند ضعيف » .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهْلِها ولكنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن فى المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرِجنى من دائرة الإيمان ، أو يحول بينى وبين أداء أوامر دينى .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال فى بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفى يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أَمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التى أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهى ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أَمْن .

وقد علَّل رسول الله ﷺ أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد »[1] وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صدْق رسول الله ،

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة إلى أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمى مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشى مَنْ[1] يكلمه فى شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذى راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله[2] .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكّن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار فى مدينة رسول الله أروع مثل فى التاريخ فى المواساة ، فالأنصارى كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله فى مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

---

(١) هو : عمرو بن العاص ، أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأى والحزم والمكيدة فيهم ، كان فى الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، أسلم فى هدنة الحديبية . ولد ٥٠ ق. هـ ، وتوفى ٤٣ هـ بالقاهرة عن ٩٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٥/٧٩) . وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٦٠) « أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة للنجاشى ليوقعوا بين المهاجرين والنجاشى ليسلمهم إليه ، وقال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

(٢) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه ، قال : فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت ، وصلينا عليه كما يصلى على الميت » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠) .

وفى قوله سبحانه ﴿ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُون (٥٦) ﴾ [العنكبوت] أسلوبٌ يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله - عز وجل - ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى - إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبى ﷺ فى الحديث الشريف : « فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) ﴾

يعنى : إنْ كنتم ستقولون - وقد قالوا بالفعل - ليس لنا فى المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق[(٢)] ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التى نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) كتاب الإمارة (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٥٠) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص]

وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شيء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق - تبارك وتعالى - يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

كما أننا نلحظ فى قوله سبحانه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] بعد ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] أن الخواطر التى يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرِّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل ﴿ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. (٥٦) ﴾ [العنكبوت] وما تثيره فى النفس من حب الجمع والتملّك يجعل لك مع الأمر ما يهبِّط هذه الخواطر .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧) ﴾ [العنكبوت] حتى لا نطمعَ فى حطام الدنيا ، ويُلهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحة فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا .. (٢٨) ﴾ [التوبة]

فلما أراد الله تعالى أن يُنهى وجود المشركين فى البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم فى مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن

(١) العيلة : الفقر . والعَيِّل : الفقير . يقال : عال يعيل عيلة إذا افتقر . [لسان العرب - مادة : عيل] .

فَضْلِه .. (٢٨) ﴾ [التوبة] فساعة يقرأونها فى التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما فى نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعنى أن التشريع يأتى ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شىء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهب هذه المخاوف .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٥٨) ﴾

هذه فى مقابل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت] وذكر المقابل لزيادة النكاية بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] أى : نُنزلهم ونُمكِّنهم منها ، كما جاء فى قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] يعنى : تُنزلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار فى الدنيا ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فـإذا كـانت جنة الدنيـا على هذه الصـورة من الخـصْب والنمـاء والجـمال ، وفـيـهـا أسبـاب القُـوت والترف ، إذا كـانَ ذلك فى دنيـا الأسباب التى نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه فى الآخرة ؟

ومن عـجائب الجنة أنهـا ﴿تَجْـرِى مِن تَحْـتِـهَـا الأَنْهَـارُ .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجرى خلالها عبر الشُّطآن التى تحجز الماء ، أمّا فى الجنة فتجرى أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لمـا كنا نسافـر إلى بلاد المدنيـة والتقـدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفـها كنتُ أقول لمن معى : خذوا من هذا النعـيم عظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

فإذا رأيتَ نعـيماً عند أحد فـلا تحقد عليـه ، بل ازْدَدْ به يقيناً فى الله تعـالى ، وأن مـا عنده أعظم من هذا . ألاَ ترى أن الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ حـينما يخـبـرنا عن الجنة يقـول : ﴿مَـثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِـدَ الْمُـتَّقُـونَ.. (١٥)﴾ [محـمد] فيـجعلهـا مثـلاً ؛ لأن ألفاظ اللغـة لا تؤدى المعانى التى فى الجنة ولا تَصفها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « فيهـا ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فكل ما جـاء فيهـا ليس وصفاً لهـا إنما مـجرد مـثَل لها ، ومع ذلك لمـا أعطانا المـثل للجنة صفّى المـثل من شوائبه ، فقال : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسـول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فـاقرأوا إن شئتم ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة] » أخـرجه البخارى فى صحـيحه (٣٢٤٤ ، ٧٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) كتاب الإيمان .

(٢) أسن المـاء يأسن : تغيـرت رائحـته ، فـهو آسن . [القـامـوس القويم ١/ ٢٠] قـال فى التهذيب : هو الذى لا يشربه أحد من نتـنه . [ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : أسن] .

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] ويكفى أن تعلم أن نعيم الجنة يأتى مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أنْ يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] لا يُكدِّرها شىء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع فى الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شىء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة فى الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

أما فى الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهِى بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، ألاَ ترونَ الجنين فى بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط فى مشيمته لمات فى بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت] نعم ، نعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سِنِّ التكليف تربَع فى نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشىء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأىُّ أجر أسْخى من هذا ؟ ويكفى أن الذى يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾

فهذه من صفات العاملين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] فلا تظن أن العمل ما كان فى بحبوحة العيش وترَف الحياة ، فالعامل الحق هو الذى يصبر ، وكلمة ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] ومعنى : صابره . يعنى : تنافس معه فى الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ ... ليَمْضُغَ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا.. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] على الإيذاء ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت] أى : فى الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا.. إلخ . فأراد سبحانه أنْ يُطمئِن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت]

فالذى خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وَتقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك فى جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك ؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاً على ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدِث الطير صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته ؟ وأين خبأ الله له رزقه ؟ لذلك يقولون (اللى شقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين فى بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمى به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا ؟ لأنه رِزْق الجنين ، وليس رزقها هى .

لذلك نجد الآية بعدها تقول[1] :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾

يريد سبحانه أنْ يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم ، فيقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] كأىٍّ لها معَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك ؟ يعنى : كثيراً جداً ، كذلك فى ﴿ وَكَأَيِّن .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] أى : كثير كما فى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران]

والدابة : هى التى تدبّ على الأرض ، والمراد كل حىٍّ ذى حركة ، وقد تقول : فالنمل - مثلاً - لا نسمع له دبَّة على الأرض أيُعَدُّ من الدابة ؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذى خلقها يسمع دبيبها ؛ لأن الذى يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذى يعانى من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل ، فقال : يا بن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . فقال : لكنى أشتهيه وهذه صبيحة رابعة ما ذُقْت طعاماً ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل مُلْك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويُضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا حتى نزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾ [العنكبوت] . أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩٦) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٠/٧) : « هذا ضعيف ، يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، اتفق البخارى عليه ومسلم ، وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة من بعدهم من المتقين المتوكلين » .

بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك فى النظارة للبصر ، إذن : فكل شىء له أثر مرئى أو مسموع ، لكن المهم فى الآلة التى تسمع أو ترى ؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة : فلان يسمع دَبّة النملة .

ومعنى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التى تكثر مع الإهمال فى النظافة الشخصية أتحمل رزقاً ؟ والناموسة التى تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذى يفتك بالإنسان .. إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً فهو مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه ؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ، وربما يدوس الأكل الباقى ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

وقد جعل الله الادخار فى هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه فى أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون فى هذا المجال أنك لو تركتَ بقايا طعام مثلاً تأتى نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهى مملكة فى غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرِج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التى تُسبِّب الإنبات فى الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشّ ، فسبحان الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] فذكر الدواب أولاً فى مجال الرزق ثم عطف عليها ﴿وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] فنحن معطوفون فى الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرّم ، والعالم كله خُلِق من أجله ولخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا ؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملكة العربية يعترضون على قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

يقولون : أيّهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] فالفقر هنا غير موجود وهم يخافونه . أما فى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ .. ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان فى الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان فى العَجُز .

ففى الأولى قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمّا فى الثانية فقال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] وقدم الآباء ؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت] واختار هنا السميع العليم ؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى ؛ لذلك يقول فى بيان عنايته بصنعته ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ .. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] يعنى : يا عبادى ناموا مِلْءَ جفونكم ؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا ؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدِث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التى نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات فى الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز فى السماوات وفى الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر ؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهى ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها ـ كما سبق أنْ أوضحنا ـ لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦١)﴾ [العنكبوت] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

وقوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق ؟

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] : يُوسِّعه ، ﴿ وَيَقْدِرُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى يضيق ، وآفة الناس فى هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق فى الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق .. إلخ .

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذى ضُيِّق عليه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق فى شىء ويُضيِّقه فى شىء آخر ، فهذا بسط له فى العقل مثلاً ، وضيق عليه فى المال .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها فى واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية فى النهاية ، فَمنْ بُسط له فى شىء ضُيِّق عليه فى آخر ؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعنى هذا أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فأيٌّ بعض مرفوع ؟ وأيٌّ بعض مرفوع عليه ؟ الكل مرفوع فى جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه فى غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذى يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذى يُصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التى يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه فى محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففى هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا فى وقت الحاجة للمرفوع .

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غنى وفقير ، مَنْ سيقضى لنا المصالح فى الحقل ، وفى المصنع ، وفى السوق .. إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقرنَّ أحداً ؛ لأنه قد يفضل عليك فى موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾

وهنا أيضاً قالوا ﴿ الله ﴾ لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهى ثابتة لله

تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] الذى أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لأنهم أقرُّوا بآيات الله فى خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون فى الإنسان الأعلى فى الوجود من حسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحَياة موصوفة هنا بأوصافَ ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها فى أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هى التى قال عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحسُّ والحركة فى الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شىء فى الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهى هذه الحياة : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فما يُقال له شىء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ،

وكذلك الحياة فى كل شىء بحسبه ، حتى فى الجماد حياة نلحظها فى أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقى مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شىء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتى فينا نحن ، وأذكر ونحن فى مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شىء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها المغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفى اتجاه معين ، إذن : فى الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التى تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق - تبارك وتعالى - يصف الدار الآخرة بأنها ﴿ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هى هذه التى نحياها فى الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمّا الحيوان فيعنى الحياة الأرقى فى الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق - سبحانه وتعالى - أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية فى قوله تعالى عن آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر] فمن الطين خلق آدم ، وسوّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذى يأتى به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾[الشورى] وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

إذن : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : الحياة الحقيقية التى لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شىء ، كما أن التنعُّم فى الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا فى الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتى وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ولَعب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقصدَ لها إلا الحركة فى ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدةَ منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطى فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شىء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب فى حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به

إلى ما لم يكلّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[1] .

فقوله تعالى ﴿وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شىء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] . أخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

ونَنظر فى معطياته الحقيقية : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هى الحياة الحقيقية وهى الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله فى الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هى وسيلة ، وأنت أيها الذى أعرضتَ عن منهج ربك جعلتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هى الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال فى الفُلْك ، فهى وسيلة تُوصِّلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هى غاية فى حَدِّ ذاتها .

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴿٣٨﴾﴾ [هود] وقوله ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [يونس] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف] بل هى دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]

فهذه تعطينا أنهم ركبوا فى السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[1] .

(١) ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى فى البر أيضاً غيره ، اللهم لك عليَّ عهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٢١) .

وفى لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]

فمعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت] دعوة خالصة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيبً فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه فى رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب ـ يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها فى الذات البشرية لا تجد فى النهاية إلا قوة واحدة هى قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذى أنكروا به وجود الله . وهذا يعنى أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدث من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ فى قوله سبحانه : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون فى عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية﴿ **أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** (١٧٢) **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ** .. (١٧٣) ﴾[الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له فى الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل فى الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذى خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتى فى أرضى ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنك لست وحدك فيها ، ولكى تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجى ، وفى دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ**

الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إلىَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة فى فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رجْلك ؟ لا شىء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرٌ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآنَ إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

هذه نصيحتى لك ؛ لأنك صنعتى ، وأنا أحب أن تكون صنعتى

على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك فى دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذى يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب فى السفينة خفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ** .. (١٢) ﴾ [يونس] الإنسان يعنى مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ **أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا** .. (١٢) ﴾ [يونس] يعنى : فى كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أىِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تضطجع على جنبك .

فأنت فى وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا فى حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفى الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفى ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

وفى لقطة أخرى يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ .. (٨) ﴾ [الزمر] أىُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. (٨) ﴾ [الزمر] ويا ليته نسى وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨) ﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام فى هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً فى موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية فى الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكى عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو فى بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكى فى هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنّا الضر إنما يعطينا المصل الواقى بصورة تحدث فى الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث فى حياتكم ، فكل منكم ينبغى أنْ يعلم أنه مراقب منَ الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

واللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهى هنا مكسورة لأنها فى بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها فى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها فى قراءة من

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابى الحلبى : « وأما ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فيُحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثانى فى اللام الثانية فى قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فرْق فى الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين فى بادىء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أَخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

---

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتُ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهى صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شيء أعظم مما فى دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابى الذى أخبره النبى ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة فى فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء[1] .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن فى مسائل الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ فى ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله فى كونه لا تنتهى أبداً إلا بالسر الأعظم فى الآخرة ، ففى زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال فى رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعنى أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقى[2] رضى الله عنه وجزاه الله عَمَّا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبى ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو محمد فؤاد عبد الباقى ، ولد فى قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ فى القاهرة ، ودرّس فى بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية فى البنك الزراعى (١٩٠٥ - ١٩٣٣) وانقطع إلى التأليف . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣٣٣] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء - أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى علم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (وَلرأى الرؤْيا انْم ما لعلمَا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشىء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] فالحرم آمن رغم ما حدث له من ترويع

---

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة]

قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة ، وفى العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مرِّ العصور حدثتْ تجاوزات فى الحرم تتناقض فى ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿ حَرَمًا آمنًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت] فى القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاثة إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

فحين دعا ربه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] كان مكاناً خالياً ، لا حياةَ فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبنى ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعنى يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمنًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

وبلد هنا نكرة تعنى : أىّ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأىِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمنًا ..﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : هذه التى صارت بلداً أريد لها ميْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أىّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذى تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجانى مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترىء الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا

الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجره ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذى جعل لكم بلداً آمناً ، فى حين يُتخطّف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم فى هذا الأمن الذى وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] كيف وقد حمْيناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها فى حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف[1] مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ [قريش]

فالعلة فى أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ [قريش] لأن اللام فى (لإيلاَفِ) للتعليل ، وهى فى بداية كلام . فالعلة فى أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذى يقصده الناس من كل مكان .

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأُكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش فى رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [قريش] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذى وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] حجة لله عليهم ، ففى الوقت الذى يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم فى أمان ، فهى حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ .. ۝٥٧ ﴾ [القصص] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ۝٥٧ ﴾[القصص] فما دمتم قلتم عن الدين الذى جاءكم به محمد أنه هدى - يعنى هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون فى هذا القول ، ولمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت] أى : بالأصنام ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] قال ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ .. (٦٧) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نعَم الله عليهم أنْ يُطعمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهى ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهى ، فما الداعى للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذى يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعنى ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجودِ الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهى لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذى يتوجّع منه الإنسان ، وهو فى الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذا الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنبِّه إليه ، فيظل كامناً فى الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص فى الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن فى موضع الألم عطباً ، وأن الجارحة التى تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون فى تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر بأعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدرى بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون له صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعِرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام فى البلاد التى فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففى بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً فى نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيمانى ليدخل الناس فى الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ**

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسلْمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾

هذا استفهام يريد منه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقِى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيِّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَنِ اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهى تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ

الَّذينَ آمَنُوا منَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزِئ بهم فى الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازى هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم - وفى هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين - فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا فى الظلم .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

نقول : جَهدَ فلان يجهد أى أتعب نفسه واجتهد : ألح فى الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهى لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفى هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعولية فى الآخر ، مع أنهما شركاء فى الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل فى مرة ، ومفعول فى أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذى له ضِلْع أقوى فى الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين فى جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.. (٢٩)﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلى كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[١] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أى : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التى نجاهدها فى الله كثيرة : خصومة فى مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله فى الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا فى أتفه الأشياء التى تستخدمونها فى حياتكم : هذا الكوب الزجاجى وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لَنا هذه الأكواب ؟

إذن : هى صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذى منحه الله إياه ، وأعمله فى المواد التى جعلها الله فى الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذى اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج فى صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفىء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢٥٥] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون فى الشمس التى تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع فى يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم فى أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أَوْلَى بكم التفكُّر فى عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لى أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضىء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففى الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس فى ضوء شمعة ، وهذا فى ضوء لمبة جاز ، وهذا فى ضوء لمبة كهرباء ، وآخر فى ضوء لمبة نيون ، فالأضواء فى الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الربانى أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس فى هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغى أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضىء بحكم الله ؟ أليس فى صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدّعى أن لله شريكاً فى مُلكه : مَن الذى قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لى لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوى ولا يؤمنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفى من جوانب العظمة فى شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبحتم أنْ يأتى عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتى بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة فى دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به فى ضوء : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذى تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما فى طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شىء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافى الذى لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغى على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه فى المنهج مُحكماً يأتى محكماً فى قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف فى تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدى لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التى تُثار بين المسلمين ينبغى أن يكون لها جدل خاص فى هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى التزم به الجميع ، وما تُرِك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء فى لغتنا مثلاً تأتى للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدوْر الإصلاح وبدوْر الردع للباغى المعتدى حتى يفيء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيِّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقَوِى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكفَّتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلِح عليك وتتسرَّب من خلالك .

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٣) .

فعليك أنْ تقف فى جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك فى جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك فى هذه المقابلة وتبصّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت فى قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة فى كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى فى الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق - سبحانه وتعالى - لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، فى حين أن الشمس التى تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن فى حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعنى أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهى حياتك فى الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٤١) ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

الجهاد فى سبيل الله أى فى الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك فى إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] يعنى : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص فى عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شىء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى فى الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما فى السعى سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففى نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذى فتح الله عليه ، فباع كثيراً فى أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَل ، ولم ينظر إلى ربة البيت التى تنتظر عودة زوجها لتشترى ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسى حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)** ﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أى : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون فى إطار ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩)** ﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكى نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما أعطى للإنسان الاختيار فى أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً فى إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتى جزاء الجهاد فى ذات الله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أى : ندلّهم على الطرق الموصِّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[١] ، ولا تحقرن من المعصية شيئًا ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[٢] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره فى خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل فى شىء فأنت مفضول فى أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أى : السبل الموصِّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء فى اليقين الإيمانى الذى قال الله عنه : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢) ﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا فى علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا فى العمل بما علمناه[1] فالذى جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا فى العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقى الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه فى القرآن يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدى به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذى وهبه الله للإمام على - رضى الله عنه - حينما دخل على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا على ؟

قال على : قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : أربعة وعشرون شهراً .

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وبطرح العددين يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقل مدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٥/٧) ، وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحى على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً - رضى الله عنه - تربَّى فى حِجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، ولَه فى الحق حجة ومنطق . فمثلاً فى موقعة صِفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف علي ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »[1] فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذَكُّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال - أى على - فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٩١) ، والبخارى فى صحيحه (١/٥٤١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب - مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان فى الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح فى نفسك المعاصى .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إنى أخاف ألاّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأننى أصبحتُ أشتهيها . يعنى : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لى شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبنى عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية فى أعراف البشر أنْ يلتقى شىء بشىء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن فى مسجد أبى بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثَل للذين قالوا لنبيهم[1] ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة فى الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل فى أنفسنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فتأمل فى أقرب شىء إليك فى نفسك ، لا فى الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهى بين جنبيك ؟ أأدركتها بأىِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هى معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهى خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله فى الآخرة ؟ ففى الآخرة يخلقنى الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب فى الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط فى الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون فى الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهى ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شىء ؟

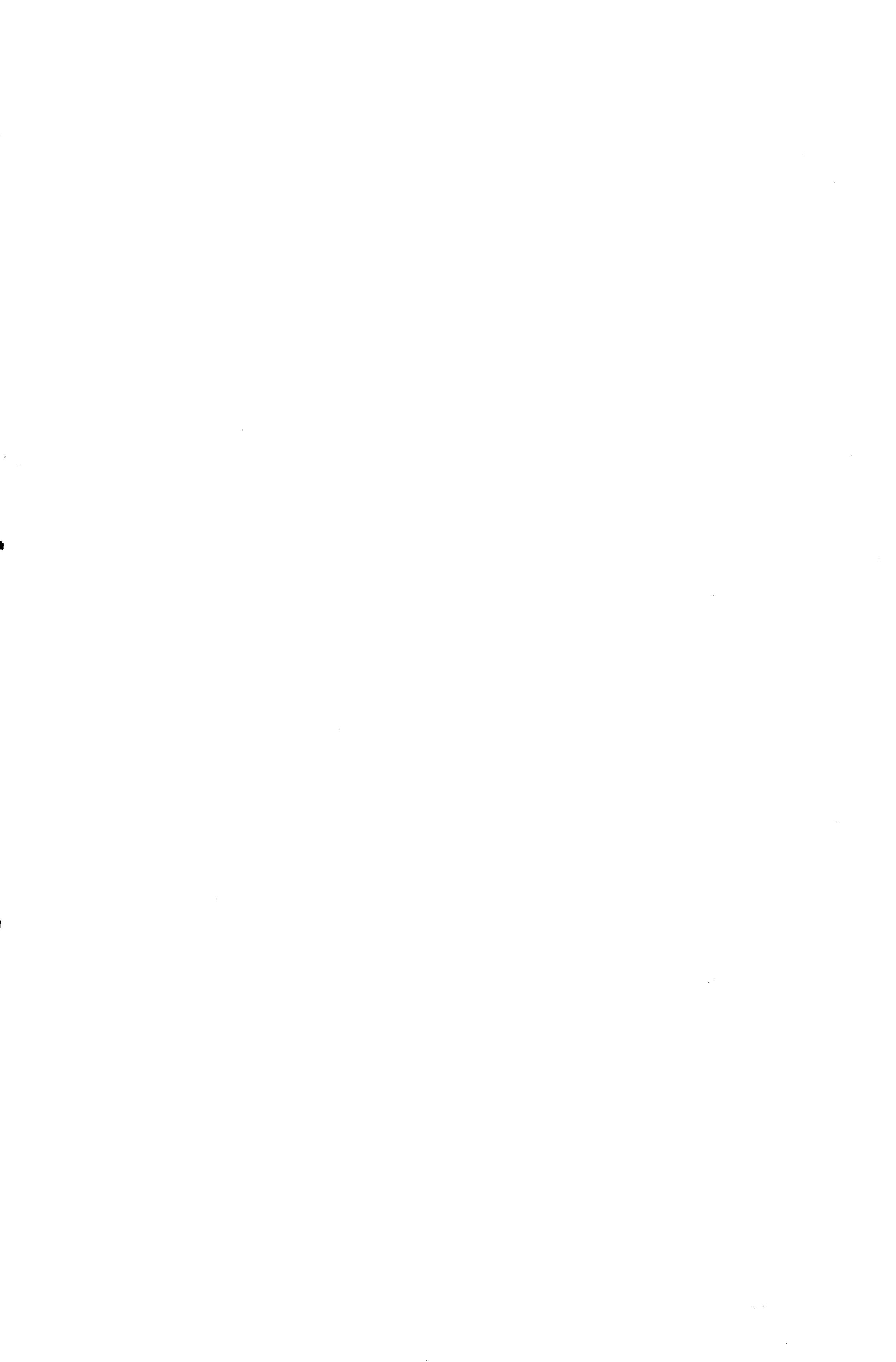
---

(١) قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣)﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق فى إطار : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]


سُورَةُ الرُّومِ





سورة الروم[1]



﴿ الٓمٓ ①﴾

﴿ الٓمٓ ①﴾ [الروم] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار في هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن في مجمله مبني على الوصل في آياته وفي سوره ، فآخر حرف في السورة موصول بأول حرف في التي تليها ـ فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المحْسِنينَ بسْمِ الله الرحْمنِ الرحيمِ ...) .

---

(١) سورة الروم ، هي السورة رقم (٣٠) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية، قال القرطبي في تفسيره (٥٢٥٧/٧) : « سورة الروم مكية كلها من غير خلاف » نزلت قبل سورة العنكبوت وبعد سورة الانشقاق ، فهي السورة رقم (٨٣) في ترتيب نزول القرآن . (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٧/١) .

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (.... مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيمِ الْحَمدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة فى أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[١] . فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما فى هذه الحروف من سرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه[٢] :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾

كلمة ﴿غُلِبَتِ .. ۝٢﴾ [الروم] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وأخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٦/١٨) من حديث عوف بن مالك الأشجعى ، قال الهيثمى فى المجمع (١٦٣/٧) : « فيه موسى بن عبيد الربذى وهو ضعيف » .

(٢) **سبب نزول الآيات :** بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبى ﷺ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ .....﴾ [الروم] إلى آخر الآيات .

وغُلب فريق ، فالذى غُلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق[1] بن إبراهيم .

﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ[2] وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾

قوله ﴿ أَدْنَى .. ③ ﴾ [الروم] يعنى : أقرب لأرض العرب ، كما فى ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ④② ﴾ [الأنفال] فالعُدْوة الدنيا أى : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ .. ③ ﴾ [الروم] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفى قوله سبحانه : ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾ [الروم]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٤) : « الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة » .

(٢) الأرض هنا هى أرض الشام . وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال :
- أذرعات : وهى ما بين بلاد العرب والشام . قاله عكرمة .
- الجزيرة : وهى موضع بين العراق والشام . قاله مجاهد .
- الأردن وفلسطين : قاله مقاتل .

قال ابن عطية :
- إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة .
- وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .
- وإن كانت بالأردن فهى أدنى أرض الروم . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٠] .

بشرى للمسلمين ، فالفرس قـوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كـتاب ، إذن : فـالخلاف بيننا وبيـن الفرس فى القـمة الإلهـية ، أمَّـا الخلاف بيننا وبين الروم ففى القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمـة الإسلام ، فـالذى يؤمن بالإله أقرب إلى نفـوسنا من الذى لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسـماء ؛ لذلك لما غُلبت الروم فرح كـفار قريش وحـزن المؤمنون ، وفرح كفـار قريش لأن فى هزيمـة الروم دليـلاً على أن محـمـداً وأصحـابه سـينهزمـون كأصحابهم .

وكلمة ﴿غَلَبِـهِمْ .. ③﴾ [الروم] مـصدر يُضـاف للفاعل مـرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقـول : أعجبنى ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضـفت المصدر للفـاعل . وتقول : أعجـبنى ضَرْب المذنب فَـأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿غَلَبِهِمْ .. ③﴾ [الروم] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سـبحانه : ﴿سَيَغْلِبُونَ ③﴾ [الروم] وجاء بالسين الدالة على الاسـتقـبال ، ثم قال بـعدها ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ④﴾ [الروم] وهى أيضاً دالة على الاسـتقبـال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتى فـجأة ، إنما لا بُدَّ لهـا من إعداد طويل وأَخْذ بأسبـاب النصر ، وتجهيـز القوة اللازمة له ، فكأنهم فى مدة البضـع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخـذوا جزءاً من النصر ، فالنـصر إذن لا يأتى فى بضـع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضـع سنين .

فـهتلر مـثلاً لمـا انهـزم فى الحرب العـالمـية ، وتألَّبتْ عليـه كل الدول ، جاء فى عـام ١٩٣٩ وهدد العالم كلـه بالحرب ، فهل سـقطت

عليه القوة التى يـهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عـدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّـز الجيش والأسلحـة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القـوة التى يهدد بها .

﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ **وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ .. (٤)** ﴾ [الروم] ففـرح المؤمنون حـتى قال أبو بكر : والله لا يـسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الرومَ على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تـعنى من الثلاثة إلى العشـرة ، فأخـذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّديق ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحـمِّل المؤمنين مـشـقة الصـبر مـدة التـسع سنين ، وهذه من الصديقية التى تميز بها أبو بكر رضى الله عنه .

لذلك قـال أبو بـكر لأُبىٍّ بن خلف : والله لا يقـرّ الله عــيـونكم ـ يعنى : بما فـرحتم به من انتصـار الكفار ـ وقد أخـبرنا الله بذلك فى مدة بضع سنين ، فـقال أُبىٌّ : أتراهننى ؟ قـال : أراهنك على كذا من القـلائص ـ والقلوص هى الناقة الـتى تركب ـ فى ثلاث سنين عشـر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلـما ذهـب أبـو بـكر إلى رسـول الله ، وأخـبره بمـا كان قـال : « يا أبا بكر زِدْه فى الـخطر ومـادِّه » ، يعنى زِدْ فى عـدد النوق من

عشرة إلى مائة وزده فى مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبىٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق فى الرهان على مائة ناقة[1] .

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصِّدِّيق مهاجراً[2] رآه أُبىٌّ بن خلف فقال : إلى أين يا أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبكْر هو الجمل القوى يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير - فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذى بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلنى فيه ولدى عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدى .

وفى بدر[3] أصيب أُبىٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والبيهقى عن قتادة ، ولفظه . أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وعلى رأسهم أبو بكر : « ألم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلاً دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر » فزايدوهم ومادّوهم فى الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٨٢] .

(٢) كان أبو بكر الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه . قاله ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٨٠) كان هذا فى الهجرة إلى المدينة ، ولكن ثبت فى السيرة النبوية (١/٣٧٢) أن أبا بكر الصديق لما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىَّ . ثم أدخله فى جواره ورجع أبو بكر إلى مكة .

(٣) أُبىّ بن خلف قُتل فى غزوة أحد ، وليس فى غزوة بدر ، وقُتل بيد رسول الله ﷺ [ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١٢)] ، أما الذى قُتل فى غَزوة بدر فهو أمية بن خلف قتله بلال (السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٣٢) .

ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدقوا به »[(١)] .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التى يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذى اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية .. إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشىء الذى يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث فى أسرار الكون ليرتقى فى الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك ، وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه

---

(١) التصدُّق بالرهان بعدما جاء رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٤٨٠) وعزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أن أبا بكر هو الذى حمله إلى رسول الله فقال : « هذا السحت تصدق به » ولم يرد فيه ذكر لعبد الرحمن بن أبى بكر . فالله تعالى أعلم .

رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسان سيئة واحدة تزهدك فى كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضى ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشىء فى مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فمَن الذى أخبر رسول الله بما فى نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور فى نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذى أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله فى غزوة مؤتة[1] التى دارتْ على أرض الأردن ورسول الله ﷺ بالمدينة ـ ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التى حضرها رسول الله ، وكل حدث

(١) كانت فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة » زاد المعاد لابن القيم (٢/١٥٥) .

حربى لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هى التى انفردت بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور فى الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلان فقُتل ، فأخذها فلان فقُتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله[1] .

كما خَرق له حجاب الماضى ، فأخبره بحوادث فى الأمم السابقة كما فى قوله سبحانه : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ..** (٤٤) ﴾ [القصص] ، ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ..** (٤٥) ﴾ [القصص]

كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل ، كما فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها : ﴿ **وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** (٣) **فِي بِضْعِ سِنِينَ ..** (٤) ﴾ [الروم] فأرونى أىَّ قوة (كمبيوتر) فى الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد ﷺ ، وهو النبى الأمى المقيم فى جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس - يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذى يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذى أخبره ، وكون محمد ﷺ يعلنها ويتحدَّى بها فى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) .

ولهذه الثقة سُمِّي الصِّديق صدّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته فى صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. (٤)﴾ [الروم] يعنى : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغى أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذى يحزن لذلك ، والعاقل هو الذى يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرنى دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرنى بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد عدوى منى فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عدایَ لَهُمْ فَضْلٌ علَىَّ ومنَّةٌ ... فَعنْدى لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كَدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّه ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّى الأعَاديَا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢، ٦٣) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وهُم بحثُوا عَنْ زَلَّتى فَاجْتنبتُها　　وهُمْ نافسُونى فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة فى أنْ ينتصر الباطل ، ألاَ ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً فى مغنم ، انهزموا فى أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله فى كونه تقضى بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفى يوم حنين : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قلّة[1] ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا فى بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم فى النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] أىّ نصر الذى يفرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا

---

(١) أخرج البيهقى فى الدلائل (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذى يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله ﷺ . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شىء واحد ، إنما عدِّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذى انتصر فيه الروم صادف اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى بدر(١) .

وقوله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ .. (٥)﴾ [الروم] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذى يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية فى هذه الصفة ـ ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحدث فى نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتى القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شىء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقى الباطل ولا يُعلى الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾ [الروم] إلى قوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ..(٦)﴾ [الروم] قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هى العليا ؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شيء إلى شيء ، أما كلمة الله فهى العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرٌّ قبل أنْ يكون ﴿ **لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ** .. ﴿٦﴾ ﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذى كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرَجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدرِكْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلِم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول فى نادى قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعنى البشارة بالخير القادم فى المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد فى حَقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)﴾ [الرحمن]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأيُّ نعمة فى النار وفى الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهى عنه كالوالد الذى يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أى : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧) ﴾

إذا رأيت فعلاً نُفِى مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شىء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التى وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعى الذى نعمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق فى هذا العصر ، روسيا التى تبنتْ النظام الشيوعى ودافعتْ عنه بكل قوة هى التى نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدى أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأَوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التى ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت فى المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث فى البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات فى الماضى ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفى أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذى اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن فى غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيِدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[١] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (فى تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلى . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قولـه تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] فنفى الرمى ، وأثبته فى آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبـات لشىء ، والنفى لشىء آخر . وسـبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى تجبره على المذاكرة فيفـتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكـرتَ وما ذاكـرتَ ؛ لأنه فـعل فـعْل المـذاكـرة ، ومع ذلك هو فى الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخـذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جـيش الكفار ، لكن ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قـدرتك البشـرية لا توصل هذه الرمية إلـى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ فى قـوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قلـيلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقـوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعـت هذه القوانين وشُـرعت هذه النظم كانت هنـاك فئـة ترفضـها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذى يعلمونه من الحـياة الدنيا فيه مُتَع ومـلاذ وشـهوات ، البـعض يعطى لنفسـه فـيهـا الحرية المطلـقة ، وينسى عـاقبـة ذلك فى الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيـمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقظهم ، إنما ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذى لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل فى نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهى مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة فى القصبة الهوائية ، فبلاً شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التى لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هى التى تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل فى إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل فى عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك فى شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل فى الأمعاء وفى المثانة ، ففى لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا فى أنفسنا ، ويكفى أن نقرأ : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث فى أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما فى السموات والأرض من آيات ، أما نفسى فهى أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. ٨﴾ [الروم] أى : فكِّروا فى أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومِرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع فى مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر فى نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون فى صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك فى النفس الرغبة فى العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر فى أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله ـ عز وجل ـ فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ⑧ ﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جَوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى :
﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. ⑫ ﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى نشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات ـ مع أنهم كفرة ـ يعلمون الغيب لأنهم توصَّلوا بحسابات دقيِّقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة ـ كما سبق أنْ قُلْنا ـ ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد توصّل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التى تُقدّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشىء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

﴿ ٥ ﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باق ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿ ٨ ﴾ [الروم] فبعد أن ينقضي هذا الأجل الذي أجَّلَه الله تُكوِّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشيء الثابت ، إنما يزول وينتهي .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿ ٨ ﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم في تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم في عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا في المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم في الدنيا عاقبه الله تعالى في الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب في كل شيء ، فالذي أطلق لنفسه العَنان في الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ في الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿ ٨ ﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ـ خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها ـ فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٩) ﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا

من دقة الأداء القرآنى ، ومظهر من مظاهر إعجازه ، فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير فى الأرض ؛ لأن الذى خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

ذلك لأن الأرض ليست هى مجرد اليابسة التى تحمل الماء ، والتى نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوى ؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما فى الأرض .

والسير فى الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات فى الأرض التى تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفى كل منهما خيرات ؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتى كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذى لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً فى هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم فى عام ١٩٧٣ ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حين تسير فى الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقى القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير فى كل قطاع من الأرض يساوى مجموع الخيرات فى القطاعات الأخرى .

الجبال التى هجرناها فى الماضى وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هى الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية فى سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغى لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ⁽٩⁾ ﴾ [الروم] أى : الأمم التى كذَّبَتْ الرسل ، وفى آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⁽٤٠⁾ ﴾ [العنكبوت]

ويخاطبُ سبحانه كفار قريش : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ⁽١٣٧⁾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⁽١٣٨⁾ ﴾ [الصافات]

أى : فى أسفاركم ورحلات تجارتكم ترونَ مدائن صالح وغيرها من القرى التى أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكل ذى عينين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⁽٦⁾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⁽٧⁾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⁽٨⁾ ﴾ [الفجر] وكانوا فى رمال

الأحقاف ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر] وهي الأهرامات ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر]

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمي نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم في هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ۝٩﴾ [الروم] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركي قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد في قوله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال]

لذلك يقول بعدها : ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ۝٩﴾ [الروم] فالأمم المكذِّبة التي أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أي : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد غير ذي زرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما في قوله سبحانه : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. ۝٢٠٥﴾ [البقرة]

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدي مهمتها كما ينبغي ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات

ولا تعطى فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد فى التربة ، خاصة فى بداية الإنبات .

وفى موضع آخر يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عن النبات : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

وفى قصة البقرة مع بنى إسرائيل لما تلكئوا فى ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ .. (٧١) ﴾ [البقرة]

يعنى : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا فى حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا فى سَقْيها بعد أنْ تُحرَث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعى لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففى هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿ عَمَرُوهَا .. (٩) ﴾ [الروم] أى : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التى جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقى والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا بين الزرع والغَرْس :

فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسُه ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذْر الحبِّ ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] فبعد أنْ أعطاهم مُقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. ⑨ ﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات الدالة على صدْق الرسول فى البلاغ عن ربه وهذه التى نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله وهى المعجزات ، وآيات القرآن التى تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بينة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑨ ﴾ [الروم] نعم ، ما ظلمهم الله ؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما فى يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذى لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله - عز وجل - وهو سبحانه مالك كل شىء ، وغنى عن كل شىء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فواحد يأتى إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبنى حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق - سبحانه وتعالى - خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتى الفساد إلا من تدخُّل الإنسان ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

وينبغى على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة ١٩٥٠ كنا ننتظر السَّقاء الذى يأتى لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها فى (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد فى وضوئه عن هذا الكوز ؛ لأننا نشترى الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكى يتوضأ من حنفية الماء . وفى ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحى وللمياه الجوفية التى تضر بالمبانى وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبى ﷺ من الإسراف فى استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ[1] .

فمعنى الذين أساءوا : أى الذى جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعى أن تكون عاقبته من جنس فعْله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ .. (١٠)﴾ [الروم] والسُّوأى : مؤنث سيء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهى أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ [الروم] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدَّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزىء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزىء بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد فى اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)﴾ [المطففين]

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم فى الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال : أفى الوضوء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جارٍ . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٢١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) .

آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء في الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو في حمئة المعصية ؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذى خلق بَدْءاً ، فهو الذى يعيد ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وفي أعراف البشر أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أمّا الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] أى : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن في الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون في حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً

إلى الزرع تحصده وتأخذ منه التقاوى للعام القادم ، وهكذا فى دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيها من جمال فى المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التى بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر فى الأثير ، ثم يتفتت الباقى ويصير تراباً ، فإذا ما زرعتَ وردة جديدة أخذت من المائية التى تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التى فى الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهى أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التى خلقها الله هى هى فى الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء فى الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن .. الخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] نلحظ أن الكلام هنا عن الخلْق ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] ولم يقل يرجع أى : الخلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون فى بَدْء الخلق ولا فى إعادته ، لكن يختلفون فى الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففى حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد فى البدْء وفى الإعادة ، وانتقل إلى

الجمع فى الرجـوع إلى الله لاختـلافهم فى الرجـوع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى : يسكتـون سُكوتَ اليائـس الذى لا يجد حجـة ، فينقطـع لا يدرى ما يقول ولا يـجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قـادتهم وكبراؤهم قـد سبقـوهم إلى العـذاب ، فـلم يعُـدْ لهم أمـل فى النجـاة ، كـمـا قـال تعـالى : ﴿ يَقْـدُمُ قَـوْمَـهُ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] ، ومن ذلك سُـمِّى (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفى موضـع آخر يقول الـحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : لمـا نسوا منهج الله أراد سـبحـانه أن يعاقـبهم فى الدنـيا ، وحين يعـاقبـهم الله فى الدنيا لا يأخـذهم على حالهم إنمـا يُرخى لهم العَنان ، ويُـزيد لهم فى الخـيـرات ، ويُوسِّع عليـهم مُـتَع الدنيـا وزخارفهـا ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليـماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

كما أنك مـثلاً لا تُوقِع عدوك من على الحصيرة ، إنمـا ترفعه إلى أعلى ليكون الانتـقام أبلغ ، أمّا إنْ أخـذهم على حال الضِّيق والفـقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ فى قوله تعالى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ.. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرق بيِّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿ فَتَحْنَا لَكَ .. (١) ﴾ [الفتح] إنما على ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤) ﴾ [الأنعام] فتعنى ضدهم وفى غير صالحهم ، كما نقول فى المحاسبة : له وعليه ، له فى المكسب وعليه فى الخسارة .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣) ﴾

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة]

وكذلك يقول التابعون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع فى الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقى عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التى تربط أهل الباطل فى الدنيا ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) ﴾ [الروم] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : الذين اجتمعوا فى الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون فى ناحية والكافرون فى ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم فى صفوفهم .

والتنوين فى ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] أى : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هى الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] الروضة : هى المكان الملىء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ فى بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شىء عظيم ونعمة كبيرة . ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] من الحبور[1] ، وهو الفرحة حينما

---

(١) قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون . وقيل : ينعمون . قاله مجاهد وقتادة . والحبرة عند العرب : السرور والفرح . ذكره الماوردى . وقال الأوزاعى : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردَّتْ الغناء بالتسبيح والتقديس . [تفسير القرطبى ٥٢٦٨/٧] .

يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١) ﴿١٦﴾ ﴾

المحضر بالفتح : الذى يحضره غيره ، ولا تُقَال إلا فى الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه فى كل أوقات اليوم والليلة ، فى الصباح وفى المساء ، فى العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنىٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد

---

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذَّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٩] .

فى مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل - ولله تعالى المثل الأعلى - ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً فى اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التى ستقولها ، ثم هو الذى يُنهى اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفى أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا الله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسى عِزاً بأنِّى عَبْدٌ يَحْتَفى بى بلاَ مَواعيدَ رَبّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأَعزِّ ولكن أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..** ① ﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ ..** ⑰ ﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..** ⑪ ﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزَّه فى ذاته ، مُنزَّه فى صفاته ، مُنزَّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..** ⑪ ﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..** ① ﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..** ① ﴾ [الحديد] ثم ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..** ① ﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ① ﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شئ فى الوجود مُسبِّح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التى لا يسمع لها صوتاً ولا حسّاً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كانَ تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : ففهْمُك له غير حقيقى ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهى تسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولِمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال فى عموم الكائنات : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثَل فى ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهى لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التى تتكلم أنت بها .

لذلك تأتى كلمة (سبحان الله) فى الأشياء التى يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى فى الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر فى هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود فى ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبى : ردِّدى الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فَهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[(١)] ، وتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لَعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أُسرِى بى » ، فلا دخلَ له فى هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرِى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك فى الزمان وفى المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التى ستقطع بها المسافة ، فالذى يسير غير الذى يركب دابةً ، غير الذى يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان فى قوانين البشر : إذا زادت القوة قَلَّ الزمن ، فكيف لو نسبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبى ﷺ لَمَراء كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداثُ لرسول الله هى التى استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) « أن أكثر الناس فى قريش قالوا : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التى يقف عندها العقل ، وينبغى أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية فى النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها فى الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها فى الحيوان ، هذه حدود العقل فى مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية فى الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفى الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعةَ تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] فى ناحية ، و ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾ [الروم] فى ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة فى اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحمده على أنه مُنزَّه عن المثيل ؛ لأنها في مصلحتك أنت ، وأنت الجاني لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذي يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذِى تَجْتويهِ[1] فيه مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ نَجَاةُ

إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذى لا مثيلَ له ، والقوى الذى لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كبرياءه يحمى الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذى تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقول فى العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا فى عبوديتك لله .

والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابى أحداً على أحد . فنحن جميعاً شركة فى الله ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] أى : لا شىء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعد التسبيح ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ .. ۝١٨ ﴾ [الروم] لأن التسبيح

---

(١) الاجتواء : عدم موافقة الشىء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنها اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغى أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أى : الحمد لله على أننى سبَّحت مسبِّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التى أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهى المساء والصباح والعشى ، وهى من العصر إلى المغرب . ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية فى كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأىّ صباح وأىّ مساء ؟ صباحى أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائى أم مساء غيرى فى أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل فى دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعنى أن الله تعالى مُسبَّح معبود فى كل لحظة من لحظات الزمن .

وفى ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »[1] فالكون لا يخلو فى لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعنى أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحىِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحىِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففى المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذى هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفى الصباح وقت الحركة والعمل والسعى على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء فى بعض المواعظ : « لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالين ، وعاينَّا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى هنا (الحى والميت) أى : فى نظرنا نحن وعلى حَدِّ علْمنا وفَهمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شىء فى الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقى إلا فى الآخرة التى قال الله فيها : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فضدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وما دام كلُّ شىء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شىء بالتالى حَيٌّ ، لكنه حى بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّموننا كيفية عمل

المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك فى اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة ؟ أليست هذه حركة فى الجماد الذى نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شىء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة فى الأحياء فحسب ، إنما هى فى كل شىء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف فى طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة فى قولها .

﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] فهى تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم] أى : فى عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعنى يُخرِج

(١) معنى أوزعنى : ألهمنى وأَوْلِعْنى به . وتأويله فى اللغة : كُفَّنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ، وكُفَّنى عما يباعدنى عنك . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

البيضة من الدجاجة ، ويُخرج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحى من الميت من كل شىء موجود .

ثم يقول سبحانه ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩)﴾ [الروم] وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .. (٩٥)﴾ [الأنعام] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون فى أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغةً ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم الملكة العربية التى تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذى يتكلم ربٌّ يعطى لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة فى موضعها الذى لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩)﴾ [الروم] هذه فى مصلحة مَنْ ؟ فى مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرج الحىَّ من الميت أُخرِج الميت من الحىِّ فانتبه ، وإياك أنْ تتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك فى أىِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على

الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. ۝٢ ﴾ [الملك] وفى نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل فى الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ۝٢ ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر فى الحياة تذكّر الموت حتى لا تغترّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً فى سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ ﴾ [الواقعة]

يعنى : خذوا بالكم ، وافهموا أننى واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ فى الإنسان صفة الكبرياء والتعالى ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذِكْر الموت وذِكْر الحياة فى آيات القرآن الكريم .

ثم ألاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذى أجَّله سبحانه ، وفى هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسلَب منك الحياة التى ينشأ منها غرورك فى أىِّ لحظة ، ودون أنْ تدرى ودون سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقِمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترىء على

المعصية ؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسَك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (١٩) ﴾ [الروم] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثَر فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. (٦٣) ﴾ [الحج] فهل اخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاك على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّرك وجعلك صالحة تقية قوَّامة ... الخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذى نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هى مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يردْ على ذهْنه المعنى الثانى ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشيء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس فى مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما فى الزرع وفى الماء وفى النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

ونلحظ فى الأداء القرآنى فى هذه الآيات الدقة فى استخدام لام التوكيد فى ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا.. (٦٥)﴾ [الواقعة] فى الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقى ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر فى نقضه ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال ﴿جَعَلْنَاهُ.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾ [الروم] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرضِ الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم.. (٢٠)﴾ [الروم] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذى يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضى لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هى الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنوىَّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا فى الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالى فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذَّرِّ الذى شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التى شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فى كل منّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هى التى شهدتْ هذا العهد ، وهى التى تمثل الفطرة الإيمانية فى كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصى .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غنَاه غنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد منَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التى وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا يُعدِّى أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّى له القدرة ذاتها ، فيُقوِّى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إننى خلقتُه بيدى فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين]

فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٢٠) ﴾ [الروم] أى : الأصل الذى خُلِق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هى العناصر التى وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان ، وكلها مُسميَّات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول فى مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه ؛ لأن الذى خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم فى نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول فى شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء فى مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذّبوا دين الله ، وأنْ يُشكّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبى ﷺ ويُشككون فى صحتها ، هذه فى الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة ـ الثلاثى الذى نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتى يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) والدارقطنى فى سننه (٢٨٦/٤) من حديث المقدام بن معديكرب رضى الله عنه .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً فى أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهى يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن - عندما يصلى المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصَّب له ، أم من السنة التى يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكى لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا فى الكون المشاَهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذى لم نشاهده .

ففى أعرافنا أن هَدْم الشىء أو نَقْض البناء يأتى على عكس البناء، فما بُنى أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُنى آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شىء فى بنائه ، ثم يتصلّب الجسد ويتجمد ، كما كان فى مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى فى المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله فى الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر

الخصْب والنمـاء ، ومخازن للقوت وهما مُـقوِّم من مُقوِّمـات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القـرآن عن التراب قال سبـحانه : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. ⑩﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبـال لأنها أقرب مـذكور أو فى الأرض عمـوماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⑩﴾ [فصلت]

فـالقوت يأتينـا من طينة الأرض ، ومن التـراب الذى يتفـتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغرْيَن الـذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غيـر المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصـدق الله العظيـم حـين قـال : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ⑤③﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثهـا (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدْق .

تأمل ظاهرة اللغـة ، وكيف نتكـلم ونتفـاهم ، فأنت إذا لم تتـعلم الإنجليزية مثـلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم الـعربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فمـا تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسـان وحـده لما احتـاج للغـة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حـين يعيش فى جـماعة فـلا بُدَّ له أن يتفـاهم معـهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقى للإنسان المتكلم دلالات الإشارة فى النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفى فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضرورى ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبى ومن المحيط بى ، وتعلمها أبى من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر فى الإنسان ، وسوف نعود بالتالى إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يردُّ علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقى استقرائى يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] ثم : أى بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخلْق وتزايدوا بسرعة ؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجأة ، والتى يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعنى : فاجأنى ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون فى الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا.. (٢١)﴾ [الروم] يعنى : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين إنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط فى النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف فى النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقّة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهى تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذى أراده الله وقصده للتكاثر فى بنى الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذى لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجرى مقارنة بين الليل والنهار .. أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآنى حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أى : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعى والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعى إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتى لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

وعجيب أن نسمع من يقول ـ من الرجال ـ ينبغى للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدى ما يؤديه . ونقول : لا تستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] أى : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول ملَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : من العرب ومن قريش .

والبعض[1] يرى أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهى من أنفسنا يعنى : قطعة منا ، لكن الكلام هنا ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعنى اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وفى الماضى كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة] فماء المرأة لا دخلَ له فى نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

---

(١) قاله قتادة . المراد حواء خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٢/٧) ، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤٩٠/٦) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخذ به ابن كثير فى تفسيره (٤٢٩/٣) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١)﴾ [الروم] يعنى : من ذكور الأزواج[١] ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واى) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعنى الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذه المسألة قصة أبى حمزة الرجل العربى الذى تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقوْلُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التى أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

مَا لأبى حَمْزةَ لاَ يأْتينَا ... غَضْبانَ أَلاَّ نَلدَ البَنينَا

تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أَيْدينَا ... ونحن كالأرْضِ لِزَارِعينا

نُعطى لَهُمْ مثْل الذى أُعْطينَا

والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إننى أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخَلْق الله على أرض الله .

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التى لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرعَتْ لكفَت العالم العربى كله ، فى حين نعيش نحن فى الوادى والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت فى الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التى قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) أخذ بهذا الرأى القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٣/٧) ، فقال : « ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٢١)﴾ [الروم] . أى : من نطف الرجال ومن جنسكم » وذكر قول قتادة بصيغة التمريض (بالميم) « قيل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى كتابه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » لابن كثير ـ ص ٣٤ ـ مطبعة صبيح : « صيغة الجزم ، قال ، وروى ، وجاء ، وعن » وصيغة التمريض (بالميم) نحو ، « قيل ، ورُوى عن ، ويُروى ، ويُذكر » ونحوها .

لذلك لما أُتيح لنا الحديث فى الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة فى كتاب الله لو عملتم بها لَحلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية فى العالم كله ، يقول تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى فى هذه المسألة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ۝٩٧﴾ [النساء] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره فى أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذى وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير فى كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخل الفرد .

فالمسألة - إذن - ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج الله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝١٢٤﴾ [طه]

لذلك لو عِشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.. (٢١)﴾ [الروم] هذه هى العلة الأصيلة فى الزواج ، أى : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه فى حركة العمل والسعى على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفى هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل فى غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدِّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغى للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدى مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] المودة هى الحب المتبادل فى (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهى تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] هذا فى إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتى فى مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوى قد يصير إلى الضعف ، والغنى قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض ... الخ .

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التى ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر .. الخ .

وكثيـر من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعـون هذه التعاليم يعيشـون حياتهم الزوجية على هذا المـبدأ مبدأ الرحمـة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التى أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟) .

هذه هى المرأة ذات الدين الـتى تعيدنا إلى حـديث رسول الله فى اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها - وهذه كلها أغيار - ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[(١)] . فأنت وهى أبناء أغيار ، لا يـثبت أحد منكما على حالـه ، فيجب أنْ تردا إلى شىء ثابت ومنهج مـحايد لا هوى له ، يمـيل به إلى أحدكمـا ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا فى دين الله .

لذلك يحـذرنا النبى ﷺ : « إذا جـاءكم مَنْ ترضـون دينه وخُلقـه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكُنْ فتنة فى الأرض وفسـاد كبير »[(٢)] .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظرى ، أو كذا وكـذا ، لأن الزوجة مـا جـعلها الله إلا سكنـاً لك وأنثى ووعاءً ، فـإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجـد مصرفاً ، كما قال النبى ﷺ : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته - أى : تعـجبه وتحرّك فى نفسه نوازع - فليأْتِ أهله ، فإنْ البُضْـع واحد »[(٣)] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٢٨) ، وأبو داود فى سننه (٢٠٤٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال البوصيرى فى الزوائد : « الحديث قد أخرجه الترمذى ورجح إرساله . ثم أخرجه من حديث أبى حاتم المزنىّ ، وقال فيه : إنه حسن » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥) ، وكـذا مسلم فى صحيحه (١٤٠٣) من حديـث جابر رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امـرأته زينب ، فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحـابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه » .

وكلما طبَّق الزوجـان المقاييس الدينية ، وتحلَّيـا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجـبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فـسيـبقى جـمال الروح ووقـارها ، سيـبقى فى المـرأة جمـال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخـلاصـها لك وتفانيها فى خدمـتك وحرْصـها على معـاشك ورعايتهـا لحرمة بيتك كلّمـا تمسكْت بها ، وازددتَ حـباً لها .

وكذلك الحال بـالنسبة للزوجة ، فلكل مـرحلة من العمر جاذبيـتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبـيعة المرأة أنْ يظهـر عليها علامات الكبَـر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعى هذه المسألة ، فلما سأل أحدهم الحـسن : لقـد تقدم رجل يخـطب ابنتى وصفَـتـه كـيت وكيت ، قـال : لا تنكحـها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهـها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم] يتـفكرون فى هذه المـسـائل وفـى هذه المـراحل التى تمـرُّ بالحـيـاة الزوجيـة ، وكيـف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفـسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكبَـر على الرحمـة التى يجب أنْ يتعايش بهـا الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) ﴾

في خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال في موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ⑩﴾ [لقمان]

فالسماء التي ترونْها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة[١] ، ولكم أنْ تسيروا في الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. ⑩﴾ [لقمان] يعني : هي موجودة لكن لا ترونها[٢] .

والمنطق يقتضي أن الشيء العالي لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغي أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ㊶﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشَاهداً في قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ⑲﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها في جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التي تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها في الجو ، نقول :

---

(١) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٣/٤٤٢] وقال (٢/٤٩٩) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعني : بلا عمد ، وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⑥⑤﴾ [الحج] » .

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير في تفسيره ٣/٤٤٢) وقال (٢/٤٩٩) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضاً فى جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. ﴿١٩﴾﴾[الملك]

فترى الطير فى السماء ماداً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [غافر] مع أنها خُلقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله فى الإنسان : ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء] وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً فى عملية النطق ، حيث يشترك معه فى النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة فى هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعنى اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذى علَّمه اللغة حين علَّمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هى ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصرى ، وهذا سودانى ، وهذا سورى ، مغربى ، عراقى ... الخ نشترك جميعاً فى لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم فى البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدى إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] يعنى : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن فى آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش فى مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلٍّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما فى الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز فى نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو فى رقته أو فى تضخيمه .. الخ . فلَماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقى الأصوات ؟

قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغى أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق اللهُ فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسه ... الخ .

وفى ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفِعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائى ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجانى .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴿١٣﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿لَآيَاتٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة . وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق - عز وجل - فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿لِّلْعَالِمِينَ.. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما نرى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : نمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالِم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين ـ هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كـرة تدور أو لا تدور ؟ مـا الحـرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا علْم له بالشرع يعـترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفـة العلم أن يقحم العالم نـفسه فيـما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يسـتشـهد رجال الدين على عـدم كروية الأرض بقوله تعـالى : ﴿وَالأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحـجـر] ولو تأملوا مــعنى ﴿مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] لما اعترضـوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سرْتُ فى الأرض وجدتها ممـتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منهـا ، وهذا يـعنى أنهـا كـرة لا نهـاية لهـا ، ولو كـانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول لـلعلماء عمـوماً : لا تُدخلوا أنوفـكم فيمـا لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحـابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾

كذلك من الآيات العجيـبة الدالة على قدرة الله ﴿مَنَامُكُم .. (٢٣)﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرٍّ

النوم ، ولم يعرفوا - رغم ما قاموا به من تجارب - ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتى من القوة ، ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع .. الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت - بدون شعورك وبأمر غريزى - إلى أن ترتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتى بالاستدعاء ؛ لأنك قد تستدعى النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أىِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربى : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كونى جميل فى النوم ، يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فكل ما فى الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبحة ، إنما إرادته هى الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو فى

الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ .. الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لأرتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي ﷺ : « تنام عيني ولا ينام

قلبى »[1] لأنه ﷺ حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفى العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأىّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ فى هذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفى آية أخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار .

وهذا أسلوب يُعرف فى اللغة باللفِّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملةً ، وتتركه لذكاء السامع لِيُرجع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وجَفْنِى واللسَان وخَالِقى   رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِر وغَفُور

فجمع المحكوم عليه فى ناحية ، ثم الحكم فى ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) أن عائشة سئلت : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ، ولا ينام قلبى » .

وهاتان الآيتان من الآيات التى وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا فى الآية التى معنا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعى .

وفى الآية الأخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾[القصص] ثم قال ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين فى المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات فى الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] يعنى : طلب الرزق والسَّعْى إليه يكون فى النهار ويكون فى الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التى يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ليلاً ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك ؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وذيَّل

الآية بأفلا تسمعون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] وذيَّل هذه بأفلا تبصرون ، لماذا ؟

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هى الوسيلة التى تؤدى مهمتها فى الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا فى الزمن العادى الذى نعيشه ، أما فى بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خلْفة له ، لكن الليل فى هذه الحالة لا يكون خلفة لشىء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن فى كروية الأرض ، ولو أن رسول الله ﷺ أخبر فى بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق - سبحانه وتعالى - لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلق الله تعالى الشمس فى مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتى الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل فى هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق - عز وجل - أخبر أن الليل والنهار كل منهما

خلْقة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا كانتْ الأرض مكُوَّرة ، فما واجه الشمسَ منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

فالحق سبحانه ينفي هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، ألاَ تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره ؟ وما داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا وُجدا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

نلحظ فى تذييل الآيات مرة يقول سبحانه ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ومرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم] أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم] فتختلف الأدوات الباحثة فى الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلة يُعملها فى كل شىء ، فالعقل هو الذى يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل فى مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك فى القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت واثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقلَ .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعظَة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظرَ فى البدائل وفى المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلى ، وهذا قطن خالص ، ولا يكتفى بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (فتلة) من القطن ، ويشعل النار فى كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذى يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما الآخر الذى لا يثق فى جودة بضاعته

فإنه يلجأ إلى ألاعيب وحيل يغرى بها المشترى ليغُرّه .

كذلك الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا إلى البحث والتأمل فى آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .

والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع فى الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التى توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتى بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤)﴾ [الروم] ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .

لكن أكُلّ الناس يرجون المطر ؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم فى بادية ليس لك كِنٌّ تكنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع فى الماء الذى به تحيا الأرض بالنبات .

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٤)﴾ [الروم]

وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهى السموات السبع ، ومدلول لُغوى ، وهى كل ما علاَّك فأظلَّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤)﴾ [الروم] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعنى : كل ما علاك فأظلَّك .

ولو تأملتَ الماء الذى ينزل من السماء لوجدتَّه من سحاب متراكم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣)﴾ [النور]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبْع ، وليكفى ماء المطر سكان اليابسة .

وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء فى عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفّ فى عدة دقائق لماذا ؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .

ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التى نُجريها فى الصيدليات لنحصل منها على الماء النقى المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلى ، ثم تمريره على سطح بارد فيتكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافى ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً فى غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التى ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفى طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا ٣٠ متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس ؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن

الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطى الحرارة للجو ؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذى يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً ؛ لأن ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه ؛ لأنه مخزن للماء العذب الذى يروى بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

السماء هنا بمعنى السموات السبع التى تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشىء الذى يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهى أن الله تعالى ﴿ ويُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] فهى قائمة بأمره .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها محْكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلُوِّها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلى لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف ؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلَّك ، فانظر إلى

الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئاً منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان ؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهى منضبطة تؤدى مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى ﴿ تَقُومَ.. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] يعنى : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التى تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور فى دوائر متساوية ، إنما فى شكل إهليلى ، يتسع من ناحية ، ويضيق من ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت فى قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشترى ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

وعجيب أن يوم الزهرة ، وهو ثاني كوكب من الشمس يُقدَّر بـ ٢٤٤ يوماً من أيام الأرض ، في حين أن العام بالنسبة لها يُقدَّر بـ ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقل من اليوم ، كيف ؟ قالوا : لأن هذه دورة مستقلة ، وهذه دورة مستقلة ، فهي سريعة في دورانها حول الشمس ، وبطيئة في دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن في الفضاء وفي كون الله الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية في (سكة التبَّانة) ، وهذا كله في المجرة التي نعرفها - لو علمت ذلك لتبيَّن لك عظَم هذا الكون الذي لا نعرف عنه إلا القليل ؛ لذلك حين تقرأ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات] فاعلم أنها مسألة لا نهايةَ لها ولا حدودَ في علمنا وفي عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الذي يحسبه العلماء فيأتي منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها ؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب . فالأقرب - إذن - أن نقول : إنها لله الذي خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [الروم] معنى ﴿ دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [الروم] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التي يقول الله عنها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾ [يس] والثانية يقول فيها : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس]

فـالأولى للمـوت الكلى ، والثـانيـة للبعث الـكلى ، ولو نظرتَ إلى هاتين النفختـين وما جعل الله فيهـما من أسرار تلتقى بمـا فى الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحـدث فيهـا ميـلاد ، ويحدث فيـها مـوت ، فنحن مخـتلفـون فى مواليـدنا وفى آجـالنا ، أما فى الآخـرة فالأمر على الاتفاق ، فـالذين اختلفوا في المواليد سيتـفقون فى البعث ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ [يس]

والذين اختلفوا فى المـوت سيتفقـون فى الخمود : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ۝٢٩﴾ [يس] فالمـيلاد يقابـله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اخـتلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختـلاف هذه ؛ لذلك يقول : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ .. ۝٩﴾ [التغابن]

والنفخـة الثانية يؤديها إسـرافيل بأمر الله ؛ لأن الحق ـ سبـحانه وتعالى ـ يزاول أشيـاء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبـحانه وتعالى خلق الإنسان وسوَّاه بيده ، كمـا قال سبحانه : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. ۝٧٥﴾ [ص] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياءَ بواسطة خَلْقه فى كل مسائل الكونيات .

تأمل مـثلاً : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ۝٤٢﴾ [الزمر] فالمـتوفِّى هنـا الله عز وجل ، وفى مـوضع آخر : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. ۝١١﴾ [السجدة] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفى موضع آخر : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. ۝٦١﴾ [الأنعام] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً ؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم] أى : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعانى هى آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجأة إذن.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦) ﴾

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن كل ما فى الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل فى دائرة القنوت لله ؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتى إلا من ناحية العقل ؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذى لا عقلَ له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شىء على الله ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمِّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى فى الأولى ، ولا عصى فى الأخرى ؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله ، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره ؛ لأن الله لم يُذلله لك .

ونقف هنا عند قوله تعالى ﴿مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٢٦)﴾ [الروم] فمن فى السموات نعم هم قانتون لله أى : خاضعون له سبحانه ، مطيعون لإرادته لأنهم ملائكة مُكرَّمون ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم]

قالوا : لأنهم لما تمرَّدوا على الله وكفروا به ، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه لم يتمردوا بذواتهم ، إنما بما خلق الله فيهم من اختيار ، ولو أرادهم سبحانه مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً ، بإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصى ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً ، ولعصمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة ؛ لذلك قال إبليس فى جداله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس فى معركة مع ربه ، إنما فى معركة مع الإنسان . وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

ولما عشق هؤلاء المتمرِّدون على الله التمرد ، وأحبوه زادهم الله

منه وأعانهم عليه ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغنى عن خَلْقه ؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار : ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** (٢٩) ﴾ [الكهف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أيِّ حال تسعكم جنتى ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغى أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله فى كل شىء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له ﴿ **كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** (٢٦) ﴾ [الروم] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر فى كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ فى الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله فى منطقة الاختيار ، وهى الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيارَ له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه فى الأمور التى لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور

اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيار فى غير محلِّه ؛ لأن الذى يختار ينبغى أنْ يأخذ الاختيار فى كل شىء ، لكن أنْ تختار فى شىء ولا تختار فى شىء آخر ، فهذا لا يجوز .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس فى دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم فى مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] استُهِلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفى آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع فى إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعانى التى خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذى يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذى يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعانى لا تُدرك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ ... الخ .

إذن : فالمعانى العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك ؟

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذى من عظمته أنه لا يُدرَك ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣)﴾ [الأنعام]

لذلك نقرأ فى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو عَلَم على واجب الوجود يأتى بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شىء إلا الله ؛ لأنه لا شىء فى الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية فى الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفى كل وقت ترى فى خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضى (بَدَأَ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات .. الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح - يعنى : أن الروح تخرج من جسد فتحلُّ فى جسد آخر - وهذا يعنى أن تكون المواليد على قدر الوَفَيَات ، ويعنى أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التى يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفى لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم فى هذه المسألة ، فلا تُصْغون إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شىء آخر ؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ويقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شىء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿ يُعِيدُهُ .. (٢٧) ﴾ [الروم] أى : إلى الخَلْق فهى بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعنى

يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أى : فى القيامة .

وقوله ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] أى : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال فى حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر : ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [مريم] ذلك لأن طلاقة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم]

فالأمر عجيب فى نظر مريم ، أن تأتى بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً فى قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتى الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله فى قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه فى النار كان بالإمكان أنْ يُنزِل الله على النار مطراً فتنطفىء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه فى قَعْر النار ، وهى على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شىء هام ، هو أن الله تعالى ربٌّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده

القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق . وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ ﴾ [الأنبياء]

ونلحظ فصاحة الأداء فى ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. ۝٢٧ ﴾ [الروم] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذى حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ۝٥ ﴾ [الفاتحة] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك . كذلك هنا ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. ۝٢٧ ﴾ [الروم] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. ۝٢٧ ﴾ [الروم] الحقيقة ليس فى الأمور بالنسبة لله تعالى هَيِّن وأهون ، إنما فى عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ .. ۝٤٧ ﴾ [آل عمران] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. ۝٤٥ ﴾ [آل عمران] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] له المثل الأعلى يعنى : أن الله تعالى لا مثيلَ له ، فإنْ شابهه سبحانه شىء من خَلْقه فى صفة من الصفات فخُذْها فى إطار التقريب للمعنى ، وفى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَىٌّ والله حَىٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل .. وهكذا .

وقوله ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] نقول : عَال وأعلى ، فهى أفعل تفضيل بمعنى : الذى لا يُشابه ولا يُضَاهى ؛ لذلكَ يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] فينفى أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شىء .

وطريقة العرب فى الأداء فى مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد فى الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطينى صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شىء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد فى هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] تعنى : إنْ وُجد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المثْل ، فنفيتَ المثل من باب أَوْلَى ؛ لأن الأَضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّى للخَلْق مثلاً فى دنياهم ، ويجعل من ذاته - سبحانه وتعالى - المماثلة ، يقول تعالى ليُقرِّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥)﴾ [النور]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب المثل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن الله يقول ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] والمشكاة تجويف فى الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا فى الماضى يضعون المصباح فى هذه الفجوة ليضىء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوِّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مِثْل المشكاة التى فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقى فى وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد فى الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفى لاحتراق الفتيل ، فيأتى الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك فى زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] أى : مثل الدرة التى تضىء بذاتها . هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ.. (٣٥)﴾ [النور] فتصوُّر هذا المصباح فى مكان ضيق لا فى الحجرة كلها ، إنما فى المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله ـ سبحانه وتعالى ـ للسماوات وللأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذى وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة فى الأدب العربى ، فقد فطن إليها أبو تمام[1] فى مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له ملَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحِلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدامُ عَمْروٍ فى سَمَاحَةِ حَاتمٍ　　　وفى حِلْم أَحْنفَ فى ذَكاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدى كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائى بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل « أحلم العرب » فلا يُغضبه شىء أبداً ، ولا يُخرجه عن حلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يُخرجَوه عن حلْمه ، فتكون سابقة لَهم فتبعوه فى الطريق ، وأخذوا يهزءون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحى ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتية ، لقد قربنا من الحيِّ ، فإنْ كان فى جوفكم استهزاء بى فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل فى الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ فى البَأْسِ والنَّدَى　　　بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادمِ

فَفى جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنترٍ　　　وأَمْضَى وفى خُدَّامهِ ألفُ حاتمِ

فلما قيل لأبى تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

---

(١) هو : حبيب بن أوس بن طىء ، قال أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى (ص ١٧٣٨) : « شاعر لطيف الفطنة ، دقيق المعانى ، سلك فى البديع والمطابقة مسلكاً لم يسبقه من تقدَّمه إليه ، وإن كانوا هم الذين فتحوه له » .

لاَ تُنكِروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ   مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاس
فاللهُ قد ضَربَ الأقلَّ لِنُوره   مَثَلاً من المشْكَاة والنِّبراسِ[1]

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التى مع أبى تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى فى الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى فى السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما فى السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى فى السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم] أى : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) النبراس : المصباح والسراج . وهو ثلاثى مشتق من البرس الذى هو القطن . قال ابن سيده : وإنما قضينا بزيادة النون لأن بعضهم ذهب إلى أَن اشتقاقه من البرس الذى هو القطن ، إذ الفتيلة فى الأغلب إنما تكون من قطن . [لسان العرب - مادة : برس] .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٩٢) وعزاه للطبرانى وابن مردويه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ** .. (٧٣) ﴾ [الحج] فهذا كثير فى كتاب الله ، والمثَل يُضرب ليُجلِّى حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعنى إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ** .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقولنا فى مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ فى كذا ، فكأن الضرب يُحدث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثَل يوضح الشىء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسكّ العملة ، ويجعل الفكرة فى الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى فى مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهى جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمى لكن لم يمهله الظبى وفرَّ هارباً ، فقال له آخر

وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل فى مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب فى كل مناسبة مشابهة ، ويقال فى أىِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أنْ نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعدّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ فى الذِّهْن حتى صارتْ مثَلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعانى للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : مادام الله تعالى لا يستحى أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أَوْلى ، فلماذا يقول ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أى : فى الغرابة وفى القلة والصِّغر ، لا ما فوقها فى الكِبَر[1] .

---

(١) قول ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] فيه قولان :
أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة . وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين .
والثانى : فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير » .

ومن الأمثلة التى ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريك له . فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ فى الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحى أنْ أضرب الأمثال ؛ لأننى أريد أن أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

فى هذه الآية وبهذا المثَل يؤكد الحق - سبحانه وتعالى - فى قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شىء والأحدية شىء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون فى ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أى : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة فى قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] يعنى : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شىء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أى : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّى أرزقكم ، ومن رزقى لكم موَالٍ وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذى رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا فى أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم فى أنْ تتصرفوا دونهم فى شىء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه فى حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده فى ملكه ؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] أى : من البشر ، فهم مثلكم فى الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من قضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم فى مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ فى تقرير الحقيقة : ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون فى صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلَك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معى شيئاً .

أمّا حين تقول مستفهماً : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعنى أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ .. (٢٨) ﴾ [الروم] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء فى أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

وقوله تعالى : ﴿ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم] سبق أنْ تحدثنا فى مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم ؛ لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال - كما يظن البعض - إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغى عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقوىُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدّيه للجاهل ، والحليم رزقه حلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذى لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له فى

هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغى على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه ما سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧) ﴾ [الكهف] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يُوصفوا بألأم الناس ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضى أيَّده القاضى ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً فى موضوعه ، وإياك أن تظن أن السَّعْى هو مصدر الرزق ، فالسعى سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يأتيك يطرق عليك الباب[١] .

والذى يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكِّراً فيه ، ولو علم أن الذى خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق فى ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

---

(١) ومن شعر الشيخ رضى الله عنه :

تحرَّ إلى الرزق أسبابَه ... ولا تشغَلَنْ بعدها بالكا
فإنك تجهــلُ عنــوانه ... ورزقُك يعرفُ عُنوانكا

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة[1] وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده فى دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل فى أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفّقاً فى الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألنى حاجتك وأنت القائل :

لَقد علِمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى   أنَّ الذِى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتينى

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عنى خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ منى غافلاً ، وذكَّرتَ منى ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر فى نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صِلَة

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٧] . قال الإمام أبو عبيد البكرى فى « التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه » (ص ٢٩) : « روى عنه مالك وغيره من الأئمة » .

هشـام لك لم يَرْضَ أنْ تحمـلها أنت خـوفاً عـليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المـؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرتَ البيت الأول ، ولو ذكرت الثاني لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد عَلِمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقِى أنَّ الذى هُو رِزْقِى سوفَ يَأْتِينى
أَسْـعى إليْـهِ فَيُعْيِيـنى تطلــبّه ولَـوْ قَعَـدْتُ أتَانى لا يُعنِّـينى[1]

ثم يقـول سبحـانه بعد هذا الـمثل : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] أى : نُبيِّنهـا ونُوضِّحها ، بحـيث لو عُرِضتْ على العقل مجـرداً عن الهوى لا ينتهى إلا إليـها ، ومعنى ﴿ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] من العـقل ، وسُمِّى عـقلاً ؛ لأنه يـعقل صـاحبـه ويقيـده عمـا لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعِل لترتع به فى خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسـها لا تنطلق فيهـا على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغى . إذن : ما قصَّرنا فى البيان ولا فى التوضيح .

ويتـجلَّى دور العقل المـجرد ومـوافقـته حـتى للوحى فى سـيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وفى وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحى يأتى عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحى موافقاً لرأى عمر ، وكأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطرى إذا فكَّر فى أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب ،

---

(١) ذكر هـذه الأبيات خـير الدين الزركلى فى الأعـلام (٤/٢٢٧) وعزاها لعـروة بن أذينة . وأورد الأصفـهانى أخـباره فى كـتاب « الأغـانى » ص ١٩١١ وذكر هذا الخـبر بيـن عروة وهشام بن عبد الملك ، وأورد هذين البيتين .

وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] العقل وسيلة من وسائل الإدراك فى الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية فى الناس ؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التى توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء فى تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهى فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح .. الخ .

وحين تستقر هذه القضايا فى القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ فى الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذى لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتفكير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذى يختار فهو الميزان الذى تَزن به الأشياء ، وتحكم به فى القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتى نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان فى الشمس والقمر ، فيقول ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾ [الرحمن] أى : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [الروم] يعنى : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذى لم يبلغ ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع فى قول النبى ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء فى هذه السِّنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهى فى وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفى كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك فى هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذى تُكلِّف ، وأنت الذى تعاقب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج فى الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلْنا لذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أُكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتى بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتى بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

فما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذى وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شيء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة . وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل فى ماذا ؟ الله خلقك فى كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى فى خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً

آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذى لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها للتكاثر وحفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدى هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حفْظ النوع فى الإنسان بشهوة هى أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قُلْناه فى غريزة الجنس نقوله فى الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التى لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذى نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التى جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم .. الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجاً فى الحيوانات المحبوسة فى الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان

أولهـا الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التـمسـاح ، ثم القرود ، ثم الـحمـير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك مـا شاهده أهل أغـادير بالدار البـيضاء قـبل الزلزال الذى وقع بهـا ، حـيث شـاهدوا الـحمـيـر تفك قـيـودها ، وتفـرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعـدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيـوانات استشـعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق - سبحانه وتعالى - مثالاً لهذه الغريزة فى قصة الغراب الذى علَّم الإنسان كـيف يُوارى الميت ، فقال تعـالى فى قصة وَلَدَىْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

نعود إلى حـديثنا عن أجناس الكون لبـيان عدم عَـقْل هؤلاء الذين جـعلوا لله شركـاء ، فأجناس الـوجود : الإنسـان ، ثم الحيـوان ، ثم النبات ، فـفيه حـياة ونمو ، ثم الجـماد أقل الموجـودات درجةً ، وهو خادم للنبـات وللحيوان وللإنسـان ، فـكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعـل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جـعلوا الجماد الذى هو أدنى المخلوقـات أرقاها وأعظمهـا ، جعلوه إلهاً يُعْـبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

اتبعوا أهواءهم ؛ لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له . ولا تكليف ، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحى الهوى الذى اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته . لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهى الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد فى القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى الواحد هو المعنىّ فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[١] فالنبى ﷺ لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح فى حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فلَك محبوب ، ولى محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيمانى أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواى هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق ـ عز وجل ـ فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

من خلاله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⦗١٤⦘﴾ [الملك]

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة في الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى خلقك ، وهو الذى يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا فى الشيوعية وفى الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو وحده الذى لا يُستْدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شىء لا تخْفى عليه خافية ، والخلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ⦗٣⦘﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنى عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذى يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا فى مسألة التشريع أنه لا ينبغى أن تنظر إلى ما أُخذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذى منعك أنْ تعتدِى على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن فى صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله ـ عز وجل ـ لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩)﴾ [الروم] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوْه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩)﴾ [الروم] أولاً : ما هو العلم ؟ فى الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه ـ كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإنِ استطاع أن يدلل عليها فهى عِلْم ، وإنْ لم يستطع فهى تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهى فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمى : الأمى خالى الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة ، أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقِى إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنظر : إنْ تساوى الإثبات فيها مع النفى فهى الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوى فيها الإثبات والنفى ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفى فهو وهم . فعندنا - إذن - من أنواع القضايا : علم ، وجهل ، وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذى تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿ **فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ..** (٢٩) ﴾ [الروم] فقد ألغوْا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأننى رب أعين عبدى على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقوه ، كما قال سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسلّون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ .. (٢٩) ﴾ [الروم] يعنى : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله ـ أو أكمل له بقية النهار غشاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة فى بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما فى قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذى يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفى القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهى إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾ [الروم] يعنى : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

الخطاب هنا للنبى ﷺ : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لى ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أنْ يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول منى أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل علىّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهى على ألسنتنا وفى قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ

أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه ﷺ : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

فهنا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا.. (٣٠)﴾ [الروم] أى : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك فى الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعنى : اجعل وجْهتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعنى الذات كلها ؛ لأن الوجه سمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص] يعنى : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿حَنِيفًا .. (٣٠)﴾ [الروم] هذه الكلمة من الكلمات التى أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى فى رِجْله انحناء للداخل ، يقال : فى قدمه حنف أى ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أىِّ شىء ؟

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التى جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعنى : ذهب إلى الحق .

و (أَقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب

لأمتـه ، بدليل أنه سبحـانه سيقـول فى الآية بعدها : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣١)﴾ [الروم] ولو كان الأمـر له وحده لَقَـالَ منيبـاً إليه ، ومـثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالخطاب للأمة كلها فى شخص رسول الله ؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمـبلِّغ هو الذى يتلقى الأمر ، ويقـتنع به أولاً لِيـستطيع أنْ يُبلِّغـه ؛ لذلك قال الحق سبـحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وقال ﴿حَنِيفًا .. (٣٠)﴾ [الروم] لأن الرسل لا تأتى إلا على فـساد شمل الناس جـميعـاً ؛ لأن الحق سبحـانه كما خلق فى الجـسم مناعة مادية خلق فـيه مناعة قيـمية ، فالإنسان تُحـدِّثه نفسه بشـهـوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهى منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكى على ما كان منه ، وربما يكره مَنْ أعانه على المعصية .

وهذه هى النفس اللوامة ، وهى علامة وجود الخير فى الإنسان ، وهذه هى المناعة الذاتية التى تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصـية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسـعى إليها ، وهذا بيِّن فى قـوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

فَـرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العـلم ، فتـعـترض طريقـه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقـع فى المعصيـة رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قـصدها وسـعى إليهـا ، الأول غالبـاً ما يُؤنِّب نـفسـه وتتحـرك بداخله النفس اللوامـة والمناعـة الذاتيـة ، أما الآخـر فـقد ألِـفَتْ نفسـه المـعـصيـة

واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة فى المجتمع لا تعنى أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصى ، لكنها مُفرّقة على أهواء النّاس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا .. الخ .

إذن : ففى الناس مواطن قوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوى فى شيء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ جعل هذا المصل التطعيمى فى كل نفس بشرية ، حتى فى التكوين المادى .

ألا ترى قوله تعالى فى تكوين الإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥) ﴾ [الحج]

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هى الرصيد

المختزن فى الجسم ، وبه يعوِّض أىَّ خلل فى الأعضاء المخلَّقة ، فهى التى تمده بما يصلحه ، كذلك فى القيم جاء دين الله فطرت الله التى فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال إلى يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[1] .

وقال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[2] .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿ فِطْرَتَ.. ۝٣٠ ﴾ [الروم] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التى فطر الناس عليها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

لذلك يسمى علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثُّك على فعْله ، كذلك الحق سبحانه يغرى رسوله ﷺ بأنْ يُقيم وجهه نحو الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعنى الخلقة[1] كما قال سبحانه : ﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] يعنى : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعنى : الطبيعة التى أودعها الله فى تكوينك منذ خلق اللهُ آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن فى كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية فى كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكرى الحى الذى يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية فى كل منا هى التى شهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار فى الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقلت إليهم من هذا العهد الأول ،

---

(١) « قال ابن عطية : الذى يُعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى مُعدَّة ومُهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن بها » [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢٨٤] .

فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة فى الأذهان مع ما حدث من فساد فى معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التى اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب فى كذب ، ونصب فى نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفى وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ..** (٣٠) ﴾ [الروم] يعنى : ما استطاع أحد أنْ يقول : أنا خلقتُ السموات والأرض ، ولا أنْ يقول : أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسى .

﴿ **ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ..** (٣٠) ﴾ [الروم] أى : الدين الحق ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٣٠) ﴾ [الروم] أى : لا يعلمون العلم على حقيقته والتى بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) ﴾

أناب : يعنى رجع وقطع صلته بغير الحق ﴿إِلَيْهِ .. (٣١)﴾ [الروم] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق فى مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب ؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله فى بالك ثم تنصرف عن منهجه الذى شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان ؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء]

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك فى حركة حياتك ، وأنه الذى يُوصِّلك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا بالعمل والتطبيق .

﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] أى : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج فى افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا فى معنى التقوى وقلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد فى النهاية ؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٣١) ﴾ [الروم] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم فى أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل علىَّ ، وأنت حين تُلبِّى النداء لا تأتى لتعيننى على شىء ، ولا أنتفع بك فى شىء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد منى العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب ؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا ﷺ أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل ﷺ إذا عزَّ عليه شىء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدرى ؛ لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذى لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، فى حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهى الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة فى العمر ، ولا مرة واحدة فى العام ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعانى ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدِّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصــر هذا اللقاء شيـئاً ، أما فى لـقائك بربك ـ عز وجل ـ فالأمر علــى خلاف ذلك ، فربُّك هو الذى يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحـدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهى أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقـاء ، أو أنْ تعتكف فى بيت ربك فإنه ســبحـانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه ـ إذن ـ ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى(١) :

حَسْبُ نَفْسِى عزاً بأنِّى عَبْدٌ ... يحتَفِى بى بلاَ مَواعيدَ رَبُّ

هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَـزِّ ولكِـنْ ... أنَا أَلْقى متَى وأيْـنَ أُحِـبّ

ولأن للصلاة هذه الـمنزلة بين أركان الإسلام لم تُـفرض بالوحى كباقى الأركان ، إنمـا فُرضَتْ مباشرة من الله تعالى لـنبيه ﷺ ، حين استدعاه ربه للقائه فى السماء فى رحلة المعراج .

وسبق أنْ مـثَّلنا لذلك ـ ولله تعـالى المثل الأعلى ـ برئيس الـعمل الذى يُلقى أوامـره بالتليفون ، أو بـتأشيـرة على ورقة ، فـإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصــلاة ، وكذلك فُرِضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقـوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] ؟ وأين الشــرك ممَّنْ يُؤدِّى التعـاليم على هذا الوجه ؟ قالوا : الشــرك المنهىّ عنه هنا ليس

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نيةً أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك . فالذى يصلى أو يبنى لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراء ، وهو خائب خاسر ؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع فى الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أنْ يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشىء .

فالمعنى : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] أى : الشرك الخفى وهو الرياء ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول « اللهم إنِّى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالعمل الإيمانى ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ يفعل الصلاح فيوافق شيئاً فى نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير فى النفقات أو غير ذلك ، فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله بن الشخير أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » وقد أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٠٧/٢) .

أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج]

وكالتاجر الذى يلتزم الصدق فى تجارته ، لا حباً فى الصدق ذاته ، إنما طمعاً فى الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم الله ثمرةَ مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

فما أشبه الناس فى نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالركْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم ... هَيّا كُلوا وخُذُوا ما حَظكم فيه

لكِنْ دَعُونى أُلاَقِى مَنْ أؤملُهُ ... عَيْنِى تَراهُ وَوُجْدَانِى يُنَاجِيه

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد من عبده أنْ يقصده لذاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت فى الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك تقول رابعة العدوية[1] : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها ، لكنى أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

فرَّقوا دينهم كالركْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا .. (٣٢) ﴾ [الروم] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات]

أو شراً مثل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. (٤) ﴾ [القصص]

وفى آية أخرى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥) ﴾ [الأنعام]

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/١٠) .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [الروم] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم فى التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبى يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم[1] .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغنىً ومكانة ، فلما بُعث محمد ﷺ ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه ﷺ ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما فى التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هى التى حالتْ بين الناس وبين الحق الذى يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هى التى نراها الآن فى هذه الفرَق والأحزاب التى يدَّعى كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلى مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

الضر : هو الشيء الذى نتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفى بالخلاص منه ﴿ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ.. (٣٣) ﴾ [الروم] أى : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحى عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذى كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعى أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية فى ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه فى هذه اللحظة .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] .

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم]

أى : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا .. ﴿٨﴾﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [يونس]

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفى لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرَّأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم]

وفى آية أخرى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون فى هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلِّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أَدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا فى ميزات الصلاة أنها تُسوِّى بين الناس ، فيجلس الرجل العادى بجوار مَنْ لم يكُن يُؤْمَل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام .. الخ ففى الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿مَسَّ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿أَذَاقَهُم .. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة فى اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فَلَذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة فى الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس فى استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون فى الأمثال (اللى يفوت من اللسان بقى نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ فى مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولى على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿فَأَذَاقَهَا.. ﴿١١٢﴾﴾ [النحل] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿مِّنْهُ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] أى : من الله تعالى ، يعنى بلا أسباب ، أو ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ.. ﴿٣٣﴾﴾ [الروم] أى : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة . كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما

---

(١) رُغد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

تقول : ذُقْتُ الطعام . أو تقول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعاماً يعنى : ما أكلتُ عنده من باب أَوْلى .

لذلك الحق سبحانه وتعالى عبر عن الرحمة هنا بالإذاقة ؛ لأن رحمة الدنيا لا تستوعب كل رحمة الله ، فالقليل منها فى الدنيا ، وجُلُّها فى الآخرة .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الروم] ، أما فى الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فلماذا قال فى الأولى ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم .. (٣٣) ﴾ [الروم] وفى الأخرى : ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت] فلم يستثْنِ منهم أحداً ؟

قالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البَرِّ ، والناس فى البر عادة ما يكونون مختلفين ، فيهم الصالح والطالح ، والمطيع والعاصى ، فهم مختلفون فى ردِّ الفعل ، فالمؤمنون لما عَاينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحمد لله الذى نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخرى فتتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البحر ، وعادة ما نرى الذين يركبون البحر على شاكلة واحدة ، وهم لا يركبونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عوَّامة يجمع فيها أتباعه ومَنْ هم على شاكلته ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعون على شىء يحبونه ، فهم على مذهب واحد ، وطريقة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كانوا فى البحر فلا بُدَّ أنهم كانوا مجرمين

عتاة ، وكانوا سواسية فى الشرك وفى التخلِّى عن الله ، بمجرد أنْ أمنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿إِذَا.. (٣٣)﴾ [الروم] الفَجائية واستخدمه فى آية أخرى ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففى هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذى أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده فى نفسه وفى ذاته التى لم تنتفع بآيات الله فى الكون ، فتظل فى حضانة الله ، فيأتى له بالضُّر الذى ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشَر والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذى يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً فى الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشىء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ.. (٦٧)﴾ [الإسراء] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : فهؤلاء المشركون أشركوا بالله فى وقت الرخاء ، أما فى وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشَّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ،

ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأتْه الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يتبادر إلى الذهن أن اللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لام التعليل ، أو لام السببية التى يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك فى الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فعلَّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً فى مجىء الجواب كما يفهم السطحيون فى اللغة ، بل الجواب هو السبب فى الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب فى الشرط أى : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجىء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الأسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للأسكندرية ؛ لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أى : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدى علىَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمنى ويحبنى ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذى ربَّى ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذى رُبِّى .

فالأسلوب هنا ﴿لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الروم] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [القصص]

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بنى إسرائيل ، وكما يقولون فى الأمثال (بيربى خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد فى هذا الوقت بالذات لا يشكّ فى ولد جاء فى تابوت مُلْقىً فى البحر ؟ أليس فى هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من

القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فأنت تُقتِّل فى الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتى مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه فى حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر فى إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو ليأتى بعدو له ليقضى عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال فى القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعنى : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا فى زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذى قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى ـ عليه السلام ـ فى بيت فرعون ، ثم كلَّفه

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويُغيِّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

نعم ربَّيتنى وليداً ، لكن الذى ربّانى وربّاك هو الذى بعثنى إليك ، فأنا أبرّ المربى الأعلى قبل أنْ أبرَّ بك ، وفى هذا إشارة إلى أن عناية الله هى الأصل فى تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدى حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأَخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّى الأعلى هو الذى يُربِّى على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادفْ فى بَنِيكَ عنَايةٌ فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وخَابَ المؤملُ
فَمُوسَى الذى ربَّاه جِبْريلُ كَافرٌ ومُوسَى الذى ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَل

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الروم] لأنه كفر ليتمتع بكفره فى الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النفس ، فيأمرك بالشىء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشىء المحبب إليها ، أما الأصنام التى عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقُلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك فى شىء ، الذى يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان فى الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت فى أىِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته [١] .

---

(١) رواه الديلمى فى مسنده (١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » وقال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : « رُوى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » .

لذلك أبهم الحق - سبحانه وتعالى - الموت ، ونثر أزمانه فى الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان ؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل منَّا ينتظره فى أىِّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوبَ القرآني عطف فعل الأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] على الفعل المضارع ﴿لِيَكْفُرُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهى للأمر أم للتعليل ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] جاءت بعد ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] وهذه جاءتْ معطوفة على ﴿لِيَكْفُرُوا .. .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذى جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذى فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن ، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة ؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكْسَر ، واستشهد بهذه الآية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت]

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعنى لام العاقبة ؛ لأن الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً فى إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسرت ؟ وفى القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تَعالى : ﴿وَأَذِّن فِي

النَّاس بِالْحَجّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨)﴾ [الحج] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

ثم قال بعدها : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفي آية أخرى جُمعت اللامان : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءتْ لام الأمر مكسورة ؛ لأنها في أول الجملة ، ولا يُبتدأ في اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق] فجاءت لام الأمر ساكنة ؛ لأنها واقعة في وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنيٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى في آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة نقول ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ... ﴾ .

فآخرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهي أبداً . وعليه فلا ترسم ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] تدلُّ على التراخي واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهي احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كلمة (أم) لا تأتى بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمريْن ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أنْ تأتى بين متقابلين ، والتقدير : أَهُمُ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتابٌ أُنزل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتابٌ يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم] الإنزال يقتضى عُلُوَّ المنزِّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أَدْنى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذى تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحى هو الذى رآه وأخبرنا به .

والأصل فى الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العلُو ، سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلُواً حسِّياً كما فى ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

والسلطان : من التسلُّط ، وهى تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقنعك بالحجة والبرهان فهو قوىٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغمك على فعل شىء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا فى

موقف إبليس فى الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم.. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

أى : لم يكُنْ لى عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لى عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً فى القرآن خاض الناس فيه طويلاً ـ عن خُبْث نية أو عن صدق نية ـ هذا فى قوله تعالى مرة لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] ومرة أخرى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾ [الروم] أى : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ١٣٧) طبعة دار الصابونى : « قوله ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] قال ذلك بزيادة « لا » كما فى قوله تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ .. (٢٩)﴾ [الحديد] وقال فى « ص » بحذفها ، وهو الأصل ، فزيادتها هنا لتأكيد معنى النفى فى « منعك » . أو : لتضمين « منعك » حملك ، وهى على الثانى ليست زائدة فى المعنى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا فى الأولى لأنها نافعة فى نظرهم ، وقنطوا فى الأخرى ؛ لأنها غير نافعة فى نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً فى الرحمة وحكمةً فى المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شىء وغفلتم عن شىء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبةَ ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغى ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكى ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شىء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمى ضربنى فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ فى شىء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع فى ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغى أن نربط بين الموجـود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذى أوجد الواقع رَبٌّ فيـجب أنْ تتأمل الحكمة ، ولن نتحـدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فـيها للجـميع ، لكن تعـال نسأل عن المـصيـبة التى تُحزِن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقـول : لو نظـرتَ إلى مَنْ أنزلهـا بك لارتاح بـالك ، واطمـأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. (٧٩)﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ فى ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب فى الحسنة وفى السيـئة تدلُّ على أن سـهمها أُطلق عليك ، وعـمرها مقدار وصـولهـا إليك ، فـهى لا بُدَّ صـائبتـك ، لنَ تتـخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذى أطلقهـا إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنـة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفـسك ، ولا تُزاحِم الناس عليها ، وإنْ كانت مصـيبة فإياك أنْ تقـول : أحتـاط لهـا لأدفعها عن نفـسى ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لمـاذا تقنط وتيـأس إنْ أصـابتْك مـصيـبـة ؟ لمـاذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب.

ألم تقرأ : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦)﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عـمارة الموت وقد طردوا منهـا البواب وأسرته ، وجعلوا منهـا قضية فى المحـكمة ، وبعد أن انهارتْ العـمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضِحوا وأُخذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاض حكَم عن هوىً .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عـندى فى حـسـابك ، فـأنت اتُّهـمْتَ ظلـمـاً ، فلك عندى إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقِعك فى جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المـصـيبـة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصـيبـة بمجـريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُـدَّ أنْ تكون له حكمة قد تـغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المـسـألة فى نـفـسك ، فـسـوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحيـن ننظر إلى أسلوب الآية نجد فـيه مـفارقـات عديدة ، فـفى الكلام عن الرحمـة قال ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. (٣٦)﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما فى المصـيـبة فقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم] فاسـتخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلمـاذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبيـن المصائب التى تنزل بالإنسان فى دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك فى كل وقت لا تُعـدُّ ولا تحـصـى ، أمّـا المـصـائب فـربمـا تُعَـدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الـدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] فاسـتعمل إذا لأنهـا تدلُّ على التحـقيق وتُرجِّح حـدوث النصر ، وقـال سبحـانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. (٦)﴾ [التوبة]

كما نلحظ فى أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب فى إذاقة الرحمة ، إنما ذكرتْ سبب المصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عدله تعالى فى إنزال المصيبة ، وتفضُّله فى إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن فى المصيبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجرِى المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهى .

وبين الفضل والعدل بوْن شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُترِكك[1] حقك .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعنى : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شىء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نِعَم لا تُعَدُّ

---

(١) وَتَره حقه وماله : نقصه إياه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أى : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العرب - مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطى كلا المتخاصمين حقه ، أما الفضل فمن يحكم قد ينظر إلى فضيلة أحدهما وعلو همته وشرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعته وعفته . والله أعلم .

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك فى الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضى الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف نعدُّ يا رب ؟ قالوا : نعم هى نعمة واحدة ، لكن فى طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحَصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة فى حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصى نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال فى الصحراء ؛ لذلك يُشككم الله فى أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

يبسط : يُوسِّع ، ويقدِر : يعنى يُضيِّق .

يعنى : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافه ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما فى ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندى[1] الملحد يقول :

كَمْ عَالمٍ عَالمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه ... وجَاهلٍ جَاهلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا

هَذَا الذِى تركَ الأوهامَ حَائرةً ... وَصيَّر العَالِم النِّحْرير زِنْدِيقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالمٍ عالمٍ قَدْ باتَ فى عُسْرٍ ... وجَاهلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ فى يُسْرِ

تحيَّر الناسُ فى هَذَا فقُلْتُ لهم ... هَذا الذِى أوجبَ الإيمانَ بالقدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن فى هذه حكمة ، وفى تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

---

(١) هو : أحمد بن يحى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندى ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد ، نسبته إلى « راوند » من قرى أصبهان . قال ابن حجر العسقلانى : كان أولاً من متكلمى المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد ، وضع كتاباً فى قدَم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهر والرد على مذهب أهل التوحيد ، وكتاباً فى الطعن على محمد ﷺ . توفى عام ٢٩٨ هـ بين الرقة وبغداد . [الأعلام للزركلى ١/٢٦٧] .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا فى حياتهم العملية . وفى المقابل نرى الفقير الذى يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٧)﴾ [الروم] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن فى ألمانيا مدرستين فلسفيتين فى الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى لـ (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور .. الخ فالحكمة فى الخَلْق تقتضى المساواة ، فأخذ من الشذوذ فى الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة فى الإلحاد بأىِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التى يسعون إلى إثباتها .

ونقول فى الرد على الأول الذى اتخذ من الشذوذ فى الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذى ذكرتَ شذوذ فى الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة فى الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر فى الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أمـا النظام الثـابت الذى يريده الثـانى فـعليـه أن ينظر إلى المـلأ الأعلى ، وفى الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم ..الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتـاً لا يتغـير ، لأن الشذوذ فى هذه المـخلوقات يفـسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : فى النظام العـام للكون نـجد الثـبـات ، وفى الأفـراد الذين يغنى الواحد منهم عن الآخر نـجد الشذوذ والاختلاف ، فالثـبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيـا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمـان ، فالثبات مـوجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليكمـا إلا أن تتـفـقا وأن ينـفتح كل مـنكما عـلى الآخر لتـصـلا إلى الصواب .

ومسألة الـرزق لها فلسفة فى الإسـلام ، فالحق سبحانـه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمـرة يرزق بالأسبـاب ، ومرة يرزق بلا أسـباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقـد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغى أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذى استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أَسْـبابَهُ ولاَ تشغلنْ بعدهَا بَالَكا
فَإنَّـك تجهـلُ عـنوانـه ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْـوانَكا

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم]

قال (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه في الإعطاء وفي المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى في البسط : ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] وفي التضييق ﴿وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط في نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل في هؤلاء الذين سيُبْسط لهم في الرزق ، أما في التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ في الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقٍّ ذي القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هي على الجميع حتى مَنْ كان في خصاصة ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ(١) وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

---

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَن لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا فى حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه فى المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطى العم أو ابن العم وهو الذى سيحمى البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك ـ إذن ـ أنْ تُدخِل الأقارب فى الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفى أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. (٣٨)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعنى ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعى حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً فى غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذى تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذى القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿ حَقَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الروم] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل عليَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقى السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه[1] ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩) ﴾ [الكهف] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله قال : الذى لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿خَيْرٌ.. (٣٨)﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء فى قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجئ بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصِّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطى ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمثَل المرائى كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صلْداً ناعماً لا يحتفظ بشىء ، ولا ينبت عليه شىء .

وهذا المثَل يُجسِّد لنا خيبة سَعْى المرائى ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتى نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتى ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥)﴾ [البقرة] يعنى : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التى تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هى رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات فى الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّق شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكٌّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر فى أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله[1] :

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَات قَوْلَةً تُريحهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَات خَلْفَكَ خُضَّعاً فَإنْ أدْركُوهَا خلَّفوُكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلَّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[1] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم ؛ لأنهم فى مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة فى امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذى أرسله الله قضية تأمينية فى الكون ، ليست فى شركات التأمين ، إنما فى يده سبحانه حيث قال :

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** (٩) ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا فى سورة الكهف لقصة الجدار الذى تبرع الخضر ـ عليه السلام ـ ببنائه مع أنه فى قرية أهلها لئام[2] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُردُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال فى بيان أمر الجدار : ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ..** (٨٢) ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبنى لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفى رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنِىء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب ـ مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا[1] لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا فى أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون فى النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتى فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفى نيته أنْ يردَّها الغنى بما يناسب غنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع فى الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنيُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] أى : الزيادة

---

(١) قال ابن عباس فى هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو أضعافها » . [أخرجه ابن أبى حاتم] وفى قول آخر له قال : هو ما يُعطى الناس بعضهم بعضاً ، يعطى الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبرى] أورد السيوطى هذين الأثرين فى الدر المنثور ٦/٤٩٥ .

بأىِّ ألوانها عما تعطى ، وهذه الزيادة غير مشروطة فى عقد ، والزيادة تكون فى المال ، أو بأىِّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا فى تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا[1] .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس فى ظل جدار لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس فى ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس فى ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمالَ الذى أخذتَه منى .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها ؟ وما ذنبى أنا المعطى فى ذلك ؟ قالوا : لا شىء فيها بشرط ألاَّ تكون فى نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله ﴿ لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] فى هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] يربو عندك أنت بالزيادة التى تأخذها ممَّنْ حَيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

---

(١) قال الشوكانى فى نيل الأوطار (٥/٢٣٢) : « مما يدل على عدم حل القرض الذى يجر إلى المقرض نفعاً ما أخرجه البيهقى فى المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفاً بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ورواه فى السنن الكبرى عن ابن مسعود وأُبىّ ابن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفاً عليهم . ورواه الحارث بن أبى أسامة من حديث على عليه السلام بلفظ « إن النبى ﷺ نهى عن قرض جر منفعة » وفى رواية « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفى إسناده سوار بن مصعب وهو متروك . قال عمر بن زيد فـ " فنى : لم يصح فيه شىء .

هكذا قال ابن عباس[1] ، وإن كان بعض العلماء قال : هى مطلق فى الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا فى زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰئِكَ .. (٣٩)﴾ [الروم] أى : الذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف بالفتح كما فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : فى القرآن آيات تصادم الحديث النبوى ، فالقرآن يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها . وقال النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[2] فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

---

(١) قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى مسنده (٢٤٣١) من حديث أنس بن مالك قال قال ﷺ « رأيت ليلة أُسْرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضَاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذى تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال فى القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمى القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله فى القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذى فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص علي حمايته لك ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. ﴾ (٢٨٢) [البقرة]

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. ﴾ (٢٨٣) [البقرة]

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإنِ اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنىَّ ، وضنَّ عليه أنْ

يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا فى الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. (٣٩) ﴾ [الروم]

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً ، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذى رَابَى ، فأنت ترابى لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد فى مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملى ، وأنْ يضيع مجهودى ؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ،

أول شىء فى إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله فى قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة] (لا تُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تظلمون) أى : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فردّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعى ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعى مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضتْ مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون فى خصومات ومشاكل .

شىء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذى لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة فى السلعة ، أو فى التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لابد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً فى العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح فى زمان كذا ، أو فى مكان كذا .

والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ..** (٢٨٦) ﴾ [البقرة] أى : ليس فى وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذى يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف فى وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به . لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما فى صلاة وصوم المريض والمسافر .. الخ وكما فى التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقى تكاليفه يقول : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا ..** (١٥١) ﴾ [الأنعام] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقُلْت ظروف العصر تحتم علىَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟

النبى ﷺ أوضح لنا هذه القضية فى قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه »(١) .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع فى الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لعِرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هى القانون الذى يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقص مما عنده سبحانه ، أمّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل فى المحيط الذى تعيش فيه ، ففى كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ يَمْحَقُ

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غنَاه كيد فيه ، ومبالغة فى إيذائه ، كما جاء فى الأثر « إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإنِ اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام]

لذلك نسمع « فلان ماهر فى التجارة » ، « فلان يضع يده فى التراب يصير ذهباً » ... الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أى لصالحهم بالخير ، أما « عليهم » فيعنى كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطى الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤)﴾ [الأنعام] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين فى قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] وقال سبحانه : ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ .. (١٧٠)﴾ [آل عمران] وقال : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذى يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذى أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذى يُورثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بهـا ؛ لأنها قضية لم يدَّعِها أحـد لنفسـه مع كثـرة المتبـجحـين بالكفـر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعـاها النمـروذ الذى حاجَّ إبراهـيم فى ربه فقـال : أنا أحـيى وأميت ، فـعلم إبراهيم عليه السـلام أنه يريد اللجاج والسفـسطة التى لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقـتل واحد إماتة ، والأمـر بترك الآخر والعـفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلِقـوا قبلك وميلادهم قـبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحى أحـداً ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق بيـن القتل والموت مع أنهـما يشـتـركان فى إنـهاء الحـيـاة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْـضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقـيم إلا فى بنية سليـمة ، ومـثَّلنا لذلك بلمـبة الكهـرباء حين تحـرق فـينطفىء نـورها ، فـهل يعنى ذلك أن التـيـار انقطـع عنهـا ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضىء .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يبين لنا هذا الفرق فى قوله سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] إذن : فالنمروذ لا يحيي ، بل يُبقِي على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهِق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك مسألة الرزق فهي مُسلَّمة لله لم يدَّعها أحد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم]

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذي المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فَلْيُحيِ هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم] ولم يقل : يقتلكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] أي : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التي تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفي قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التي أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿إِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ فى الآية تكرار (مِنْ) وهى للتبعيض : ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠)﴾ [الروم] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم] لا تعليق إلا هذا .

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ .. (٧٧)﴾ [الشعراء] أى : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل فى هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وتلحظ هنا فى قوله ﴿الَّذِي خَلَقَنِي .. (٧٨)﴾ [الشعراء] أنه لم يؤكدها بشىء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا فى الهداية وهى مجال ادعاء ، فقال (فهو) أى : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن القانون الذى يُنظم حياتى والمنهج الذى يهدينى قانون ربى لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعى الهداية ويقول : إننى وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا

وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ومن الشيوعية .. الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول فى العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك فى مسألة الإطعام قال : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى .. (٧٩) ﴾ [الشعراء] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذى) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذى يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذى يطعمه ، أو أن أمه هى التى تُطعمه ؛ لأنها تُعد له طعامه ، فهما السببان الظاهران فى هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

ثم يقول عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿ الَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التى لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق فى هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] أى : تنزيهاً له عن الشركة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعِها أحد لنفسه .

إذن : فهى مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه فى الألوهية ؟ إن كان لا يدرى فهو غافل ، وإنْ كان يدرى ولم يعارض فهو جبان ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)** ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يَبين شيء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)** ﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجنُّوه إلى أن فقس وفرخ فى المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذى حدث والذى كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المبانى قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف فى وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » كما فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ**

آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف] أى: غالبين . وفى سورة التحريم : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم]

وبمعنى « العلو » فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف]

فالمعنى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم] أى : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر فى الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد فى الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أَقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر فى الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل فى الذى يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل فى الذى يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتى حين تُدخل يدك فى شىء وأنت تطرح قانون الله فى افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك فى أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشى على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدِّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنَائزُ مُقْبِلاتٍ ونلهُو حِين تَذهَبُ مُدبراتِ

كَروْعَة ثُلَّةٍ لمغَارِ ذِئْبٍ فَلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب على قانون الصلاح الذى أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذى لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة ألاّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ .. (٤١)﴾ [الروم] نتيجة لدعوته ﷺ ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُد وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1] فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِى أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. ﴿٤١﴾﴾ [الروم]

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. ﴿٤١﴾﴾ [الروم] فتلحظ هنا أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر علَّتها ، لكن يذكر علَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فَبعدله تعالى ؛ لذلك يُبيِّن لك أنك فعلتَ كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهى أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته فى الجزاء ، فالله يقول : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام]

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك فى جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقى يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتى عليها الدور فى العمل .

فكأن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن فى أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ، وكذا البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » .

واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة فى دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاى ، وآخر لم يأْتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً فى العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدى عنهم ، وبه تسير دقَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ.. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة فى الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكى تلوث الهواء بما كسبتْ أيدى الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] لكنا نشتكى أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف فى الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضِنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن فى البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفى العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا فى الماضى .

وانظر الآن إلى صحرائنا التى كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها

للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض فى منطقة ما فقد جعل الله لنا سعة فى غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولذلك قلت فى هيئة الأمم : إن فى القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق فى إجراءات وتأشيرات .. إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد فى الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفى موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز فى أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التى تستقبل خَلْق الله من أى مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهى متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل فى نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة فى دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فما دُمْتم قد وضعتم بينكم حدوداً ، فلماذا لا تجعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعى هذه الحدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا

يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩﴾ [الرحمن] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿كَسَبَتْ.. ㊶﴾ [الروم] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتى من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

ألاَ ترى أنك فى بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذى يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ㉛﴾ [البقرة]

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالى كالذى يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فـاقد) ، فقد أصبح الشر والفســاد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخـجل منه كالذى يقبل الرِّشْوة ، ويـفرح لاستقبـالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا .. (٤١)﴾ [الروم] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصـلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغى أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدى ولد على ولدك ، فيـجرحه فتذهب به للطبيب ، فيـجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدى ، وهذا جرح المداوى .

وحين يُذيـق الله الإنسانَ بعض ما قـدَّمت يداه يوقظه من غـفلته ، ويُنبِّه فـيه الفطرة الإيمـانية ، فيـحتاط للأمـر ولا يهمل ولا يقـصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمـانية بمقـدار وَعْيه الإيمانى ، فـواحد يظل يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عـاقبة كـفرهم حـتى جاءوا ولم يجـدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ [الروم] لأن الكلام هنا فى الدنيا ، وهى ليـستْ دار جزاء ، فالحـق يُذيقهم بعض أعـمالهم ليلتـفتـوا إليه سبـحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حـظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبـيده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبـحانه ساعـة يقول ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ.. (٤١)﴾ [الروم] أى : على عهد رسول الله ﷺ ليُبيِّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفســاد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمـر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلمـا ظهر الفساد حلَّتْ العقـوبة ، فخذوها فى الكون آية من

آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله فى الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد ﷺ فقد أكرمها الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾

السير : الانتقال من حيز مكانى إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية فى ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢) ﴾ [الروم] أن الأرض ليست هى اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها

الجوى لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها ؛ فلا حياة لها إلا به.

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٤٢﴾﴾ [الروم]

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى في الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس فى الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذى كرَّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها فى الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شىء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر ؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففى فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبِّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكى تُقبِّله ، وتأمل الإنسان - وهو سيد هذا الوجود - وهو يحاول أنْ يُقبِّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك.

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله[1] :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ للــه ... مِنَ القائمين بالأسْحار
تَخذُوا صَمْتنَا علَيْنَا دَليلاً ... فَغدونَا لَهُم وقُودَ النارِ
قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارى
للمغَالِى جَزَاؤه والمغَالَى فيه ... تُنجِيه رَحْمَةُ الغفَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] فالسير فى الأرض يكون إما للسياحة والتأمل فى آيات الله فى كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء ﴿ فَانظُرُوا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] أو يسير فى الأرض لطلب الرزق .

وفى آية أخرى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] والمعنى : سيروا فى الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل فى آيات الله وفى مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ.. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم] أى : الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما حدثتْ فى الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة .. إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذى لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمى نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الفجر] فقد قال عن إرم ﴿ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

فأيُّ حضارة هذه ؟ وأين هى الآن ؟ طمرتها رمال الأحقاف[1] ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففى هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطى قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال ؛ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمى نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضى عليها .

وقوله تعالى : ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾ [الروم] أى : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القلّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً ؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح فى سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففى المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما فى هذه المرة فقد أزهق روحاً ؛ لذلك قال فى الأولى ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف] أى : عجيباً ، أما فى الثانية فقال : ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفى علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما ؛ لأن الفتنة تأتى الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التغابن] لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتى من ناحيتهما قال سبحانه :

---

(١) قال الأزهرى : الأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . [لسان العرب - مادة : حقف] .

﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] يعنى : طمئنوا عبادى ، فلا أحد يؤثر على إرادتى .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سنِّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. ۝٨٢ ﴾ [الكهف]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه فى هذه المسألة بداية من ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. ۝٤١ ﴾ [الروم] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك فى دعوتك عليهم .

كل ذلك إنما يعنى أننى أُقوِّى مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثِّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، لكن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۝٤٣ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ .. ۝٤٣ ﴾ [الروم] يعنى : اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأننى وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْتَ : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنىِّ يوسف »[2] .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنىِّ يوسف » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٧٠) ، والبخارى فى صحيحه (١٠٠٦) .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] يعنى : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنسانى ، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض ؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأىِّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهى ؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفى شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته فى القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شىء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أَوْلَى فهى تابعة للوجه ، فالمعنى : أقم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه .. الخ .

يعنى : انتهز فرصة حياتك ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم] هو يوم القيامة ﴿ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم] المعنى : أن الله حين يأتى به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتى به ، أو أنه سبحانه إذا قضى الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة ﴿ من اللَّه .. (٤٣) ﴾ [الروم] تعطينا المعنيين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّه .. (١١) ﴾ [الرعد] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله ؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ .. (٤٣) ﴾ [الروم] يعنى : فى اليوم الذى لا مردَّ له من الله ﴿ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) ﴾ [الروم] أى : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك ﴿ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) ﴾ [الروم] أى : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة فى آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أى : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق فى القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق فى الآخرة بعلّته ، وعلَّته ما حدث فى الدنيا ، فالله تعالى لا يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلننتبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضى أن نقول فى مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته فى الكون ، وأحديته فى ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أى : خلقتُ فيكم الاختيار فى التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بى .

وخَلْق الاختيار فى التكليف بعد القهر فى غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار فى الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] والإباء هنا ليس إباءَ تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم فى الموضع الطبيعى ، فقالوا : لا لحمل الأمانة ؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها فى وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان فى نيته الأداء ، لكن يأتى وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة ، وهذا هو العاقل الذى يُقدِّر الظروف وتغيّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشـهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة ، فـالأمانة إذن مردُّها لاخـتيار الـمؤتمن إنْ شاء أقـرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالحق سبحانه قـال حكايةً عن السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسـان فقد تعرَّض لحـملها وقال : عندى عقل أفكر بـه ، وأختار بين البدائـل ، وسوف أؤدى ، فضـمن وقت التحمل ، لكـنه لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيـار ، فإنه لا يثبت على حال ؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسـان الجـبل إلى قمته وهو ابن أغـيـار فليـس أمـامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخـافون أنْ تتم لهم النعمة ؛ لأنه ليس بعـد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إِذَا تَمَّ شىء بَدا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فـإذا قلت : لماذا خلـق الله الاختـيار فى الإنسـان ولم يخلقـه فى الأجناس التى تخدمه من جـماد ونبات وحيوان ؟ نقول : كُنْ دقـيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيِّرت بقوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُـيِّرت ، لكنها اخـتارت اختيـاراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.. (٤٤)﴾ [الروم] وكلمة (عَلَيْه) تفيد الدَّيْن والوِزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول : ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

لكن القرآن لم يأْت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] فلماذا ؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعلَّة الإيمان التكليف ؛ لذلك حين تبحث أيَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى عِلَّته فتقول : كلفنى بكذا لكذا ، فعِلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنىُّ ويذوق ألم الجوع فيعطف على الفقير ، فهل يعنى هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم ؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أراد منى أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهى إليه ، وعندها تنتهى مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه فى شىء ، ولا تسأله لماذا كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لى ، مع أن الطبيب بشر قد يخطىء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت

لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّةً لكل شيء ؟

ولا يناقش فى علَل الأشياء إلا المساوى ، فلا يناقش الطبيبَ إلا طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

والحق سبحانه يُبيِّن لنا علَّة الإيمان - لا الإيمان فى ذاته - إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهر السيف فى الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه فى ظلِّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذى الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن ؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمى الدعوة فى البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّى الإنسان على ألاّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن ؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر .. الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

وفى القرآن آية ينبغى أنْ نتنبه لها ، ونعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمى مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** (١٠٥) **وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ** .. (١٠٦) ﴾ [النساء] يعنى : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** (١٠٧) ﴾ [النساء] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هى قصة اليهودى زيد بن السمين ، وقد جاءه طعمة بن أبيريق ـ وكان مؤمناً ـ وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النعمان[1] ووضعه فى جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن درْعه دلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبى ﷺ ليحكم فى أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصارى الأوسى ، صحابى بدرى ، من شجعانهم ، كان من الرماة المشهورين ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت معه يوم الفتح راية بنى ظفر ، وتوفى بالمدينة عام ٢٣ هـ وهو ابن ٦٥ سنة ، وهو أخو « أبى سعيد الخدرى » لأمه . (الأعلام للزركلى ٥/١٨٩) .

وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذلّة فى حقِّهم ، وأخذ النبى ﷺ يدير الأمر فى رأسه ، فإنْ حكم على المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة فى الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

ومعنى ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين ؛ لأن الله فى مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوَّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبى ﷺ : « من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة »(١) .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتْه فى حياته ، أو فى عرْضه ، أو فى ماله لصارتْ حجة له فى ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة فى الإسلام حتى أعتنقه ؟ بل من مصلحتى أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٠٥٢) عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » . قال السخاوى فى المقاصد الحسنة : سنده لا بأس به ، ولا يضر جهالة من لم يُسمَّ من أبناء الصحابة ، فإنهم عدد منجبر به جهالتهم .

لعطفته إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلماً .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسى فردَّ الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم - عليه السلام - يتلقى الوحى من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره فى مُلْكى وهو كافر بى .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتنى ونهرتنى منذ قليل ؟ فقال : إن ربى عاتبنى فى أمرك ، فقال الرجل : إنَّ رباً يعاتب أنبياءه بشأن أعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، المهم قاعدة الصلاح فى الكون وفى حركة الحياة ؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه ، كأن المراد بالإيمان العمل ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] لأنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .. (٤٤) ﴾ [الروم] ثم يتحول إلى صيغة الجمع ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الذى يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .

كما أن العمل الصالح يأتى من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعيه ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .. الخ . كذلك فى هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه ؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شيء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع ، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .

ومعنى ﴿ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل ، والطفل لا يُمَهده ولا يُسوِّيه ويُهيِّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّى له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو منصور بن حازم عن أبى عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .

لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدَّخر لهم فى الباقية ، وسيدنا رسول الله ﷺ حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : « ماذا صنعت بالشاة ؟ » . فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعنى : تصدَّقَتْ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : « بل ، بقيت كلها إلا كتفها »[(١)] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) ، والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة ، قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى حديث آخر : « يا بْن آدم ، تقول : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيتَ »[(١)] .

والإمام على رضى الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت ، فقال : كيف ؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيِّهما تبشُّ؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وإن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .

ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .

ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وذكر هنا الإيمان فقال ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغنى عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذى يعمل الصالحات لا يُجازى عليها ؟

نقول له : أُجر ويُجازى على عمله الصالح لكن فى الدنيا ؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

وشهرة وتخليداً لذكْراه وأقيمت لهم التماثيل .. إلخ ، أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغَشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وجاء في الحديث : « فعلتَ ليُقال وقد قيل »[١] نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان .. الخ فماذا تنتظر بعد ذلك ، إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء في الحديث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه »[٢] .

فقوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٤٥) ﴾ [الروم] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه في الدنيا ، لكن لا يفيده في الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ .. (٤٥) ﴾ [الروم] أي : تفضُّلاً من الله ،

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى في النار .. » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٦/٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » الحديث .

حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن ﴿ من فَضْله .. (٤٥) ﴾ [الروم] ومرة يقول : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل] أى : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله ؟

ونقول : العمل الذى يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشىء ؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم فى بحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت فى الظاهر تقييداً لحريته ، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، قال الترمذى : حديث حسن ، فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

على يديه ، ونمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله فى مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً : إنْ تفوقتَ سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه ؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥)﴾ [النور] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ولو بحثنا كلمة «حق» فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضى مُوجباً فمَنْ أوجب على الله ؟ لا أحد ؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذى جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق فى أنه جعل لك حقاً ، كالذى ليس له حق فى الميراث ، فيتفضل عليه واحد فى التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً ؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾ [الروم] نلحظ فى

الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذكْر الكافرين هنا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك ـ ولله المثَل الأعلى ـ رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح فى دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذى أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين ؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان ؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

وجاء فى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ، ومنع شكرك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فماذا قال الرب الخالق للجميع ؟ قال : « دعونى ومن خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى ، وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً ، فأبدله له حسنات» .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله في فلاة »[1] .

فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .

فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .

والآيات : جمع آية ، وهي كما قلنا : الشيء العجيب الذي يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا :

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه واللفظ للبخاري . و « وقع على بعيره » أي : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أنْ ضلَّ منه . والأرض الفلاة هي الصحراء المهلكة .

فلان آية فى الفصاحة ، أو آية فى الجمال .. إلخ .

وتُطلق الآيات ويراد بها معَان ثلاثة : آيات كونية تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ لتثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات التى تحمل الشرع والأحكام ، وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل إلينا منهج الله .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [الروم] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعِّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا ؟ ليجدد الأكسوجين فى الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتى مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً رطباً مُنعشاً عليلاً ، ويأتى عاصفاً مدمراً .. الخ .

والحق سبحانه - كما سبق أنْ بينَّا - رتَّب مقومات حياة الخليقة فى الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم فى حياة الكائن الحى ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك ؛ لأن الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك.

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هى أقسى ما يمكن فعْله ؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنه الهواء فهى نهايته ، وهى أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبِس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان ؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت فى المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا ؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح فى ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرتَ بطراوتها فهى تُبشِّرك بالمطر ؛ لذلك كان العربى يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التى ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] أى : بالمطر أما فى آية الفلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] أى : تسيرون فى البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التى لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان

للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [الواقعة]

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما فى آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان ؛ لأن عمله كثير فى هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروى .. إلخ لذلك قال فى نَقْض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترّ بعملك فى الزرع .

أما فى الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد ؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها ؛ لذلك قال فى نقضها ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

النعمة الخامسة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] وهذه النعمة هى كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ الله نعمه عليك زادك منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

يعنى : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت فى الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً ، فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة فى إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه ؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى ﴿ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٤٧) ﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات التى تثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧) ﴾ [الروم] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق ، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا ، إنما جاء بعاقبة التكذيب ﴿ فَانتَقَمْنَا .. (٤٧) ﴾ [الروم]

وهذا الإيجاز واضح فى قصة هدهد سليمان ، فى قوله تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] ثم أتبعها مباشرة : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق ، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم .

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التى جاءتهم على أيدى الرسل دليل على أنهم أهل فساد ، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد ، فشىء طبيعى أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد ، وأنْ يضطهدوهم ، فيغار الله تعالى على رسله ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧) ﴾ [الروم]

ثم يقرر هذه القضية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ، ثم يُسلمه لأعدائه ، أو يتخلى عنه ؛ لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ

كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغى أن تبحث فى هذه الجندية : أصادق هذا الجندى فى الدفاع عن الإسلام أم غير صادق ؟ إنما انظر فى النتائج ، إنْ كانت له الغلبة فاعلم أن طاقة الإيمان فيه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخرى فعليه هو أن يراجع نفسه ويبحث عن معنى الانهزام الذى كان ضد الإسلام فى نفسه ، لأنه لو كان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] ولا يُغلب جند الله إلا حين تنحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث فى غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون - وإنْ كانت كلمة الهزيمة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا فى أولها ، لكن النهاية لم تكُنْ فى صالحهم ؛ لأن الرماة خالفوا أمر رسول الله(١) ، والهزيمة بعد هذه المخالفة أمر طبيعى .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مخالفتهم أمر رسولهم ؟ والله لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٠٩) عن موسى بن عقبة فى حديث طويل « أن رسول الله ﷺ أمر خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إنى أتقدم إليكم أن لا يُفارقن رجل منكم مكانه واكفونى الخيل ، فوعظ إليهم فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذى نزل بالنبى ﷺ يومئذ والذى أصابه .. فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم ، قالوا : والله ما نجلس ها هنا لشىء ، قد أهلك الله العدو وإخواننا فى عسكر المشركين ، وقال طوائف منهم : علام نُصفُّ وقد هزم الله العدو ، فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبى ﷺ ألا يتركوها وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول » . الحديث .

أمـر لرسول الله بعـدها ، ولقـالوا : لقد خـالفنا أمـره وانتصـرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمـين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامـية فيهم ، وانتصر الإسلام بصِدْق مبادئه .

كذلك فى يوم حنين الذى يقـول الله فيه ﴿ويوم حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة] حـتى أن الصِّديق نفـسه يقـول : لن نُغلَب اليـوم عن قلة ، فـبدأت المـسـألة بالهزيـمة ، لكن الأمـر كـما تقـول (صـعـبوا على ربـنا) فأنزل الـسكينة عليـهم ، وشـاء سبـحـانه أن يسامحهم فى هذه الزلَّة مراعاة لخاطر أبى بكر .

فقوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا[1] عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبـحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِى بماله على الموصَى له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

الحق سبحـانه يعطينا هنا مذكرة تفـصيلية لعمليـة حركة الرياح ، وسَوْق السـحاب ، وإنزال المطر ، وكلـمة الرياح إذا جُمـعَتْ دلَّتْ على الخير كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر]

---

(١) قال القـرطبى فى تفسيـره (٧/٥٣٠٠) : « كان أبو بكر يقف على « حقـا » أى : وكان عقابنا حقاً ، ثم قال : « علينا نصر المـؤمنين » ابتداء وخبر ، أى : أخبرنا به ولا خُلْف فى خبرنا » .

أي : تُلَقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع في الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى في العود الواحد كما في نبات الذرة مثلاً ، ففي (الشُّوشة) أعلى العود حبات اللقاح الذكر ، وفي الشعيرات التي تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التي لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التي لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التي في مهبِّ الريح أو ناحية بحري أقلّ محصولاً من التي تليها ، لماذا ؟ لأن الرياح تحمل حبَّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التي تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل . والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى في القمح ، أو في الجوافة ، أو في الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة ؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : ﴿ **إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ..** (٣٣) ﴾ [الشورى] أي : السفن التي تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شيء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذي سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح ؟

ونقول : الرياح من معانيها الهواء ، وهي أيضاً تعنى القوة مطلقاً ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فالريح تعنى القوة على أىِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها .

لذلك تجد أن الرياح بمعنى القوة لها قوة آنية ، وقوة آتية ، آنية يعنى الآن ، وآتية تأتى فيما بعد ، وكذلك كل إنسان وكل شىء فى الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تميزه عن غيره وهذه مهمة كلاب البوليس التى تشم رائحة المتهمين والمجرمين فى قضايا المخدرات مثلاً ، فالشخص له رائحة الآن وهو موجود ، وله رائحة تظلّ فى المكان حتى بعد أنْ يفارقه .

لذلك يُعلِّمنا القرآن أن الريح هو أثبت الآثار فى الإنسان ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن يوسف ويعقوب عليهما السلام : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣)﴾ [يوسف]

وكان يوسف فى مصر ، ويعقوب فى أرض فلسطين ، فلما فصلت[1] العير بقميص يوسف ، وخرج من نطاق المبانى التى ربما حجزتْ الرياح ، قال يعقوب ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف] على بُعْد ما بينهما من المسافات[2] .

---

(١) فصل عن المكان : جاوزه . فالعير خرجت وجاوزت المدينة . [القاموس القويم ٢/ ٨٣] .

(٢) للعلماء فى تقدير هذه المسافة أقوال :

- عن ابن عباس عدة أقوال : مسيرة ثمانية أيام ـ عشرة أيام ـ مسيرة ثمانين فرسخاً ـ مسيرة ستة أيام .
- عن الحسن البصرى أنها مسيرة شهر .
- وعن محمد بن كعب ـ أنها مسيرة سبعة أيام . [ذكر السيوطى هذه الأقوال فى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (٤/ ٥٨١)] وعلى قول ابن عباس أنه مسيرة ثمانين فرسخاً ، يكون معنى هذا أن المسافة هى أكثر من ٤٠٠ كيلو متر . على أساس أن الفرسخ ثلاثة أميال على الأقل ، والميل ١٧٦٠ متراً . والله تعالى أعلم .

وإذا أُفردت الـرياح دلَّتْ على الشر ، ومـعنى الرياح أن تأتى ريح من هنا وريح من هنا .. فتأتيك بالأكسـوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور فى الكون ، فهى إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء فى كُلِّ نواحـيهـا وجهـاتها ، ولو فـرَّغْتَ الهواء من ناحـية من نواحى إحـدى العـمارات لانهـارتْ فى الحـال ، كذلك الريح إنْ جـاءت مـفردة فـهى مدمرة ، وفيها العطب كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات]

وقال : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

فقـوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. (٤٨)﴾ [الروم] فإرسال الرياح فى ذاته نعمة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا .. (٤٨)﴾ [الروم] إثارة السحاب أى : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحـاب عبارة عن المـاء المتبـخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعـضه على بعض فى طبقـات الجو ، وماء المطر مـاء مُقطر بقدرة الله ، كـما نُجرى نحن عـملية التـقطير فى المـعامل مثـلاً ، فيأتينا المـطر بالماء العَـذْب النقى الزلال الذى قطرته لنـا عناية الخـالق سبـحـانه دون أنْ ندرى .

وإذا كان تقطيـر كوب واحد يحـتاج إلى كل هذه العـمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر ؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفى الربع الباقى ، وضربنا لتوضيح ذلك مثـلاً بكوب الماء حين تتركـه على المنضدة مثلاً ، وحـين تسكبه

فى أرض الغرفة ، ففى الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة ؛ لأن البَخْر قليل ، أما فى الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [الروم] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التى تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل ، من أين يأتى ماؤه ؟ وأين سقط المطر الذى يروى أرض النيل من أوله إلى آخره ؟

ومعنى ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا .. (٤٨) ﴾ [الروم] كسفاً : جمع كِسْفة ، وهى القطعة ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. (٤٨) ﴾ [الروم] المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم] أى : من بين هذه السحب .

﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر فى مكان ويسقى مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخِصْب والنماء ، كما كان النيل فى الماضى يحمل الطمى من الحبشة إلى السودان ومصر .

وكان هذا الطمى يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طوال هذه المسافات ؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمى ولا يترسب .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ﴾ [الروم] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشِّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشِّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج]

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل ، والنيل من أمامها متسع ، وبه عدة جزر يزرعها الناس ، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة ، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب ، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجوه ، فكنت أسأل أبى رحمه الله : النيل أغرق الزرع ، فلماذا تزغرد النساء ؟

فكان والدى يضحك ويقول : تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع ، وهذا هو مصدر الخير ، وسبب خصوبة الأرض ، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقى[1] رحمه الله فى النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفَّقُ وبأىِّ كَفٍّ فى المدائن تُغْدِقُ

الماءُ تُرسلُه فيصبح عَسْجداً[2] والأرضُ تُغرِقُها فيحيَا المغرَقِ

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرِق النيلُ الزرعَ .

والاستبشار لنزول المطر يأتى على حسب الأحوال ، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر ، والاستبشار أبلغ حيث يأتى المطر مفاجئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم] أما إنْ جاء المطر فى

---

(١) هو : أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر الأخير ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م بالقاهرة وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً ، نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق واطلع على الأدب الفرنسى ، كانت حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث ، اتسعت ثروته وعاش مترفاً فى نعمة واسعة . [الأعلام للزركلى ١/١٣٧] .

(٢) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدرّ والياقوت . [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

معنى ﴿ مُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزدوجة ومضاعفة .

وللعلماء[1] وقفة حول هذه الآية ؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التى تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هى الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل ؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله - أى من قبل أن ينزل المطر - من قبل هذا عندهم يأس .

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) هنا أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٠١) :
- عند الأخفش : هذا تكرار معناه التأكيد . وأكثر النحويين على هذا القول . قاله النحاس .
- وقال قطرب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر . أى : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .
- وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . واختار هذا القول النحاس .

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالمحَسِّ المنظور فى الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة ؛ لذلك يعلل بقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيى ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

أما فى إحياء الموتى فجاء بالاسم محيى ، والاسم يفيد ثبوت الصفة ؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد ؛ لأنه مُشَاهد لنا ، أما البعث فهو محلُّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شىء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد ؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغى ألاَّ يشك فيه ؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى ﴿ فَانظُرْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعنى : محلاً للبحث والتقصى لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانظر) أى : نظر اعتبار وتأمل ؛ لأننا نريد أن نقيس الغائب عنا والذى نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففى الآية دليل جديد من أدلة قدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كونى نراه جميعاً ، والحق سبحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيوماً مقتدراً ، وهذه الأدلة حجة تضىء العقل ، وآيات فى الكون تبرهن على الصِّدق ، وأمثال يضربها للناس فى الكون وفى أنفسهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضاً دليل كونى مشهود فى الكون ، فالذى أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحى الموتى) فى الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيى ، كما نقول : فلان شاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شعراً ، إنما هو شاعر قبل أن يقول ، كذلك الخالق سبحانه (محى) قبل أن يوجد منه الفعل ، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له ، وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكى نُقرِّب الشبه بين إحياء الأرض بالنبات وإحياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذى يزن إلى مائة كيلو أو يزيد ، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسال العالم كله من الحيوان المنوى يمكن أنْ توضع فى حجم كستبان الخياطة ، إذا ملىء نصفه من المنى ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوى من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر فى الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هى .

فإذا مات الإنسان يبلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هى البذرة التى تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة ؛ لذلك جاء فى حديث إحياء الموتى يوم القيامة : « فينبتون كما ينبت البقل »(١)

ففى هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما نرى حبة السمسم مثلاً ، فهى رغم صِغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات كلها ، إذن : صِغَر الحجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة فى البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطى شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطى تكبيراً لها فحسب .

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة فى حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمى وجهازها الدموى وجهازها العصبى والسمبتاوى والبولى .. الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفى حضارتنا الحالية نجد أن من علامات التقدم العلمى أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهراً ، قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال : ثم يُنزل الله من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شىء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عُجْب الذنب ، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة » .

اخترعوه كان فى حجم النورج ، أما الآن فهو فى حجم علبة الكبريت.

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة فى هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما فى ساعة « بج بن » مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشيء الدقيق المتناهى فى الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين المجردة ، ومع ذلك يحتوى على كل خصائص الشيء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذى لا تستطيع أنْ تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشيء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخَّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ، نقول : أين ذهب هذا النقص ؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه ؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حَدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعى مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده فى نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين ؟ عاد إليه مثل الذى فقده . إذن : فالشخصية هى هى باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة فى هذا الميكروب الدقيق أو فى هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع فى بيئتها المناسبة ،

فتعطى نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضعت الحبة منها فى التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيى الذرة الباقية منه فى الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة ؟

ثم إن الحبة الواحدة التى يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطى شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية ؟

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل فى قوله ﴿ فَانظُرْ .. (٥٠) ﴾ [الروم] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة فى التأمل ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

ونسمى الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل منَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٥٠) ﴾ [الروم] أى : الذى أحياها ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٥٠) ﴾ [الروم] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء ، فإذا أخبرك بأنه يُحيى الموتى ، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك .

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق

والإحياء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيى له سبحانه صفات الكمال ، والقدرة على كل شيء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً .. إلخ .

فبعد أنْ ذكر الحدث فى الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿يُحْيِي .. (٥٠)﴾ [الروم] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة ﴿لَمُحْيِي .. (٥٠)﴾ [الروم] ثم جاء بكل صفات الكمال فى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم]

يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود[1] ، وأنه خُلق جزوعاً ، إنْ مسَّه الشر يجزع ، وإنْ مسه الخير يمنع ، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح ، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً ، فهل أخذ فى باله هذا العطاء ، بحيث إذا أصابه يأس من شيء طلب فرجه من الله ، وأزاح اليأس عن نفسه وقال : إن لى رباً ألجأ إليه ، ولا ينبغى لى أن أقنط وهو موجود ؟

فالذى فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب ؛ لذلك ينبغى أن يكون شعار كل مؤمن : لا كرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ فى كثير من الأحوال إلى الانتحار.

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ،

---

(١) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها فهو كاند ، وصيغة المبالغة كنود أى : كفور شديد الجحود [القاموس القويم ٢/ ١٧٥] .

وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] ففى الصلاة تختلى بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .

كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ فحينما خرج ببنى إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود رَبٍّ قادر يلجأ إليه فى وقت الشدة فيفرجها عنه .

فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه فى الله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] وهذا هو المَفْزَع لكل مؤمن .

لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافعَ عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامى والقاضى والشاهد والمنفِّذ للحكم ؟

وأنت ترى القاضى فى الدنيا يحكم ببينة قد يُدلِّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ ينتزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .

أما فى محكمة العدل الإلهى ، فقاضيها هو الحق ـ سبحانه

---

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

وتعالى ـ فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفلت من حكمه ؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. (٥١) ﴾ [الروم] والآية السابقة ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. (٤٨) ﴾ [الروم] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا في الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

أما هنا ، وفي الحديث عن الريح ، وسبق أنْ قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا في الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضي الدال على الانتهاء لماذا ؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتي مرة في السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ في الماضي مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهي قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون وييأسون ، وهذا لا ينبغي منهم ، أليست لهم سابقة في عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود ؟

ومعنى ﴿ فَرَأَوْهُ .. (٥١) ﴾ [الروم] أي : رأوا الزرع الذي كان

أخضر نضراً ﴿ مُصْفَرًّا .. (٥١) ﴾ [الروم] أى : متغيراً ذابلاً ﴿ لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ [الروم] يكفرون باليأس الذى يعـزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقةً ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبـرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سـرعان ما يجـزع ، ولو قال أنا لى رب أفـزع إليـه فيـرفع عنى البـلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسـأل : لماذا قال الـقرآن ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا .. (٥١) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ وإن ؟ قـالوا : هذه اللام الزائدة يُـسمُّـونهـا اللام المـوطئـة للقـسم ، فـتـقدير الـكلام : والله لئن أرسلنا ، فـالواو هنا واو القـسـم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يـقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كـذلك الشـرط فى (إن) يحـتـاج إلـى جـواب للشـرط ، والحق سبـحانـه هنا مزج بين القـسَم والشرط فى جـملة واحدة ، فـإنْ قلت فالجواب هنا للقسَم أم للشرط ؟

قـالوا : فطنة العـرب تأبى أنْ يوجـد جوابان فى جـملة واحـدة ، فيأتى السـياق بجواب واحد نستغنى به عن الجـواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَـم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فـالجـواب للشـرط . وهنا ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. (٥١) ﴾ [الروم] قدم القسم ؛ لأن التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً ..

وكلمة ﴿ لَّظَلُّوا .. (٥١) ﴾ [الروم] مأخوذة من الظـل وظلَّ فعل مَاض ناقص مثـل بات يعنى فى البيـتوتة ، وأضحـى يعنى : استمـر فى وقتً الضحى ، وأمـسى فى وقت المسـاء ، كذلك ظلَّ أى : استـمر فى الوقت الذى فيه ظِلٌّ يعنى : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّى رسوله ﷺ حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لن يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد فى سبيلها والجهر بها ؛ لأننى أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قَسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

إنما أريد أنْ يأتونى طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أىُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناسَ تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِى من قوة أنْ يُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ..** ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] فجعلهم فى حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا ؟ لأن الذى لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التى يستوى فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه

للمؤمن خاصة ، والتى يقول الله فيها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهى الحياة التى تُورثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

لذلك سمَّى الله المنهج الذى أنزله على رسوله روحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوى ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه فى الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التى يستوى فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقى أو بلطجى يفسد فى المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل فى النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء

القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ فى إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتى ممن أصغى سمعه ، وأعمل عقله فى الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً فى صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شيء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعى قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، ملىء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعى هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لى هذا الكون ؟

ثم لم يدَّعِ أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذى جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة فى آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] وهذا يعنى أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبِل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن

مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز فى الكون وفى الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التى أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضى على فسادهم وطغيانهم ؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، ألاَ تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿ **إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ** (٦٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدرى ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعنى : وعى القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعى أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ،

فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلباً صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم[١] .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤْمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

وحين نلحظ الفاء فى بداية هذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ فى البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التى جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : « خرج عمر متقلداً السيف ، فلقيه رجل ، فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صَبَوا وتركا دينك الذى أنت عليه . فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر توارى فى البيت ، فدخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ لعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها فقالت وهى غضبى : وإن كان الحق فى غير دينك ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد أدى هذا الموقف بعمر أن ذهب لرسول الله ﷺ فى دار ابن أبى الأرقم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر ابن الخطاب : اللهم أعز الإسلام ـ أو الدين ـ بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢١٩ ، ٢٢٠) .

ونَهْى بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لابُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] وفى موضع آخر : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] وقال أيضاً : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتى نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكى ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شىء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربى مثلاً حين ينشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربى عن العجوز : أنها الحَيْزبون والدَّردبيس[1] .. الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربى لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هى أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم فى حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطىء فى

---

(١) الحيزبون : العجوز . والنون زائدة ، كما زيدت فى الزيتون . [اللسان ـ مادة حزب] .
ـ الدردبيس : الشيخ الكبير الهِمّ (البالى) الفانى ، والعجوز أيضاً يقال لها دردبيس [اللسان مادة : دردب ، دربس] .

شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملهما فى مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً فى حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يروْنَ آيات الإعجاز فى الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم] يعنى : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقى ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ فى مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر فى العمى (فلان لا يعطى العمى حقَّه) يعنى : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿إِن تُسْمِعُ .. (٥٣)﴾ [الروم] أى : ما تُسمِع ﴿إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ [الروم] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء فى

حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والله الذى خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذى تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس فى أعقاب البلاغ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن العمل الذى يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم ؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورَهم .

ومعنى ﴿ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا .. (٥٣) ﴾ [الروم] يعنى : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما فى الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة فى الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْفِ الآيات فى الكون من حولك ، فانظر فى آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِى

أنفُسكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] وجمع بين النوعين في قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهنا يقول : تأمل في نفسك أنت : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التي خُلقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها في نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها في غيرك ، شاهدتها في الماء المهين الذي يتكوَّن منه الجنين ، وفي الأم الحامل ، وفي المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبي بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التي أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا في ذاته ، لكن في غيره ، وفي مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال في مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ في النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشي ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق - سبحانه وتعالى - وينبغي أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه في العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هي بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدي مهمتها التي خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه

طفل ، ينبغى علينا أن نلبى كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما فى خارج بلادنا ، فبمجرد أن يبلغ الشاب رُشْده لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا فى تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية فى هذه السِّنِّ : ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** .. (٥٩) ﴾ [النور]

فانظر أنت أيها الإنسان الذى جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك فى خدمتك ، انظر فى نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شىء يخدمك غيرك.

ومن حكمته تعالى فى الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذى أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ فى نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً** .. (٥٤) ﴾ [الروم] أى : قوة الشباب وفتوته ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً** .. (٥٤) ﴾ [الروم] أى : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسرى فى كل الأعضاء ، حتى فى العلم ، وفى الذاكرة ﴿ **لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** .. (٥) ﴾ [الحج]

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل فى كل شىء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِّيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع

عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) فى سنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة فى الأداء فى قول سيدنا زكريا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت فى جسمك.

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] يعنى : وصلتُ إلى مرحلة الحرض[1] التى لا أملَ معها فى قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم]

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف بـ « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيماوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضى عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً فى المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب فى هذه المناطق من الرأس .

---

(١) الحرض : الساقط الذى لا يقدر على النهوض . [اللسان مادة : حرض] .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ④﴾ [مريم] ثم ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له فى طلبه للولد الذى يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. ٥٤﴾ [الروم]

وقال فى شأن زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم] أى : أن هذا الخَلْق ناشىء عن علم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك] لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسى على الموجد الحق الفاعل المختار الذى يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشىء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشىء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لى : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدرى بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة لتحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التى شاركت فى حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشيء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

بعد أنْ عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل ليهتدى به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] معنى كلمة ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهى من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدى مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ،

ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعنى : أنها جاءت لتؤدى مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذى يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة لحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالى ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التى فى أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوان أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنعتْ فى سويسرا ، أو فى الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التى لا ساعةَ بعدها ، واعلم أنها منضبطة عند الحق سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فإنْ كذبوا فى الدنيا ، فهل يكذْبون أيضاً فى الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم فى هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] فقد كانوا يقلبون الحقائق فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذى خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّى الفعل جريمة .

ومعنى ﴿مَا لَبِثُوا .. (٥٥)﴾ [الروم] اللبث : المكْث طويلاً أى فى الدنيا ، أو : ما لبثوا فى قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التى تميت إلى النفخة التى تُحيى .

فهذه فترات ثلاث للبثهم فى القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين . وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذبَ فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم ؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدرى به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالى الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالى لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذى أماته الله مائة عام ثم بعثه[1] .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس فى النوم ، فقالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] ؛ لأنه فى هذه الحالة لا يدرى بالزمن ، إنما يدرى بالزمن الذى يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان فى هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون]

---

(١) هو : العُزَيْر . حكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى . وهذا هو القول المشهور . وقال سلمان بن بريدة : هو حزقيل بن بوار . قال ابن كثير : « أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها » [تفسير ابن كثير ١/ ٣١٤] .

أى : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود الملائكة[1] ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها منذ خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشيء الذى لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد فى الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع فى الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف فى السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفي موضع آخر يقول عنهم : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [النازعات]

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذى يجمعك ومَنْ تحب يمضى سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذى تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفْزان[2]

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ذائعٌ من سِرِّه مَا اسْتوْدعَكْ

---

(١) قاله مجاهد . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٢٢) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) القفزان جمع : قفيز . وهو مكيال تتواضع الناس عليه . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : قفز] : « هو ثمانية مكاكيك عند أهل العراق . والمكُّوك : ثلاث كيلات » أى : أن القفيز الواحد : ٢٤ كيلة . أى : ٢٨٨ كيلوجرام .

يَقْرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ   زَادَ فى تلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ   بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ معكْ

ففى أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفى أوقات الغَمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذى يقول ـ لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ   يَا صُبْحُ قِفْ لاَ تطْلُعِ

كذلك الذى ينتظر سروراً يستبطىء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذى ينتظره ، أما الذى يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذى يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذى ينتظرهم والنعيم الذى وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعدهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا فى الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدرى بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

والذى لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً فى حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل على صِدْق القولين فقال : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ

لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] والطعام لا يتغير فى يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

فقامت العظام البالية دليلاً على صدْقه تعالى فى المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين ؟ لأن الذى أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حَقِّ آخرين .

وهذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أى : إسقاط عذرهم فى أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان فى قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام فى : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هى المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه فى : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت فى آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته فى الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صبّاً ، إنما يأتى بالآية ثم يُردِفها

بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتى بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم فى أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر فى ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْد معهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ثم يسوق آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم]

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ [الروم]

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتى هذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم]

لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هى القيامة .

وعجيب أنْ يُقسموا بالله فى الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه فى الدنيا .

وفى الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : من الوقت . ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أَسِيرُ وقَلْبى فِى محبتِكُمْ أَسِيرُ

أى : مأسور

ولى أنا وزميلى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ـ أطال الله بقاءه ـ قصة مع الجناس ، ففى إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد فى القرآن جناس تام إلا فى هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : فى القرآن شىء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان فى عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شىء فالجناس بينهما ناقص ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا فى الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إلىَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعنى : تتفق الكلمتان فى كل الحروف أو فى بعضها ، وبذلك لا نقول فى القرآن : جناس ناقص .

فقولهم ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : الساعة الزمنية التى نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم فى الدنيا أو فى القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم فى سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

ففى الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعى الإيمان ، أما الآن فى الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شىء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : كهذا الكذب ﴿ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) ﴾ [الروم] والإفك من أَفك إفكاً . أى : صرف الشىء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأَن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهى غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿ كَذَلِكَ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعنى : يكذِّبون الرسل فى الحقائق التى جاءوا بها من قِبلَ ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قال هنا ﴿الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] فهل العلم ينافى الإيمان ؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شىء أنت تراه وتعلمه ، وشىء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائماً يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة فى الكلام عن قوله تعالى فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

فقال : ألم تَرَ مع أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يتسَنّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة .... الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، لذلك النبى ﷺ لما سأل الصحابى[(١)] : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .

يعنى : ما مدلول هذه الكلمة التى قلتها ؟

فقال الصحابى : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ، ومدرها[1] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنـعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعـذَّبون - يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأنى أرى ما أخبرتنا به - فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[2] .

لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم ؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شىء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذى أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .

وقال ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦)﴾ [الروم] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عَالم أعلم منك يعطيك . فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور فى الاستدلال والنظر فى الأدلة ؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة ؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ .. (٥٦)﴾ [الروم] يعنى : مسألة مرسومة ومنضبطة فى اللوح المحفوظ إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .. (٥٦)﴾ [الروم] الذى كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شىء لا تقدرون على تكذيبه ؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)﴾ [الروم] فى أول

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك الذى لا رمل فيه . [لسان العرب - مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصارى .

الآية قال : ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦) ﴾ [الروم] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم ؛ لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصِّلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾

قوله ﴿ فَيَوْمَئِذ .. (٥٧) ﴾ [الروم] أى : يوم قيام الساعة ﴿ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم] أى : لا يُقبَل منهم عذر ، ومعنى ﴿ ظَلَمُوا .. (٥٧) ﴾ [الروم] أى : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم ؛ لأنه يريد أنْ يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتى منه أبداً حركة إجابة فى الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر ؛ لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك فى سبيل الحلال ؟

لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر

الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأنَّى يُستجاب له »[1] .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء ؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين فى أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفى نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا فى نفسى شىء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم علىَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أرَك ، فيزيل هذا العذر ما فى نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أى : أزال عتابه ؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقى العتاب ، ويقول الشاعر :

أَمَّا العِتَابُ فبالأحِبّة أَخْلَق ... والحُبُّ يَصلُح بالعِتَابِ ويصْدُقُ

والهمزة فى أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُريدُ سُلوَّكم - أى بعقلى - والقَلْبُ يأْبَى ... وأعْتِبكُم ومِلءُ النَفْسِ عَتْبى

ومنه ما جاء فى مناجاة النبى ﷺ لربه يوم الطائف بعد أن لَقى منهم ما لَقِى ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجى ربه : « ربِّ إلى مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ، والدارمى فى سننه (٢/٣٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى[١] ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكُنْ بكَ علىَّ غضب فلا أُبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى »[٢] .

يعنى : يا رب إنْ كنتَ غضبتَ لشىء بدر منى ، فأنا أريد أن أزيل عتابك علىَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أى : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّى المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] أى : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] وردتْ فى القرآن ثلاث[٣] مرات ، ووردت مرة واحدة مبنية للفاعل[٤] (يَسْتعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم فى إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم

(١) جهمه : استقبله بوجه كريه . أى : يلقانى بالغلظة والوجه الكريه . ورجل جهم الوجه أى : كالح الوجه . [لسان العرب ـ مادة : جهم] .

(٢) هذا الدعاء أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢٠) ، وذلك أن أهل الطائف أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه لحائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما اطمأن رسول الله ﷺ دعا بهذا الدعاء .

(٣) وردت يُستعتبون بالبناء للمجهول فى ثلاثة مواضع :
- ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ [النحل] .
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] .
- ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)﴾ [الجاثية] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾ [فصلت] .

شفعاء يطلبون لهم ، لكن خَاب ظنهم فى هذه وفى هذه .

فالمعنى ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أى : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾

وهذه الآية تعنى أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَلَ من واقع حياتهم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

هل يستوى عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين ؟

ثم يُقرِّب المسألة بمثَلٍ من الأنفس ، وليس شىء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم]

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون فى هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة فى حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

والمَثَل يعنى أنْ تُشبِّه شيئاً بشىء ، وتلحق خفياً بجلى ، لتوضحه وليستقر فى ذهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسَمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذى أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟ فصارت مثلاً يُقال فى مثل هذه المناسبة مع أنه قيل فى حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة .. الخ لأن حاتماً الطائى صار مضربَ المثل فى الكرم ، وعنترة فى الشجاعة . وفى المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم فى التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وليس معنى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] أى : فى الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها فى الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات .. الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس .. الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شىء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدى مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ،

فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوف القَدَر بنفسكَ تعنف لاَ بالقَدرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعصاَ ضربتَ العَصاَ أمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعِركم به ، وتُحسون به حسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسان بضرب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسِّ .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور]

والمثل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حسِّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

فـفائدة النور الحسى أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوى ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسى من

المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبى تمام[١] لأحد الخلفاء :

إقْدامُ عَمرٍو فى سَمَاحةِ حَاتمٍ ... فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضربى لَهُ مَنْ دُونَه ... مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ[٢]

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِه ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ[٣]

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التى معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعنى أنه ارتجلهما لتوّه . وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد بل : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] أى : جديدة ﴿ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فيتهمون الرسل

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والبأس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كُوَّة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فى بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس فى أنه لم يُجبهم إلى الآيات التى اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التى كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً.

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت فى جدل لا يجدى ، ثم إن فى إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجىء الآيات يعنى أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم فى طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة فى جدل إبراهيم - عليه السلام - مع النمروذ فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة أمد الجدل ، ويريد تضييع الوقت فى أخذ وردٍّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة - مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة - وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿فَبُهِتَ[١] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب فى حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففى كل موقف كان يقول : ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩)﴾ [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ فى أسلوب الآية صيغة الإفراد فى ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨)﴾ [الروم] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع فى ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿إِنْ أَنتُمْ .. (٥٨)﴾ [الروم] يعنى : كل الرسل ﴿مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] أى : كاذبون تختلقون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا فى رسول الله حين فتر عنه الوحى فقالوا : « إن رب محمد قلاه »[٢] .

---

(١) بَهُتَ : دهش وتحير . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلى قال : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية قال جندب : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وهم لا يدرون أن الوحى كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه فى بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملَك : « وضمنى حتى بلغ منى الجهد »[(١)] .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله فى صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو فى مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان[(٢)] .

إذن : مسألة فتور الوحى وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحى حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحى من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبة على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشىء يجعله يتحمل المشاقّ فى سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذى يسير إلى محبوبه

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/٢١) : « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبى هريرة .

فلا يبالى حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

والوحى لقاء بشرى بملكى ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث فى بداية نزول الوحى فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحى .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح] أى : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى]

فعجيب أنْ يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذى نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحى ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ۝٥٩ ﴾ [الروم] أى : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ ﴾ [الروم] أى ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ فى هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق - سبحانه وتعالى - ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبى له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم فى محبة الحزن وعشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم أن تدعوا بَاب الحزن مواربا ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

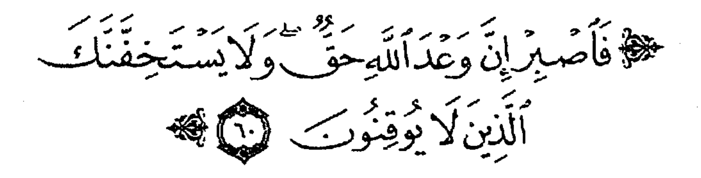
وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أَعِنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا فى هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صَمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونشر فيه الآيات التى تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التى تثبت صدْق الرسُل فى البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات ؛ لأن مُلْكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم فى هذه

المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذِّبين يا محمد ، واثْبُتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :



اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله ؛ لأن العاقبة فى صالحك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٦٠)﴾ [الروم] وقد وعد الله رسله بالنصرة والغلَبة ، ووَعْدُ الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء فى سبيل الدعوة ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤْذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبدأ الحق يضحى أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً

واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنًّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله فى سبيل هذا المبدأ .

وفى رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك فى الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسْلمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب فى الدنيا ، وتراه بعينك ، أو فى الآخرة بعد موتك : ﴿ **فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** (٧٧) ﴾ [غافر]

ومن هذا العقاب الذى نزل بهم فى الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأَسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب وقال : أيُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، ونحن عاجزون حتى عن حماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٦٠)﴾ [الروم] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يتخلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التى تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف] فاربط فعْلك بمشيئة الله التى تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغى أنْ تجزم بشىء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً فى المكان الفلانى ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شىء يعوقك عن الوفاء ، إذن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب فى حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك فى الأمر .

فالوعد الحق يأتى ممَّنْ ؟ منَ الذى يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ [الروم] خف الشىء : لم يَعُدْ له ثِقَل ، واستخفّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفّه مثل استفزّه يعني : حرّكه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول في مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك يعني : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك .. متبقاش خفيف .. إلخ) ونقول للولد (فز) يعني قفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذي هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك في دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخي العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون في الدنيا ، والباقي سيرونه في الآخرة .

والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام علي ـ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ علمنا أنه ابتُلي بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

---

(١) أي : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

« هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قَال[1] »[2] .

ويروى[3] أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٦٥) ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن على لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠) ﴾ [الروم] يعنى : لن تُخرجنى عن ثباتى وحلْمى ولن تستفزنى .

والعظمة فى هذا الموقف أنْ يرد على لتوِّه بالقول الشافى من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو على بن أبى طالب الذى أُوتى باعاً طويلاً فى البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ **الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠) ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع ، فيصير عقيدة فى القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

---

(١) القِلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته قِلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

(٢) عن على بن أبى طالب قال : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به ، ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محب مفرط يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا يُوحى إلىَّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٣٣/٩) وعزاه للبزار وأبى يعلى الموصلى .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤٤٠/٣) من عدة طرق :
– من طريق قتادة . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .
– من طريق على بن ربيعة . رواه ابن جرير .
– من طريق أبى يحى . رواه ابن أبى حاتم .




سورة لقمان



سورة لقمان[1]



﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول فى الحروف المقطّعة فى بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أنْ يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعانى ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربى ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان

---

(١) سورة لقمان هى السورة رقم (٣١) فى ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية ، وهى سورة مكية نزلت بعد سورة الصافات ، وقبل سورة سبأ . قال القرطبى فى تفسيره : « هى مكية ، غير آيتين . قال قتادة : أولهما : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ.. ۝٢٧ ﴾ [لقمان] إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ۝٢٩ ﴾ [لقمان] .

وأصحاب التعبيـر الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فى لغتـها كل لغات القـبائل العربيـة ، وقد خرج منهـا صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سـمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فـيها مطعن مـا تركوه ، إذن : فهـذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر(١) .

أَلاَ هُبِّى بِصحْنك فَاصْبِحينا ولاَ تُبْـقِ خُمـور الأَنْدرينَا(٢)

فـألا أداة للتنبـيه ، وتأتـى أهميـة التنبـيـه فى أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتـبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية فى ذِهْنه ، لكن الـسـامع قـد يكون غـافـلاً ، فـيُـفـاجـأ بالكلام دون استـعداد ، فـيفـوته منه شىء ، فتـأتى حروف التـنبيـه لتُخرجـه من غفلته ، وتسترعى انتـباهه ، فلا يفوته من كلامك شىء ، إذن : أبسط ما يقال فى هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب فى كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبنى كله على الوصل فى آياته وسوره ، بل فى آخـره وأوله نقـول : (من الـجنة والناس بسم الله الرحـمن

---

(١) هو : عمـرو بن كلثـوم بن مالك بن عـتاب أبو الأسـود ، شاعر جـاهلى ، ولد فى شـمال جزيرة العـرب فى بلاد ربيعـة ، وتجول فيـها وفى الشام والعـراق ونجد ، هو من الفـتاك الشجـعان ، أشهر شـعره معلقـته التى فيـها هذا البيت : توفى نحـو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) الصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتهـا الساقـية ، واسقنى الـصبوح بقـدحك العظيم ولا تدخرى خـمر هذه القـرى . [شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٦٥] .

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك فى الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التى بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارىء القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ فى آية أو سورة ، مرتحل إلى التى تليها .

إذن : الوصْل سمَة عامة فى القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة فى بدايات السور ، فهى قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلَّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن فى الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبى ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك للمذكر ، وهى عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان فى المكان أو فى المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتى بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فتقول فى خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما .. إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف] فذا اسم إشارة ليوسف ، واللام للبُعْد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث .

ويقول تعالى فى خطاب موسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص] أى : اليد والعصا ، فذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ.. ﴿٢﴾ ﴾ [لقمان] لمؤنث وهى الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هى المهمة التى يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [لقمان] فوصفه بالحكمة ، أما فى أول البقرة فقال : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى.. ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب. أى : شك .

وكلمة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وصدْق الملَك الذى حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله فى شأن تبليغ القرآن : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة]

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة]

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب فى هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا فى شىء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهى ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتى بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليهم .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته فى قَرْن واحد ، ولا فى أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته فى الكون .

ومعنى ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أى : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله . ومعنى حكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، ولا يضَع الشىء فى موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذى يعلم صدْق الشىء فى موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشىء ، ثم يتبين لنا خطؤه فى

موضعـه ، ونضطر إلى تغييره أو تعـديله ككثير من المخـترعات التى ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينْا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحـية من نواحى كمـال القرآن وجهة من جـهات عظمتـه ، إذن : فهى لقطات مـختلفة لشىء واحـد متعـدد الملكات فى الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات فى الآية بعدها :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾

هنا يقول سـبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ [لقمان] أما فى صدر سـورة البقرة فيـقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة] وفَرْق بين المـعنيين ، فـالتقـوى تقتـضى الإيمان ، ومطلوب الإيـمان الافـتراض يعنى : أنْ تؤدى ما فرضـه الله عليك .

أما مطلوب الإحسـان ففوق ذلك ، فالإحـسان فى الأداء أن تُحسن فى كَمِّه ، وأن تحسن فى كيفه : تحـسن فى كيفه بأن تستصـحب مع العمل الإخلاصَ للمـعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحـسن فى كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدى فوق مـا فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلى ركعتين تصلى ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان فى الكم .

والتقوى من عـجائب التأويل القرآنى كما سـبق أنْ قلنا ، فالقرآن يقـول (اتقوا الله) ويقـول (اتقوا النار) ، والـمعنى عند التـحقـيق واحد ؛ لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبينهـا وقاية وحاجزاً يمنعك منهـا ، كـذلك اتق الله ، لا أن تجـعل بـينك وبين ربك حـاجـزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله .

إنما اجـعل بينك وبين صفات الجـلال ومتعلقاتهـا من الله وقاية ، اتق صـفات المنتـقم الجبـار القـهار .. الخ ؛ لأنك لستَ مطيـقاً لهـذه

الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندى من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعنى واحد .

والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقى الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتى باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدى كل منهما معنى جديداً .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان - فى حديث جبريل - قال : « أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[(١)]

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③﴾ [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هى لقطات إعجازية كل منها يؤدى معنى ، وإنْ ظن البعض فى النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو فى حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال ﴿وَرَحْمَةً ③﴾ [لقمان] يعنى : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، وهو حديث جبريل الطويل الذى تمثل فى صورة رجل « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .

كما فى قوله سبحانه :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٢) ﴾ [الإسراء] فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هى كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هى العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية فى العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفى الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عزوجل ، ثم هى تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة فى العام ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١٤١) ﴾ [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هى عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال أبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف ... الخ.

وفى الصلاة استطراق للعبودية فى الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع

أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففى الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع - نقصد الوضيع فى نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه - فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا فى الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ فى نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد فى مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التى فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقى التكاليف فقد فُرضَتْ بواسطة الوحى ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقى إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد فى حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله فى رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[1]

وكما تُحدِث الصلاة استطراق عبودية تُحدِث الزكاةُ فى المجتمع

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغنى والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغنى على الفقير ؟ إذن : فى الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعى عبده إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لابُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعِد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .. الخ.

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهى صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة فى الأدب العربى ، فيُرْوى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن اللُّها تفتح اللَّها[1] ، أى : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلى لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشرى ، ذهب إليه وقال : عندى شعر أحب أنْ أنشده لك ،

(١) اللُّها : أفضل العطايا وأجزلها . ويقال : إنه لمعطاء للُّها إذا كان جواداً يعطى الشىء الكثير . واللَّهاة : لحمة حمراء فى الحنك فى أقصى سقف الفم . [لسان العرب - مادة لَهَا] .

فقال : أتدرى ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَا فِى أَبِى حَسَنٍ مَدِيحاً ... كَمَا بالمدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

يعنى : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنَا أكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُراً ... ومَنْ كَفَّيْه دِجْلَةُ والفُراتُ
وقَالُوا يَقْبل المدحاةَ لكنْ ... جَوَائِزُه عليهنَّ الصَّلاَةُ
فقُلْتُ لهم ومَا تُغْنى صَلاَتِى ... عِيَالى إنما الشَّأْنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لى بكسْرِ الصّادِ منها ... فَتُصبح لىِ الصِّلاتُ هِى الصَّلاةُ

فلما تجرَّأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسىء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهى كفارة لإساءته فى شعره ، وإنْ كان محسناً فهى كفارة لكذبه فىَّ .

ثم يقول سبحانه فى وصفهم : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أنْ نعمل بمنهج الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه فى الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ونلحظ هنا فى الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً - مع هذا - يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة فى نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذى يرونه

أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستبعده فى حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصرى [١] : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما سأل النبى ﷺ حذيفة [٢] رضى الله عنه : « كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟» قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها [٣] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون » فقال ﷺ : « عرفتَ فالزم »

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ⓸ ﴾ [لقمان] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذى لايتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به

---

(١) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى ، نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً ، مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة . [تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٧١] .

(٢) ما ورد كان فى حق الحارث بن مالك الأنصارى . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير (٣٠٢/٣) وقال الهيثمى : « فيه ابن لهيعة » . وكذا أورده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ الحديث وعزاه للبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة مدر] .

فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام في مكة وصفَته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهى عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب فى سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وذلك حين يمرون على الصراط ويروْنَ النار بأعينهم رأى العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء فى قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتى بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذى قَبل دلالَة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هى المعونة علىَ الإيمانَ ، فيُحبِّبه

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليـه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [لقمان] والمتكلم هو الله - عـزوجل - فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنـا عزوجل يريد أنْ يقول لنا نعم الـقرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعـه بشىء ، إنما المنتفع بالـهداية أنت ، فحـين تكون على الهدى يدلُّك ويسيـر بك إلى الخير ، فـالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصـلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾[لقمان] ممن لا يسـتدرك عليـه ، فإنْ دلَّك دلَّك بـحق ، وهَبْ أن البشـر اهتـدوْا إلى شىء فيـه خير ، لكن بعد فـترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطـريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركـون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هى القوانين البَشرية التى أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذى ينبغى أن يحكمنا ونطـمئن إلـيه لا يكـون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البـشـر ربمـا ينتفـعون من قوانينهم ، وقد تتـحكم فيهم الأهواء أو يمـيلون لشخص

على حساب الآخر ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فهو وحده سبحانه الذى لا ينتفع بشىء مما شرع لعباده ، ولا يحابى أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ ﴾[الجن] يعنى : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذى ربَّاك ، هو الذى أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع فى كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألنى عن رزق غد ؛ لأننى رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غدٍ ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [لقمان] فالفلاح نتيجة الهدى الذى ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى .. الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۝ ﴾ [البقرة]

واقرأ فى كتاب الله هذا المثل : ﴿ مَثَلُ الَّذينَ يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أى : فائزون بالثمرة الطيبة التى تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً - عليه الصلاة والسلام - يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت فى شراء القيان والمغنيات . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٧] .

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون فى نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدى مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ فى شِعْب أبى طالب ، ثم يُكرِهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعى الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لابُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهى إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله سبحانه :﴿وَمِنَ النَّاسِ (٦)﴾ [لقمان] من هنا للتبعيض أى : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أنْ يأتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ؛ لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم فى الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [لقمان]

قوله تعالى : ﴿ يَشْتَرِي ۝ ﴾ [لقمان] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ فى مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجِد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتَر .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

والمعنى : شروه أى : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [البقرة]

أى : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذى يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..۝ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۝ ﴾ [التوبة]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشيء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشيء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾[لقمان] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذي جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً :﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٢٣) ﴾ [الشورى]

فأيُّ حمق هذا الذي يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب في عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو في قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفي قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٢٠) ﴾ [الحديد]

وقدمت اللهو في قوله تعالى :﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقدمت الآيات اللعب في آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعني : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا (١١)﴾ [الجمعة]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمْيرَ ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانيَ ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦)﴾ [لقمان] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ،

وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ، فقال ﷺ : « دعهما ، فإننا فى يوم عيد »[1]

وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب، أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء[2] الإبل لتسرع فى سيرها ، وقد قال النبى ﷺ لأنجشة[3] : « رفقاً بالقوارير »[4] فشبَّه النساء فى لُطْفهن ورقّتهن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٨٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٩٢) كتاب العيدين من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى لفظ مسلم أنهما كانتا « تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث » أى « كان غناء فى الشجاعة والقتل والحذق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه » قاله النووى فى شرح مسلم ، وكذلك فى لفظه « وليستا بمغنيتين » قال النووى : « أى : ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس » .

(٢) الحَدْو : سَوْق الإبل والغناء لها ، فإنه من أكبر الأشياء على سَوْقها وبَعْثها . [لسان العرب ـ مادة حدا] .

(٣) قال البلاذرى : كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية . وقد كان حسن الصوت بالحداء . [الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٦٨] ترجمة (٢٥٩) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٢٠٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٢٣) من حديث أنس ابن مالك قال : كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ ، وهن يسوق بهن سوّاق ، فقال نبى الله ﷺ : « أى أنجشة ، رويداً سوقك بالقوارير » .

بالقوارير ، فإذا مـا أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غـرض نبيل ، أمـا إنْ أهاج الغرائز فهو حرام - والكلام هنا عن مجرد النص - لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز فى البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً فى نفسك بدون أيِّ مؤثـرات خارجية ، ولها طاقـة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمَد عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشـعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجـدان يتكوَّن فى النفس نتـيـجـة للإدراك ، ثم النزوع والعـمل الذى يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمـة الله بنا أن الشرع لا يتـدخل فى هذه المسـألة إلا فى مرحلة النزوع ، فيقـول لك : قفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك ، ومثَّلْنا لهذه المسألة بالوردة تراها فى البسـتان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحـتهـا فتـعشـقهـا وهذا لك ، فإنْ مـددْتَ يدك لتقطفـها يقـول لك الشارع : قفْ ليس من حقّك .

إذن : فـالشـارع الحكيم لا يتـدخَّل فى مـرحلة الإدراك ، ولا فى المـواجيـد إلا فى مسـألة واحدة لا يمـكن الفصل فـيهـا بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعـاً شىء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

قالوا : لأنهـا لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بـالمنظر ، إنما يُورثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً فى نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمةً بك يا عـبدى أنا سأتدخل فى هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعـك من مـجـرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجـدتَ ، وإنْ

وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت فى أعراض الناس أو كبت فى نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذى يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى فى غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكّ فى حرمته .

فكل ما يُخرِج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيِّج ، تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط .. الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغى للمؤمن الذى يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدى بها ، ويُميز بين الغثِّ والسمين ، والحق والباطل . فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففى رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغى أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذى يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعى أن تتهم أحداً ما دام الأمر فى يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « روِّحوا القَلوب ساعة بعد ساعة ».(١)

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخِلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثِيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .. الخ .

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۝٦ ﴾ [لقمان] وفرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضلَّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلاله فى نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ۝٦ ﴾ [لقمان] لا يقتصر على الغناء

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٥٢٤) وعزاه للديلمى وأبى نعيم والقضاعى عن أنس رفعه . وقال : ويشهد له ما فى مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدى .

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۝٦﴾ [لقمان] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة فى البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذى يشترى السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ۝١٦﴾ [البقرة]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذى قال الله تعالى عنه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] لذلك نقول فى علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۝٦﴾ [لقمان] أى : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۝١٤٦﴾ [الأعراف]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۝١٠٨﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذى يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكى لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَـا لِيزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيَـقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

إذن: فـمن العـذاب مـا هو تذكـير وتطهـيـر أو ترضـيـة وتكريم لمسـتقـبل ، وإنما سُمِّى عـذاباً تجاوزاً ، فـهو فى هذه الحـالة لا يُعَدُّ عذاباً.

وفى هذا المعنـى قال الزمخـشرى(١) رضى الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيـفعل ما لا يُرضى سيده ، فيأمـر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطى ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعـود مرة أخرى إلى خدمة السيـد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهيناً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصه عن الخدمة أو افصله ، يعنى : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سَيكون مهيناً وأليماً .

فـالعـذاب إنْ سـمَّيناه عـذاباً يكون إكـرامـاً لـمن تحب وتريد أن تطهـره ، أما العـذاب المـهـين فهـو لمن لا أملَ فى عـودته ، والإهانة تقتضى الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) هو : جـار الله أبو القاسم مـحمود بـن عمر الـزمخشـرى (توفى عام ٥٣٨ هـ) صـاحب « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وهو من تفاسير المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين فى حق العصـاة والمذنبين فاعتبروهم لا مؤمنين ولا كافـرين ، وقالوا بأنه يـجب على الله إدخال المـؤمنين الجنة ، والكافرين النـار ، وقالوا بنفى صفات الله ، وكلها قضايا خالفوا فيها أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً .. (٧) ﴾ [لقمان] بعد قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (٦) ﴾ [لقمان] يدلنا على حرص النبى ﷺ على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ فى نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿وَلَّىٰ (٧) ﴾ [لقمان] يعنى : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً (٧) ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً فى ذاتك لما لجأتَ إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشيء إنْ كان عندك مثله ، فكيفَ وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

إذن : فاستكبارك فى غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان فى غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس - وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس - لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع فى الأمثال العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فإنْ كان لى كبير خافنى الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا (٧) ﴾ [لقمان] أى : ثقل وصمم ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا فى الخير ، فهى الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبتَ هذا العام . واستخدام البُشْرى فى العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفى هذا إيلام للنفس قبل أنْ تُقاسى ألم العذاب ، فالتلميذ الذى تقول له : أُبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التى تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ فَلَمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[1]

ويقول آخر :

فَأصْبحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ علَى الماءِ خَانتْه فُروجُ الأصَابِعِ

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتى بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذى بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سجانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

---

(١) انقشع الغيم وأقشع وتقشع الريح أى : كشفته فانقشع . وتقشَّع السحاب أى تصدع وأقلع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] . والبيت لكثير عزة فى ديوانه (ص ١٠٧) وعزاه له شهاب الدين محمود الحلبى فى « حسن التوسل » (ص ١٢١) .

ولا شكَّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتى له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولِّى والاستكبار ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾ [لقمان] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ؛ لأن ذكر الشىء مع مقابله يُوضِّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ [الانفطار]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذَّبوه يجدهم فى النار .

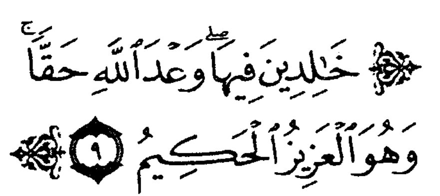
وقلنا : إن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٨ ﴾ [لقمان] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدِّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك في سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨)﴾ [لقمان] أي : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)﴾ [لقمان] فهي جنات لا جنة واحدة ، ثم هي جنات النعيم أي : المقيم الذي لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :



حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذي ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى في تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال في عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا (٩)﴾ [لقمان]

والوعد يستخدم دائماً لعدَة بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعد ، وقد لا يفى بوعده ؛ لأنه لا يملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذى أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعى لأنْ تخلق هذا.

لذلك يعلمنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَف ، وعندها لى أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألَة فى ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتنى بشىء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأت وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضى فى الأرض حتى يُقْضى فى السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك فى قضاء مصلحة وتُقْضى على يديك ، المؤمن الحق الذى يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيَتْ معى لا بى ، يعنى : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمنى أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندى لا بى .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصى ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلى أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجرى فى كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذى يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة

فى هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠) ﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانة لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله فى العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿ يَهَبُ (٤٩) ﴾ [الشورى] فالمسألة فى كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد فى الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا ـ إذن ـ قبلتَ هبة الله فى الذكور ، ولم تقبل هبة الله فى العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأْد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح .. الخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام برىء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة فى الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهى تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره فى إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدرى فسوف أعطيك على قدْرى ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] أى : حين يعد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) ﴾

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأْتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

---

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلاَّ تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا فى مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودى هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم :﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] يعنى : لا نرى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التى لا نراها ؟ البعض يقول : هى الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشَاهد لنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء فى اللغة : كل مَا علاك فأظلّك ، فالغيم الذى يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلّك ، فالأرض كل ما أقلَّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق

فى السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ ۝١٠ ﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منها ، والعلة فى خَلْق الجبال الرواسى على الأرض ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ۝١٠ ﴾ [لقمان] أى : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متحركة ، وما خُلقت الجبال إلا لتثبيتها وضبط حركتها ، فدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۝٨٨ ﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقول : لأن وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسجد الذى يجمعنا صُمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فهل نشعر بدورانه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشعر ، لماذا ؟ لأن مواقعنا من بعض ثابتة لا تتغير ، كذلك موقعنا من المكان ؛ لذلك لا نشعر بالحركة ، لكن نشعر بالحركة حين نقيس متحركاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركتها ؛ لأنه يتحرك معها ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهى - أى الجبال - تمر مرَّ السحاب فلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمر وتتحرك بنفس الحركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠) ﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقةَ الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التى يُكوِّنها الغِرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذى يُمِدُّنا بالزرع الذى به قِوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ④﴾ [مريم]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملَكه عدوك لمتّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ⑩﴾ [لقمان] بث أي : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ ⑩﴾ [لقمان] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شىء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شىء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شىء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر.. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شىء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات فى شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان فى الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرِن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث فى الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شىء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال فى حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠)﴾ [لقمان] من السماء : أى من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا.. (١٠)﴾ [لقمان] أى : فى الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠)﴾ [لقمان] زوج أى : نوع من النبات ، فهى كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعنى اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرِن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩)﴾ [الذاريات] فَسمَّى الذكر (زوج) وسمَّى الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهى تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيـره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سـبحـانه الزوج أى النوع من النبـات بأنه ﴿ كَرِيمٍ ⑩ ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑪ ﴾

والكلام هنا مُـوجَّه للمكابـرين وللمعـاندين الجاحـدين لآيات الله : ﴿ هَـٰذَا .. ⑪ ﴾ [لقمان] أى : ما سبق ذِكْـره لكم من خَلْق السماوات بغير عـمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسى والدواب وإنزال الـمطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. ⑪ ﴾ [لقمان] فلم يدَّعه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ⑪ ﴾ [لقمان] أى : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حـتـى بالمكابرة ؛ لأن الـحق أبلج[1] والبـاطـل لجلج[2] ، لذلك لم

(١) أبلج الحق : ظهر ، ويقال : هذا أمـر أبلج أى واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أى مشرق مضيء . وكذلك الحق إذا اتضح . [لسان العرب ـ مادة : بلج] .

(٢) اللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . [لسان العرب ـ مادة لجج] .

نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

والحق سبحانه فى الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلقُوا هم أنفسهم : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وفى قول الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف] دليل على صِدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضلون يضلون الناس فى مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان فى أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١)﴾ [لقمان] هو كلام مُضل ، وكأن هؤلاء المضلين - فى غفلة منهم ودون قصد - يؤيدون كلام الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

ونجد هذه المسألة أيضاً فى سنة رسول الله ﷺ ، حيث يطلع

علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صِدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه في حَقِّ سنته ، حيث قال : « يوشك رجل يتكىء على أريكته ، يُحدِّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه »(1) .

ومعنى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (11) ﴾ [لقمان] أي : مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (11) ﴾ [لقمان] ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اخلقوا أقلّ شيء في الموجودات التي ترونْها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (73) ﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) ﴾ [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (11) ﴾ [لقمان] أي : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدي هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) والدارقطني (٤/٢٨٦) في سننهم . من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ[1] أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التى تحمل إلى كل بيئة المنهج الذى يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عِبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه فى (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبى والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]

---

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيمَا أخرجه عنه الإمام أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب : إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم . أورد السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور (٦/٥٠٩، ٥١٠) . وقال القرطبى : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبى (٧/٥٣١٦) .

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعى للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع فى المعصية ، ومثّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا.. (١٢)﴾ [لقمان] والإيتاء يُطلَق على الوحى مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحى فإنه ينصرف إلى الوحى للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَف الوحى عامة بأنه إعلام بخفاء.

ومن ذلك قوله تعالى فى الوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحِى للبشر ، قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧)﴾ [القصص]

ويوحى للحيوان ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا.. (٦٨)﴾ [النحل]

ومن ذلك أيضاً يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

كذلك يوحى الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

هذا فى المعنى اللغوى للوحى وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحى الشرعى الاصطلاحى : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه .

وهذا التعريف يُخرج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت للتلقى عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج فى افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التى خلقها الله فى عباده يوم أن أخذ عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت فى ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمتْ منهج ربها فى (افعل) و (لا تفعل) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل فى وحى الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص]

فأىُّ آلة استقبال هذه التى استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه ، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه ؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجى وليدها من موت مظنون ؟

لذلك نقول : إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد فى النفس ما يصادره ، ولا ما يبحث عن دليل ، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقى إليها ، هذا هو الإيتاء..

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ⑥⑤﴾ [الكهف] والعبد الصالح[1] لم يكن نبياً ، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة ، فكان هو مُعلِّماً للنبى ، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى ، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ②⑨﴾ [الأنفال] وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ①⑦﴾ [محمد]

إذن : كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٩٢) : « هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ » . وأخرج البخارى (٣٤٠٢) وأحمد والترمذى (٣١٥١) وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سُمِّى الخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٢٠) قال ابن حجر فى فتح البارى (٦/٤٣٤) : « قال الطبرى فى تاريخه : كان الخضر فى أيام أفريدون فى قول عامة علماء الكتاب الأول ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر » . وأخرج النقاش أخباراً كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشىء منها حجة ، قاله ابن عطية » .

البنية التى خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى فى افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافى الطاهر النقى ، الذى لم يخالط جسمه حرام ، والذى لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان]

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبى أم غير نبى ، والغالب أنه غير نبى[1] ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول فى المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسِّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر فى نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التى تسوس حركة حياته ، فيسعد بها فى نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان[2] .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : خيَّر الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذرّ عليه الحكمة ، فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ، وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرنى ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) والقرطبى فى تفسيره (٧/٥٣١٧) .

(٢) عن أبى الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة (الشديد الصلب المجتمع الخَلْق) سكِّيتاً ، طويل التفكر عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها . [عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٢) لابن أبى حاتم] .

وللعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقى السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعانى الدقيقة(١) .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(٢) .

لذلك حين ترى مَنْ هو أقل منك فى مال ، أو صحة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميّز به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه - كما قلنا - وزَّع فضله بين عباده بالتساوى ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتقوى : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح »(٣) .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع فى حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

---

(١) مما يُروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . [تفسير القرطبى ٥٣١٧/٧] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجة فى سننه (٤١٤٣) واللفظ لمسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٤١١) ، عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ١٠٠) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، فقال : « يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

والله لو قعد الوزراء فى بيوتهم أسبوعاً ما حدث شىء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحى ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا (خرارة) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذى قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به فى السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجرِّبه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ فى المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز[1] : ما قصر بنا فى علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا - يعنى : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظّفناه فى حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهى ، أما إنْ أخذنا

---

(١) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموى ، أبو حفص ، ولد بالمدينة (٦١هـ) ونشأ بها ، وولى إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، فبويع فى مسجد دمشق ، ومنع سبَّ على بن أبى طالب وكان مَنْ سبقه من الأمويين يسبونه على المنابر ، توفى وهو فى الأربعين من عمره عام (١٠١هـ) ، مدة خلافته سنتان ونصف .

العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعى للزيادة ، وأنت لم تستفدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء فى شخصية لقمان وجنسيته تكلموا فى حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّط معه فى الحديث : ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال : بلى ، قال : فَبِمَ أوتيتَ الحكمة ؟ قال : باحترامى قدر ربى ، وأدائى الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضى لما لا يعنينى(١) .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق فى الحديث لكانت كافية .

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص فى طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذِكْر فى مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفى اليوم التالى قال له : اذبح لى شاة وأتنى بأخبث مُضْغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تَأت بهما بالأمس على أنهما

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « كتاب الصمت » (حديث رقم ٦٧٥) ط . دار الاعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال : مرَّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده ، فقال : ألست عبد بنى فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذى كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنينى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/٥١٢) .

أطيب مضغتين فى الشاة ؟ قال : بلى فليس شىء أطيب منهما إذا طَابَا ، ولا شىء أخبث منهما إذا خَبُثَا[(١)] .

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « ... ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(٢)] .

ويقول ﷺ فى حديث آخر : « من حفظ ما بين لحييه[(٣)] وما بين رجْليه دخل الجنة »[(٤)] .

ويُروى أن لقمان كان يفتى الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال - وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ أكتفى إذا كُفيت ؟

يعنى : لماذا أتمسَّك بها وقد بعث الله لى مَنْ حملها عنى ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح (أى : أنه أخذ الحكمة من منازلهم

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعى ، فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٦) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمام الحديث : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه » الحديث .

(٣) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لَحْى [لسان العرب - مادة لحا] .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/٢٥٢) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله فى البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بلفظ « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » .

كما يقال) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسح له هذا المجال ، ويترك له ساحة الفُتْيا فى القوم لعله يأتى بأفضل مما عند لقمان ؛ لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتنى يا رب ، فأنا أختار الراحة ، وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردتها يا رب عزمة فأنا سأقبلها سمعاً وطاعة ؛ لأنى أعلم أنك لن تخذلنى[1] .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليبين لنا أن الإنسان من الممكن أن يكون ربانياً ، كما جاء فى الحديث القدسى : « عبدى ، أطعنى تكُنْ ربانياً ، تقول للشىء كُنْ فيكون »[2] .

ذلك لأن فضل الله ليس له حدود ، وليس عليه حرج ، وبابه تعالى مفتوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلجَ هذا الباب ، وأنْ تكون

---

(١) أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لقمان كان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كثير الصمت ، أحب الله فأحبه الله تعالى ، فمَنَّ عليه بالحكمة ، نودى بالخلافة قبل داود ، فقيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرنى ربى قبلت ، فإنى أعلم أنه إن فعل ذلك أعاننى وعلمنى وعصمنى ، وإن خيَّرنى ربى قبلت العافية ولم أسأل البلاء » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) نحو هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْله التى يمشى بها » الحديث . قال الطوفى (سليمان عبد القوى الصرصرى ت ٧١٦ هـ) : اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها » .

في معية ربك دائماً .

ومما يُـرْوَى من حكمة لقمان أنه غـاب في سَفْرة ، ثم عاد فلقـيه تابعه ، فـقال له : مَـا حال أبي ؟ فـقال : مات ، فـقال لقـمان : الآن ملكْتُ أمري ، ثم سـأل : فمـا حال زوجتي ؟ فـقال : ماتت ، فـقال : جدّدتُ فراشي ، ثم سـأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فـقال : سَتَر الله عِرْضي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهري[١] .

وهذا الكلام لا يصـدر إلا عن حكمـة ، فكثـيراً مـا يفـرح الابن ـ خاصة العاق ـ بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقـول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتُ أمري ؛ لأنه في حـياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس في يده إنمـا في يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمـة توضح لنا قول النبي ﷺ : « أنت ومـا ملكت يداك لأبيك »[٢] كأنه من العيب أن تقول في حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القـيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لي كذا وكذا .

---

(١) أخرجـه عبد الله بن أحـمد بن حنبل في زوائده عن عـبد الله بن دينار : إن لقمـان قدم من سفـر فلقيـه غلام في الطـريق فقال : مـا فعل أبـي ؟ قال : مات . قـال : الحمـد لله ملكت أمري . قال : مـا فعلت أمي ؟ قال : مـاتت . قال : ذهب همي . قال : ما فـعلت امرأتي ؟ قال : مـاتت قال : جُـدِّدَ فراشي . قـال : ما فـعلت أخـتي ؟ قال : مـاتت . قال : سـترت عورتي . قال : ما فعل أخي ؟ قال : مـات . قال : انقطع ظهري . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٥١٩) .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قـال : أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال : إن أبي يريد أن يجـتاح مـالي . قال : « أنت ومـالك لوالدك ، إن أطيب مـا أكلتم من كـسبكم ، وإن أمـوال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً » أخرجه أحـمد في مسنده (٢/١٧٩، ٢١٤) ، وأبو داود في سننه (٣٥٣٠) .

أمـا قوله : « جـددت فـراشى » فهـى كلمة لهـا مـعنى كـبيـر : أنا لا أُدخل الجديدة على فراش الـقديمة حتى لا أجرح مـشاعرها ، أو أننى لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتى الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع فى النساء .

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكـر السيدة خديجة ، فقد دخلت فاطمة بنت محمد ﷺ على أبيها مُـغْضبة فقال ﷺ : « ما أغضبك يا أم أبيها » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسـول الله تزوج أمك ثيِّباً ، ولم يتـزوج بِكْراً غيرى ، فقال لهـا رسـول الله : « إذا أعادت عليك هذا القـول ـ وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الردِّ وفى سـرعة الخـاطر ـ فقـولى لهـا : ولكن أمى تزوجتْ رسول الله وهو بكر ، وتزوجـتيـه أنت وهو ثيِّب »[1] هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقـول قائل : وكيف تغـار عائشة ، وهـى أم المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة لها معنى ، فـقد عقد رسـول الله عليها وهى بنت السادسة ، ودخل بها وهى بنت التاسعة[2] ، وقد جاوز ﷺ الخمسين من عـمره ، ومع فارق السن بينهما رضيـتْ عائشة برسـول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جـعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنّه وصِغَر سنها . فلم تنظر إليـه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأتْ

(١) لقـد كانت عـائشة تغـار من خديجـة رضى الله عنهمـا ، رغم أن رسول الله ﷺ مـا تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ، ومن هذا ما أخرجـه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة : أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : « ما تذكـر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدَّهر ، أبدلك الله خيراً منها » فتغـير وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً : « والله ما أبدلنى الله خيـراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصـدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

(٢) عن عـائشة رضى الله عنهـا قـالت : تزوجنى رسـول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين ، ودخل علىّ وأنا بنت تـسع سنين ، ولقـد دخلت عليـه وإنى لألعـب بالبنات مع الجـوارى فـيـدخل فينقمعن منه صواحبى فيخرجن فيخرج رسول الله ﷺ فيسربهن علىّ . أخرجه ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير (٥٩/١٠) ـ ط مكتبة الخانجى ـ هيئة الكتاب .

فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : « جددت فراشى » أننى أراعى مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أُدخلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التى ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتى ، راضية عن كل تصرفاتى ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لى ، وأنا سكَن لها .

نعوذ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] فالذى آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق فى نصابه ، حتى فى الدواب نسمى الحديدة التى توضع فى فم الفرس لأتحكم فى حركته (حكَمه) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ فى المعركة ، فكُلُّ هدف من هذه له حركة ، وينبغى أنْ أتحكم فى حصانى ليؤدى لى ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعنى فى معناها العام وَضْع الشىء فى موضعه ، وهى مجموعة من ملَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التى تضع كل أمر فى محله لكن بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذى ظل يدرس فى الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه فى أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت ملَكة عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ .. (١٢) ﴾ [لقمان] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكَّد باللام ومُؤكَّد بقد التى تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿ آتَيْنَا .. (١٢) ﴾ [لقمان] الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى إتيانه للأشياء يعنى تعدَّى ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خير مستور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب .. الخ .

وكل ذلك مُسخَّر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتفع به فيه ، وهذا أول الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفى الأزل قبل أن يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات مادته ومُقوِّمات قيمه وروحه ـ أى : أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يُقدِم على صَنْعة لا بُدَّ أن يُحدِّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشىء ثم ينظر فيه : لأىِّ شىء يصلح هذا الشىء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له مُقوِّماته المادية والمعنوية ، والمنهج الذى يُصلحه وحدّد الهدف من وجوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] فقبل أنْ يخلق اللهُ الإنسانَ وضع المنهج الذى به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمعنى الإيتاء أنْ يعدى الله ما قدره من خير ظاهر أو خير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء وبالطعام وبالشراب .. الخ ، والقيم تقوم بالوحى وبالمنهج الذى حمله الرسل بافعل ولا تفعل.

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا : إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسولَ الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتى الوحى موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ، وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صَفَتْ لله تستطيع أنْ تهتدى إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحى به .

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له فى الأرض ، ولا يعنى هذا أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إننى أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ⦗٢٧⦘ ﴾ [الحجر]

ومسألة الخلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⦗١٩⦘ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⦗٢٠⦘ ﴾ [إبراهيم] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الحن[1] ،

---

(١) قال ابن سيده : الحن نوع آخر غير الجن . ويقال : الحن خَلْق بين الجن والإنس . وقال الفراء : الحِنّ كلاب الجن . [لسان العرب - مادة : حنن] .

وعالم البنِّ ، وعالم الجن وغيرهـا مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشرى الذى نسميه « إنسان » لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة فى الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقى الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس فى بالهم إلا الله .

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة فى قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقى المخلوقات (بكُنْ) ؛ لذلك جاء فى حيثية النقد على إبليس : ﴿قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ .. (٧٥)﴾ [ص]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هى الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول (هذا الشيء يدوىّ) يعنى : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفى مسألة خَلْق آدم - عليه السلام - يحلو للبعض أن يقول : هو الذى أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أننى خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب فى أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] فهو - إذن - مخلوق للأرض ، وما الجنة التى دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعنى جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فالجنة فى اللغة هى المكان الملىء بالأشجار الكثيفة التى تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، فبها كل مُقوِّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التى دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لندربه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوِّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن .. إلخ وكذلك فعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ ما فى الجنة ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التى أوضحها وبيَّنها له . كما نلحظ قوله تعالى : ﴿لا تَقْرَبَا .. (٣٥)﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشىء قد يُغرِى بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخَلْقه فى (افعل) و (لا تفعل) .

ثم يذكِّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التى حدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم فى ذاته ؛ لذلك نجد الأمر من الله تعالى يختلف باختلاف المأمورين ، فمرة ينهى عن شىء ويأمر بمثله ليرى مدى انضباطك للأمر وللنهى .

ففى الحج مثلاً ، يأمرك أنْ تُقبِّل حجراً ، وأنْ ترمى حجراً آخر وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن : فالحجرية غير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهى .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهى ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتى مَنْ يقول :

الوضوء للنظافة ، فما النظافة فى التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول : فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشىء هو أصل فى مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط فى طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قِوَام روحك وحياتك ، وحياتك فى الأصل ومادتك من الماء الذى تستخدمه فى الوضوء والتراب الذى تستخدمه فى التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أنْ تُلحظ فى الدخول على الله فى الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفى أن يقول : علَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألاّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه[1] ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهى ؛ لذلك من غير المناسب أن نقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغنى بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأننى سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً وما زِلْنا نكرره . قلنا : إن أعز شىء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمِل عقله

(١) عن على رضى الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٢) .

يبحث عن الطبيب المتخصص فى مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن علَّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لى ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر فى العبادات هو الحق - سبحانه وتعالى - فلا يليق بالمؤمن بعد أنْ آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم - عليه السلام - وأن الجنة التى دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل (افعل) وعلى : لا تقرب (لا تفعل) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرَّك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التى بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس .

بالله ، ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير ملَكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر] إذن : كان على آدم أنْ يتنبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

ثم يُنبِّهنا الحق - سبحانه وتعالى - من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا فى مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلاّ فى مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذى يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً فى ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] أى : فى مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك فى صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلى تتذكره .

فلو أننا أخذنا (الروشتة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أنْ ينزغنا الشيطان نقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبّه الشيطان ،

وعلم أننا لسنا فى غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنّاس ، يعنى : إذا ذُكر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطانى - حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن - قُلْ بجرأة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفى عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت (تكُرُّ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستغفل) واحداً غيرك .

والشيطان رغم علْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ فى خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلٌّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عِزِّ الربوبية فى عليائه وذُلِّ العبودية إذا اتجه فى سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت فى معية ربك فى هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير فى يد أبيه وفى صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علم إبليس وعلى ذكائه ، ونلحظ هذا أيضاً فى قوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] كأنه يقول لربه : أنا لا أقترب من عبادك الذين هم فى حضانتك ، وفى معيتك .

والتغفيل الأكبر فى إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا يسجد .

إذن : نبَّه الله تعالى آدم وحذره من كيْد إبليس ، وكان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه فى غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّوْءة ، وكانت المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بعورته عند خروج الغائط .

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا : لأن آدم حال طاعته لأمر ربه فى الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهى ربه ، وهو طهى بحكمة وبقدر معلوم ، يكفى مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لم يَبْق فى بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر فى هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم أمر ربه وذاق الشجرة اختلفتْ الأغذية فى بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفر منها ؛ لذلك أخذ يزيل هذا الأذى عن نفسه ،

ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسَدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّبْة لآدم فى الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه[1] ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع فى المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سِرْتَ على منهجى ووفْق أوامرى فى (افعل) و (لا تفعل) فلن تجد عورة فى الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً فى حركة حياتنا فى الكون ، فلا نرى عورة فى المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولِفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء] وقال فى عيسى عليه السلام : ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد]

---

(١) قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٩) : « اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟

- الكرم (العنب) . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما .
- الحنطة . زعمته اليهود .
- التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .
- السنبلة . قاله ابن عباس .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- البر . قاله وهب بن منبه .

قال ابن كثير : فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

وهذا الإيتاء من الله يتم فى خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطى النبى أو الرسول شيئاً حسِّياً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون المحسَّات ، فأنا لاَ أقول مثلاً : آمنتُ بأننى قاعد فى مسجد الشيخ سليمان وأمامى جَمْع من الإخوة .. الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبى .

الحق - سبحانه وتعالى - يُؤتِى على توالى العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتى غير الرسل ، ويؤتى الحيوان .. الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التى آتاها لقمان : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] هذه هى الحكمة الأولى فى الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدى مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذى يفسد خلافة الإنسان فى الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً فى الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل] أى : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعانى الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، علِّته أنْ تشكر أى : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو في ذاته نعمة جديدة ، وتأمل في ذلك قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٤٦)﴾ [الروم] هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعني أنه في ذاته نعمة ، وإلا لقال كما في الآية السابقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آت .

والشكر في قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر في أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذي قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله في النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعني : جعله سبباً في قضاء حاجتك ، ثم إن الذي قدَّم لك جميلاً ، ما قدّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه ، وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسع سبحانه الكافر الذى كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غنى عن خَلْقه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

ونلحظ فى الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففى الشكر قال سبحانه ﴿ وَمَن يَشْكُرْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] أما فى الكفر فقال ﴿ وَمَن كَفَرَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففى الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿ يَشْكُرُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر.

وكأنه - سبحانه وتعالى - لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضى ﴿ كَفَرَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] أى : فى الماضى فحسب ، وقد لا يعود فى المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

ومعنى ﴿ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] من صيغ المبالغة على وزن « فعيل » وتأتى مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتيل أى : مقتول ، والمعنى هنا ﴿ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] أى : محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿ غَنِيٌّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذى حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التى رواها القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] قوله : ﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوِى عنه أنه كان يفتى الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفى وقد كُفِيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة - رضوان الله عليه - عندما شكاه القاضى ابن أبى ليلى[1] إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو فى بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبى حدث لى كذا وكذا - تريد أن تستفتيه - فماذا قال لها وهى ابنته ؟ قال : سلِى أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهانى عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخلْق ، وبين أنْ يتكلم مع

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، الأنصارى الكوفى : قاضٍ ، فقيه ، من أصحاب الرأى . ولد ٧٤ هـ . ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ، ثم لبنى العباس ، واستمر ٣٣ سنة ، له أخبار مع الإمام أبى حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٦/١٨٩) ، (تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٧١) .

ولده ، فالابن هو الإنسان الوحيد فى الوجود الذى يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه ، ويتمنى أن يُعوِّض ما فاته فى نفسه فى ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير .

ومعنى ﴿ وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] الوعظ : هو التذكير بمعلومة عُلمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة ، إنما يُنبه غفلتك إلى شىء موجود عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فَرْق بين عالم يُعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعنى أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان دور الوالد أنْ يعظه ويُذكِّره .

ونلحظ فى أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿ يَـٰبُنَىَّ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقل يا ابنى ، فصغّره تصغير التلطف والترقيق ، وليوحى له : إنك لا تزال فى حاجة إلى نصائحى ، وإياك أنْ تظن أنك كَبِرت وتزوجت فاستغنيتَ عنى .

وأول عظَة من الوالد للولد ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] وهذه قمة العقائد ؛ لذلك بدأ بها ؛ لأنه يريد أنْ يُصحِّح له مفهومه فى الوجود ، ويلفت نظره إلى أن الأشياء التى نعم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطى فى الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهى تعطِى فى حين يموت المعطَى المستفيد بها .

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ؟ ومع ذلك اندثروا جميعاً ، وما زالت الشمس باقية ، كذلك القمر والهواء والجبال .. الخ . فكيف وأنت سيد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك ؟

إذن : على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذى كرَّمه الله على

سائر المخلوقات أن يقول : لا بُدَّ أن لى عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التى تخدمنى ، وهذا لا يتأتى إلا حين تصل عمرك فى الدنيا بعمرك فى الآخرة ، وهذا يستدعى أن تؤمن بالله وألاّ تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذى خلق لك هذا كله ، وأعدّه لخدمتك قبل أن توجد .

واقرأ : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾[لقمان]

فكيف تدعى أن لله شركاء فى الخَلْق ، وهم أنفسهم لم يدَّعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً فى كون الله ؟ كيف وأنت تسير فى الصحراء ، فترى الحجر يعجبك فتأخذه وتُسوِّيه وتجعله إلهاً ولو هبَّتْ الريح لأطاحتْ به ؟

ثم ما المنهج الذى جاءتكم به هذه الآلهة بِمَ أمرتكم وعَمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبدها ، وماذا أعدَّت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن : فهذه آلهة بلا تكليف ، والعبادة فى حقيقتها أنْ يطيع العابد أمر معبوده ، إذن : هى آلهة باطلة لا يخفى بطلانها على العاقل .

لذلك يقول لقمان ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] نعم الشرك ظلم ؛ لأن الظلم يعنى : نَقْل حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجُّوا لما نزل قوله تعالى[1] : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ .. (٨٢) ﴾ [الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك » حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٤) كتاب الإيمان .

وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من روْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أى : الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هى كلام جديد من الله تعالى جاء فى سياق كلام لقمان ؟ قالوا[1] : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿وَوَصَّيْنَا .. ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] يعنى : علّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدىء بعلمنا ويذكر بها فى وعظنا ، ويُوفى بها

---

(١) قيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ، أخبر الله به عنه ، أى : قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .

وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٢٠) : « ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص وعليه جماعة المفسرين » .

حين جمعنا كل الخير فى كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبى ﷺ عندما خطب الناس فى حجة الوداع[1] ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منَّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة فى أضيق نطاق.

الله تعالى يقول : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة فى كتاب الله ، فى هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفى سورة النساء : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء]

وفى الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وفى الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة هذه الحجة « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .. » الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤) .

وفى الأحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

وفى آية واحدة وردت كلمة (حسناً) فى سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) هى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ فى هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أى : فى ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد فى الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت فى هذه الآية بالذات : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصى الابن بالحُسْن فى ذاته ، وفى أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو التخلى عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمِل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه .

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجِدت حين تم تكوين العمر العقلى الواعى ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتى أبوك .. الخ ، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق - تبارك وتعالى - هنا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ (١٤)﴾ [لقمان]

ويأتى مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول : بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التى ذهبت تقاضى زوجها لأنه يريد أنْ يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضى وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خِفّاً ووضعه شهوة ، وحملتُه وهناً على وهن ، فحكم لها .

ومعنى : ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] أى : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتى مع ضعف بسبب الجنين الذى يتغذى منها ، ويكبر فى أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا : إن من حكمة الله تعالى فى خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً

للتمدد والاتساع ليحتوى الجنين فى مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحملها اتساع الرحم فينفجر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه فى غذائه وفى تنفسه وحركته ، لكن حينما جاء أمر الله وأذن بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوِّمات حياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون فى هذه العملية (القرن طش) كما تنفجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه فى مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمه ، فلكل منهما رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المرأة حين يُقدَّر لها حَمْل ينقطع عنها الدم الذى كان ينزل بصفة دورية حال فراغ الرحم من الحمل ، هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذى لا يتعدَّاه إلى غيره .

وأيضاً من حكمته تعالى فى وَضْع الجنين فى بطن أمه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعى لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحياة للطفل ساعةَ ينفصل عن أمه أنْ يتنفس ، فإذا نزل برأسه - وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكد منه - استطاع التنفس حتى وإنْ تعسر نزول باقى جسمه ، أمّا إنْ نزل

الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] الفصال : أى الانفصال عن الأم فى مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذى استغنى عن لبنها : الفصيل أى الذى فُصِل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التى أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية النبى ﷺ للصحابى الذى سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك[1] ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، ففى سورة البقرة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقلّ مدة للحمل .

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » .

رأى عُمَر رضى الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين[١] :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

والأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب فى الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شىء ، والوالدان سبب من أسباب الله فى الوجود ، إذن : لا تُحسِن شكر الله

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) : « قد استدل على رضى الله عنه بهذه الآية ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] مع التى فى لقمان ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » ، وذلك بعد أن قال له على : بل إنه يضر وينفع !! أليس يشهد يوم القيامة لمن قبّله ؟

الخالق الأول والمسبِّب الأعلى حتى تُحسن شكر الوالدين ، وهما السبب الثانى فى وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] أى : على الإيجاد ، لكن فى موضع آخر : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعالى ذكرهم فى العلة ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]

والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقى وجود ، فالأبوة لمن ربَّى ، وله نفس حقوق الأب من حيث الشكْر والبر والمودة ، بل ينبغى أن يكون حقُّه مضاعفاً ؛ لأن فى الأب الحقيقى عطف البُضع على البُضع ، وفى الأب المربِّى عطف الدين على الدين ، وهذه مسألة أخرى غير مجرد الأبوة .

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين ، وهما السبب المباشر فى وجودك ؟ أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذى خلقك وأوجدك ؟ نقول : هما معاً ، فشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهى إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] أى : المرجع ، والمعنى : أننى أوصيك بأهم شىء فاحذر أنْ تخالف وصيتى ؛ لأننى أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله ﷺ فى أمر الوالدين وما نزل فى شأنهما ، فسأل : كيف لو أمرانى بالكفر ، أأكفر طاعةً لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله فى هذه المسألة .

وفى آية العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) سبب نزول الآية : قال سعد بن أبى وقاص : نزلت فىّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان] كنت رجلاً براً بأمى ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بى ، فيقال يا قاتل أمه . قلت : يا أمه لا تفعلى فإنى لا أدع دينى هذا لشىء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ، فنزلت هذه الآية . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥٢١) وعزاه لأبى يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى .

فذكر فيها (حُسْناً) ولم يقل فيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] فكأن كلمة الحُسْن ، وهى الوصف الجامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿جَاهَدَاكَ .. (١٥)﴾ [لقمان] نقول : جاهد وجهد ، جهد أى فى نفسه ، أما جاهد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهى تدل على المشاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية فى واحد ، والمفعولية فى الآخر .

فمعنى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥)﴾ [لقمان] لا تعنى مجرد كلمة عَرَضَا فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما فى الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنصيحتى لك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا .. (١٥)﴾ [لقمان]

ثم إياك أنْ تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً فى اللدد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهما حق عليك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] ثم إنهما كفرا بى أنا ، وأنا الذى أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. (١٥)﴾ [لقمان] أى : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أُناسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. (١٥)﴾ [لقمان] أى : مأواكم جميعاً .

قالوا : إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، الذى قال

فيه رسول الله ﷺ : « خالى سعد ، فليُرنى امرؤ خاله »[(١)] ولما أسلم سعد غضبت أمه[(٢)] ـ وكانت شديدة الحب له ـ فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى فى حَرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو أذاها القَمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذى أنا عليه ، فنزلت ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ .. ⑮ ﴾ [لقمان]

ولو أن الذى يكفر بالله ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى الذى قالت فيه الأرض : « رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت السماء : رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : ياَ رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك .. الخ ، فقال الحق تَبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم »[(٣)] .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعزاه للترمذى من حديث جابر قال : أقبل سعد فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٤٩٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن سعد فى الطبقات (٣/١٢٨) .

(٢) هى : حمنة بنت سفيان بن أمية . قال ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة ٣١٨٧) فى ترجمة ابنها سعد : « هى بنت عم أبى سفيان بن حرب ابن أمية » .

(٣) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء فى الحديث النبوى « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة »(١) .

إذن : فنِعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْته غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم فى شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بى ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذى يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصى به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ فى دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى لفظ عند مسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وتأمل عظمة الأسلوب فى ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضى متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا فى ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذى طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشىء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكى فسألته زوجته : لم تبكى وقد وصلْته ؟ فقال : أبكى لأننى لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون فى ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفى وأمرى ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (١٦) ﴾

﴿ يَٰبُنَيَّ .. (١٦) ﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾[لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن عِلْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. ﴿١٦﴾﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجـود ؟ فالقـرآن ذكـرها مثـالاً للـصِّغَـر على قـدر مـعرفـة الناس بالأشيـاء عند نزوله ، أما من حـيث التحـقيق فـقد ذكـر القرآن الذرة والأقلَّ منها .

لذلك لما اخترعوا فى ألمـانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أى الجزء الذى لا يتـجزأ) ، واستطاعوا تفـتيت الذرة ، ظنوا أن فى هذه العملية مـأخذاً على القرآن ، فقد ذكـر القرآن الذرة ، وجعلها مقـياساً دينياً فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلَّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قـرأتم شيئاً وغـابت عنكم أشياء ، ولو كـان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيـه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولمـا ستتوصلون إليـه فيمـا بعد ، واقـرأوا إن شئـتم قول الله تعـالى عن الذرة : ﴿وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتيـاط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صـغير إنما قال (أصـغر) وهذا يدل على وجود رصـيد فى كلام الله لكل مُـفتَّت من الذرة .

وقوله : ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] ﴿فِي صَخْرَةٍ .. (١٦)﴾ [لقمان] أى : على حبكة الوجود ، وفى أضيق مكان ﴿أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ .. (١٦)﴾ [لقمان] يعنى : فى المتسع الذى لا حدود له ، فلا فى الضيِّق المحكم ، ولا فى المتـسع يخفى على الله شىء ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] واستصـحب حيثيـات الإتيان بها بوصفـين لله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون فى مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف فى الدخول .

والحق - سبحانه وتعالى - لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل فى الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى فى المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً فى الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكّر الفئران والثعابين فضيّق الحديد ، ثم تذكّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان] يعنى : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر فى الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطِع ذلك المنهج فى افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك فى سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان فى صخرة صماء ضيقة ، أو فى سماء ، أو فى أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنْ كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[(١)] .

بعد ذلك يدخل لقمان فى وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هى الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تَسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبى ﷺ عماد الدين[(٢)] .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغى أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادى ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذى اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل فى زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة فى هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أَوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففى السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير فى آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سعَة ، ولا حجةَ لأحد فى تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون فى مثل هذه الأمور ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] وأن هذا ليس فى وُسْعى .. فنقول لهم :

لا ينبغى أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم فى الوُسْع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال فى الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان فى ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هى الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهى الملازمة له التى لا تسقط عنه بحال ، وهى الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن فى العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧) ﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ فى ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفى ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدى عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة فى الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف فى حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن فى التزام غيرك وفى سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقَى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعـزاز العلم أنك لا تنتـفع به الانتـفاع الكـامل إلا إذا عدَّيْتـه للغيـر ، فإنْ كتـمته انتـفع الآخرون بخـيرك ، وشقـيتَ أنت بشرِّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعـروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم مـا تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنـك أديْتَ ، وحظك عند الناس لأنك فى مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحـظ أن هذه الآية لم تقـرن إقـامـة الصـلاة بإيتـاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣)﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكـاة فى الـقرآن الكـريم نجـد أنها وردت اثنتـين وثلاثيـن مـرة ، اثنتـان منهـا ليسـتـا فى مـعنى زكاة المـال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطـهر ، وذلك فى قـوله تعـالى فى قصـــة الخضــر وموسى عليـهما الـسلام : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف]

والمعنى : طـهرناهم حينمـا رفعنا عنهم باباً من أبواب الـفتنة فى دين الله .

والمـوضـع الآخـر فى قـوله تعـالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَـاةً .. (١٣)﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيـئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُعْدَمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآتِ الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن ؛ ساعة تصلى فقد ضحَّيْتَ بالوقت الذى هو أصل المال ، فكأن فى الصلاة تصدقت بمائة فى المائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة فى كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سِنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل فى أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتى سِنّ التكليف ، وقد ألِفَها الولد وتعوَّد عليها ، فهى عبادة تحتاج فى البداية إلى مِران وأخذ وردٍّ ، وهذا أنسب للسنِّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجِد الثانى له ، والسبب المباشر فى وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتُك فى أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلَبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك وأطاعك ، فهى طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك فى التكليف فطبيعى أنْ أُوكِّلك فى العقوبة ، فإنْ حدث تقصير فى هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأننى لم أُكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يَـٰبُنَىَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهى تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا - وهذه من حكمة لقمان ودِقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآتِ الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له فى وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »[١] وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمرى[٢] فأمره ليس ملْكاً له فى حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة فى ذمته هو ، لا فى ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقى أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة فى قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه ملْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى اجتاح مالى ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (١/ ١٧٩) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . [الدر المنثور ٦/ ٥١٩] .

الصبـر : حَمْل النفس علـى التجلُّد للأحـداث ، حتى لا تعـينَ الأحداث على نفسك بالجـزع ، فأنت أمام الأحداث تحـتاج إلى قوة مضـاعفة ، فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذى يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذى يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار سـاقهـا الله إليك بلا سـبب فـلا غريمَ لك فـيـها ؛ لذلك يجـعلهـا فى ميزانك : إما أنْ يعلى بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفـار يفرحون إذا أصاب المـسلمين مصيـبة ، كما فـرحوا يوم أُحُـد ، وقد ردَّ الله عليـهم وبيَّن غـباءهم ، وقـال سـبحـانه : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ..** (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجـار والمجـرور (لنا) ولم يقُلْ كـتب علينا ، إذن : فـالمـصيـبـة فى حسـاب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون فى المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصـبر بعـد الأمر بالمـعـروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الذى يتـعرض لهـذين الأمرين لا بُدَّ أن يصـيبـه سوء من جـراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْتَ للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبى ﷺ فى قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّـره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسـانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

فالله أمـرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جـعل لك تقدير المسـألة ومدى

---

(١) أخرجـه مسلم فى صحيحـه (٤٩) كتاب الإيمـان ، وأحمـد فى مسنده (٣/ ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يـريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقى بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغـيِّر المنكر بيدكَ فتضـرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيـجارة فى فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخـمر إنْ شربها أو تمـزق له مثلاً ورق « الكوتشـينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاسـتطاعـة فيكفى أنْ تُغـيِّـر بلسانك إنْ كـانت لديك الكلمـة الطيبـة التى تداوى دون أن تجرح الآخـرين ، ودون أنْ يؤدى النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فـإنْ لم يكُنْ فى اسـتطاعـتك هذه أيضـاً ، فليكُنْ تغـيـيـر المنكر بالقلـب ، فـإنْ رأيتَ منكراً لا تمـلك إلا أنَّ تقـول: اللهم إنَّ هـذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغيـيراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعنى : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحـدث التغيـير بالقلب إلا إذا كان القـالب تابعاً للقلب ، فـالقلب يشـهـد أنَّ هذا منكـر لا يُرضِى الله ، والقـالب يسـاند حـتى لا تكون منافقـاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا اسـتطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعـزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُـغـيِّـر بقلبك إنْ أنكرتَ عـليـه فـعله وأبقـيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه فى عزلة ، فـلا تهنئه فى فرح ، ولا تعزيه فى حـزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

ومـا استـشرى البـاطل وتَبجـح أهل الفسـاد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمـونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربمـا زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا - تبارك وتعالى - هذه القضية فى قوله سبحانه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء]

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ فى قصة الثلاثة[1] الذين خُلِّفوا بغير عذر فى غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم فى زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشى و (يتمحك) فى الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك[2] يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيعة العامرى .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك . وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته ، وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أى أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أنى أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلى بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[١] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات فى البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله فى أمرهم[٢] ، حتى أن واحدة[٣] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجى رجل كهدبة الثوب (يعنى : ليست له رغبة فى أمر النساء) فأذن لها رسول الله فى أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً فى هذا الامتحان العام وعشرة أيام فى الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

---

(١) يروى لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى . [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها . (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هى : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا . [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/١٢١] ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ».

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول : لقد ضاقت بى الأرض على سعتها ، والحق يقول فى وصف حالهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[١] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابى كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[٢] .

إذن : ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك فى المصيبة غريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨) .

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيتَ غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم فى عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه فى هذه المسألة : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] وقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول فى الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة فى سياقها ، فالتى أُكِّدت باللام جاءت فى المصيبة التى لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففى المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، فهى بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّى النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى] وقال فى موضع آخر : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح فى يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى - خاصة فى صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر - القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولى الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو .

حتى فى مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّى الطرفين إخوة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ففى هذا الجو وفى أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يبنى الحكم على ارتفاع المناهج فى الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التى خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَن اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التى تُوقفه عند حدِّ المثلية التى أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابى اليهودى الذى اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ فى الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودى أمره إلى القاضى وأخبره بشرطه ـ وكان القاضى مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودى : نعم لك حَقٌّ فى أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه فى ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودى ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط ـ شرط المثلية فى الردِّ ـ يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن العفو وعن الإحسان فى المصيبة التى لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذى قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذى تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذى كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك فى سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

وأذكر أننى جاءنى مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن مع خصمى ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتى هى أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[1] شاهدَة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدى منه إلى رسول الله فى عكة[2] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة فى آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[3] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها فى يوم من الأيام أنها أسرفت فى استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

---

(١) هى : أم مالك الأنصارية . ذكرها ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب - مادة : عكك] .

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدى للنبى ﷺ فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدْم ، وليس عندهم شىء ، فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منهـا ، فـذهبت إليه وقـصَّتْ عليـه هذه المسـألة ، فقـال لهـا ﷺ : « أَعَصرتيـها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فـأخبرها أن التجـربة مع الله شكٌّ وأنها لو لم تعـصرها ولم تظن هذا الظن لبـقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها[1] .

وتلحظ أن كلمـة (أصابك) والمصـيبـة تدل على أنها واقـعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمـسألة مـسـألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السـهم الذى أُطلق عليك ، فإياك أنْ تقـول : لو أنى فعلت كذا لكان كـذا ، فما سُـمِّيت المصيـبة بهذا الاسم إلا لأنهـا صائبتك لا تستطـيع أنْ تفرَّ منها . كمـا يقولون عن المـوت : تأكد أنـك ستـموت ، وعـمـرك بمقـدار أنْ يصلك سـهم الموت .

وكلمة ﴿ مِنْ عَـزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] نقـول : فلان له عـزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران] العزم : الفرض المـقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقـمان لما خـيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيـماً ، فاخـتار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قـال : يا رب إنْ كانت عزمةً منك فسـمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفـس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنهـا فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقـين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفـر مثلاً حيث يعتبـرها الإمام أبو حنيفة عـزيمة لا رخصة ، فإن أتـممت الصلاة فى

(١) قال النووى فى شـرحه لصحيـح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلمـاء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعـالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله » .

السفر أسأت[١] ، عملاً بقول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[٢] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير فى الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد فى هذا الرأى على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرضَتْ فى الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضرَ . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة فى السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى : تصعر من الصَّعَر ، وهو فى الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذى يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع فى العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشى لاوى رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

---

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية فى السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون فى الجزاء المترتب على تركه ، فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبى » [الفقه على المذاهب الأربعة ٤٧١/١] دار إحياء التراث العربى .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدِّ داء ، فهذا داء جسدى ، وهذا داء خلقى . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كُلَّ طَاغيةٍ للزَّمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

يعنى : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعْه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر فى نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره ، ومثَّلنا لذلك بـ (فتوة) الحارة الذى يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه نجده تلقائياً يعتدل فى جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التى تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذى أحسنتَ إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوى فأحسنتَ إليه ، وقدَّمْتَ له المعروف الذى قوّم حياته فأصبح لك يَدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخَلْق ، والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلى نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه ، وكأن وجود مَنْ أحسن إليه هو العقبة أمام عُلُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم إن الذى يتكبر ينبغى أنْ يتكبَّر بشىء ذاتى فيه لا بشىء موهوب له ، وإذا رأيتَ فى نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا هم به عليك ، وساعة تنظر إلى الخَلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

لذلك تروى قصة الجارية التى كانت تداعب سيدتها ، وهى تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكنى مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لن ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتى ، اذكرى أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحى - فالذى تراه أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل ، لأنه يبدى جمال الله تعالى فى طلاقة القدرة - ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبى الله بشىء من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فىَّ من أمانة التناول لك فى كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت فى أى شىء أنا جميلة .

ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

فَالوَجْه مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌّ ... والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لما اسْتجْمعَا حَسُنَاَ ... والضِّد يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ

والله تعالى يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك فى شىء ففتش فى نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك فى شىء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ولم يحابِ منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكنى

أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتىَّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق[(١)] .

ويكفى لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه فى قرآنه وجعله خالداً يُتْلى ويُتعبَّد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. ⟨١٨⟩﴾ [لقمان] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده : لا تَدْعُ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وستْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذى يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبراً متعالياً وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشْبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿لِلنَّاسِ .. ⟨١٨⟩﴾ [لقمان] تعنى : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف فى دينهم وفى رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. ⟨١٨⟩﴾ [لقمان] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشى فى الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشى مشْية المتعالى على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⟨١٥⟩﴾ [الملك]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥٢١٧/٧) : « قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض » .

فالمشى فى الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشى مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك[1] .

ورأى رجلاً يمشى مشية الشطار[2] ـ يعنى : قُطَّاع الطرق ـ فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع فى المشى .

إذن : المطلوب فى المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.. ﴿١٩﴾﴾ [لقمان] يعنى : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] المختال : هو الذى وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذى يجد مزية فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده فى الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره ، على حدِّ قول الناظم :

والسُّجُود الذِى تَجْتَويه ... من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن نسجد لكل طاغية ولكل

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٩٦/٣) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب « أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب » .

(٢) الشطار : جمع شاطر ، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثاً . قال أبو إسحاق : قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء . [لسان العرب ـ مادة : شطر] .

متكبر متجبر ، فكأن كبرياء الحق - تبارك وتعالى - فى صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام :

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعنى : توسطاً واعتدالاً ، هذا فى المشى ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] أى : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى - فأنا لا أمشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحة وغرض - وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشى إليه ناديته بصوتى .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أى التوسط فى الأمر مطلوب فى كل شىء ؛ لأن كل شىء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفى قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

وَلاَ يُقيم علَى ضَيْمٍ يُرَادُ به ... إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحيِّ والوَتِدُ

هذا على الخسْف مربوطٌ برمته وذَا يُشَدُّ فَلاَ يَرْثِى لَهُ أَحَدُ

ونعيب على الشاعر أن يصف عيرَ الحى - والمراد الحمار - بالذلة ، ويقرنه فى هذه الصفة بالوتد الذى صار مضرب المثل فى الذلة حتى قالوا (أذلّ من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى ينفلق نصفين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يغيثه أحد ، فالحمار مُسخَّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلَّل لك من الله سبحانه .

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هى مظلومة مع البشر ، فالحمار تجعله لحمل السباخ والقاذورات ، وتتركه ينام فى الوحل فلا يعترض عليك ، وتريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السِّرْج ، وفى فمه اللجام ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض .

وقالوا فى الحكمة من علو صوت الحمار حين ينهق : أن الحمار قصير غير مرتفع كالجمل مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره تلّ أو شجرة فلا يهتدى إليه صاحبه إلا إذا نهق ، فكأن صوته آلة من آلات البادية الطبيعية ولازمة من لوازمه الضرورية التى تناسب طبيعته .

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار ، فكأن نهيق الحمار كمال فيه ، وصوتك الذى يشبهه مُنكَر مذموم فيك ، وإلا فما ذنب الحمار ؟

إنك تلحظ الجمل مثلاً وهو أضخم وأقوى من الحمار إذا حمَّلته حمْلاً فإنه (ينعَّر) إذا ثقل عليه ، أما الحمار فتُحمِّله فوق طاقته فيَحمل دون أنْ يتكلم أو يبدى اعتراضاً ، الحمار بحكم ما جعل الله فيه من الغريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإنْ كانت فى طاقته قفز ،

وإنْ كانت فوق طاقته امتنع مهما أجبرته على عبورها .

أما الإنسان فيدعوه غروره بنفسه أنْ يتحمّل مَالا يطيق . ويُقال : إن الحمار إذا نهق فإنه يرى شيطاناً[1] ، وعلمنا بالتجربة أن الحيوانات ومنها الحمير تشعر بالزلزال قبل وقوعه ، وأنها تقطّع قيودها وتفرّ إلى الخلاء ، وقد لوحظ هذا فى زلزال أغادير بالمغرب ، ولاحظناه فى زلزال عام ١٩٩٢ م عندما هاجت الحيوانات فى حديقة الحيوان قبيل الزلزال .

ثم إن الحمار إنْ سار بك فى طريق مهما كان طويلاً فإنه يعود بك من نفس الطريق دون أنْ تُوجِّهه أنت ، ويذهب إليه مرة أخرى دون أنْ يتعدَّاه ، لكن المتحاملين على الحمير يقولون : ومع ذلك هو حمار لأنه لا يتصرف ، إنما يضع الخطوة على الخطوة ، ونحن نقول : بل يُمدح الحمار حتى وإنْ لم يتصرف ؛ لأنه محكوم بالغريزة .

كذلك الحال فى قول الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ⑤﴾ [الجمعة]

فمتى نثبت الفعل وننفيه فى آن واحد ؟ المعنى : حملوها أى : عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ، ولم يحملوها أى : لم يؤدوا حق حملها ولم يعملوا بها ، مثلهم فى ذلك ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ⑤﴾ [الجمعة] فهل يُعَدُّ هذا ذَمّاً للحمار ؟ لا ، لأن الحمار مهمته الحمل فحسب ، إنما يُذَمّ منهم أنْ يحملوا كتاب الله

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٠٣) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٤) .

ولا يعملـوا به ، فالحمـار مهمته أنْ يحـمل ، وأنت مهـمتك أنْ تفـقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعـتدال فى الصوت أمـر ينبغى أن يتحلى به المـؤمن حتى فى الصلاة وفى التـعبـد يُعلِّمنا الحق سبـحانه : ﴿ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً** (١١٠) ﴾ [الإسراء] أما مـا تسمـعه من (الجعـر) فى مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليـل فلا ينالنا منه إلا سخط المـريض وسخط صاحب الـعمل وغيـرهم ، ولقد تعمـدنا عمل إحصـاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسـجد هم هم لم يزيدوا شيـئاً بـ (الميكروفونات) .

كذلك الذين يرفعون أصواتهم بقراءة القرآن فى المساجد فيشغلون الناس ، وينبـغى أن نترك كل إنسـان يتـقرب إلى الله بمـا يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلى ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يـستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ فى كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟

بعد أنْ عـرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمـان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كونى جديد :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار فى

التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر .. إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس فى يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها .

ولا نفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحى لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذى خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا واضح فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السموات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء فى الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدْتَ طيراً وحبسته فى قفص ومنعته من أنْ يطير فى السماء وتريد أنَ تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ فى صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راض عن بقائه معك باللقمة التى يأكلها أو المكان الذى أعددتَهُ له ، وإنْ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أنْ تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما مَرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه

أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتـراه عمر وصار فى حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبى الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها فى خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] أى : دروعاً ساترة محكمة تقى لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تتزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوِى أن لقمان رأى داود - عليه السلام - يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادره بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نِعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله[1] فظلَّت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة

---

(١) أخرج العسكرى فى الأمثال والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله ، فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتنى .

حياتكم ، ويمدكم دائماً بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شئ ، لا فى استبقاء الحياة ، ولا فى استبقاء النوع ؛ لأن الذى خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

أما إذا رأيتَ قصوراً فى ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق فى أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هى آفة العالم فى العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها فى البحر ، وأتلفوها فى الوقت الذى يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس فى أنه لا يجد ، إنما فى أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات الله تعالى فى كونه . فقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرَّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم فى أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله فى جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله علينا فى أنفسنا وفى الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ ظَاهِرَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : التى ظهرتْ لنا ﴿ وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] لم نصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل فى نفسك مثلاً الكليتين وكيف تعمل بداخلك وتصفى الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها ، وأول ما فكر العلماء فى عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

وقالوا : إن الفشل الكُلَوى عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل فى الوقت المناسب يعنى المائة الأولى أدَّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تتنبه المائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشرى أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها .

أما النعم الباطنة فمنه ما يُكتشف فى مستقبل الأيام من آيات ونِعَم ، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار .. إلخ .

كلها نِعَم ظاهرة لنا الآن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمى والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله تجده حوالى ٣٪ ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمه فى كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن ما وضعه الله فى الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ؛ لأنه باق ببقاء الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

وفى الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتى فى الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأُريكم الآيات الكبرى التى أعددتها لكم فى الآخرة .

ففى الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم فى الدنيا تعيشون بأسبابى ، أما فى الآخرة فأنتم معى مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا .. إلخ .

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونعَمه مطمورة فى كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله فى كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله فى كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى فى كونه .

وفى هذا إشارة ومقدمة لأنْ نؤمن بالغيب الذى أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نعَمه التى كانت مطمورة فى كونه فينبغى علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

---

(١) من هذا قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] أى : كالزرع المحصود . أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

واقرأ فى هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذى ليس له مُقدِّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتى بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله فى جنة الله .

وقد حاول العلماء أن يُعدِّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا فى الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد فى سبيل الله تُعدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود .. الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ .. (١٢)﴾ [الأنفال]

والرسول ﷺ يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : « للمؤمن ثلاثة هى له وليست له - يعنى ليست من عمله - أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصى به - يعنى : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حىٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شىء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذى

شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف فى ثلث ما لك توصى به لتُكفّر به عن سيئاتك وتُطَهر به ذنوبك ـ أما الثالثة : أن الله تعالى ستر مساويك عن خَلْقه ، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك »[1] .

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أىَّ إنسان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفوا غيبك ؟ فلا شكَّ فى أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبى ﷺ يوضح هذه المسألة فى قوله : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » يعنى : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على ما فى قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضى أنْ يعاملك الناس بالمثل ، فيتتبعون عوراتك ، ويبحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تُزهِّدهم فى كل

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] قال : أما الظاهرة فالإسلام وما سوَّى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه . وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك ، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن . صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجعلت له ثلث ماله أكفر عنه من خطاياه ، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشىء منها ، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم » أخرجه ابن مردويه والبيهقى والديلمى وابن النجار . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٢٥]

حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾ [لقمان]

المجادلة : الحوار فى أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمى ، وهذا يكون موضوعياً لا لَدَدَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه نقابل الرأى بالرأى ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أما الجدل الذى يريد فيه كل طرف أنْ يُعلى رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شىء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أى الفَتْل ، والشىء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأى فى الجدل يُقوِّى الرأى الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلى رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من أَلفَ الجدل فى الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً فى جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق القوانين ، ثـم تركها تعـمل فى الكون وتُسيِّره ؟ كـأن الله تعالى زاول سلطانه فى الملْك مرة واحدة .

ومعلوم أن الله تعالى قيُّـوم أى : قائم على أمر الخَلْق كله فى كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المـعجـزات التى خرقتْ النوامـيس لتدلّ على صِـدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، كـما عـرفنا فى قصـة إحراق إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فلو أن المسـألة إنجاء إبراهيم من الـنار لما مكّنهم الله منه ، أو مكّنـهم منه ومن إلقائـه فى النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفئها .

لكن أراد سـبحانه أن يشـعلوا النار ، وأنْ يُلقـوا بإبراهيم فيـها ، ومع ذلك يخـرج منها سـالماً ليـروْا بأعينهم هذه الـمعجـزة الخـارقة لقـانون النار ليكبـتهـم الله ، ولا يعطيهم الفـرصـة ليـخدعـوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيـم من قـبـضـتـهم لوجـدوا هذه الفـرصـة ولقـالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ۝ ﴾ [لقمان] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهى واقـعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليهـا ، فإنْ كانت القضـية التى تؤمن بها غير واقعة ، فهـذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضـع فى مقابل العالم ؛ لأن الـجاهل لديه علم بقـضية لكنـها باطلة ، وهذا يتـعبك فى الإقناع ؛ لأنه ليس خـالى الذهن ، فـيحـتاج أولاً لأنْ تُخـرج من ذهْنه القضية الباطلة وتُحل محلها القضيـة الصحيحة ، أما الأُمىِّ فهو خَالى الذِّهن من أى قضيةَ .

فإنْ كانت القضية التى تجـزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذى علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ فى ذهنه هذه المـسألة ؛ لأن أباه أو مـعلمه لقَّـنه هذه القضـية حـتى أصبـحتْ

عقيدة عنده ، فالذى يُدلِّل عليها مَنْ لقّنها لـه إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهى الذى نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمثلاً حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا .. الخ .

وإذا نظرتَ إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بُدَّ عائد إلى النظرية الأولى وهى بديهة تقول : إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فأعقد النظريات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بدهى منثور فى كون الله ، المهم مَنْ يلتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائلَ من ورائه .

ومعنى الهدى : أى الاستدلال بشىء على آخر ، كالعربى الذى ضَلَّ فى الصحراء ، فلما رأى على الرمال بَعْراً وأثراً لأقدام استأنس

بهـا ، وعلم أنـه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمـرَّ بـه أحـد ، فلمـا عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال[1] :

البعـرة تدل على البعيـر ، والقدم تدل على المـسير ، سـماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجـاج ، نجوم تزهر ، وبحـار تزخر[2] .. ألاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فـالإنسـان حـيـن ينظر فى الكون وفى آياتـه لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخـالق عز وجل ، فما كان لهـا أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه مـمَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التى نراها لا يمكن أن توجـد هكذا بدون صانع ، فـمثـلاً الكوب الذى نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر فى الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً[3] أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعـد بحث العلماء فى عناصر الوجـود ، أيها يمكن أنْ يعطينى هـذه الزجاجـة الشـفافـة ، فوجـدوا أنهـا تُصنَع من الرمل بعد صَهْـره تحت درجة حرارة عالية ، فـهذا الكوب الذى يمكن

---

(١) هو : قس بن سـاعدة بن عـمرو الإيادى ، أحـد حكمـاء العرب ، ومن كـبار خطبـائهم فى الجاهلية ، كـان أسقف نجران ، طالت حياته وأدركه النبى ﷺ قـبل النبوة ، ورآه فى سوق عكاظ . توفى نحو ٢٣ ق هـ . [الأعلام للزركلى ١٩٦/٥] .

(٢) هـذا الجزء من خطبة خطبها قس فى سوق عكاظ : أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مـات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات .. إن فى السـماء لخـبراً ، وإن فى الأرض لعـبراً ، ليلٍ داج ، وسـماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . [ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة ١٠٨/٢] .

(٣) العب : شرب المـاء من غير مصٍّ . وقـيل : أن يشرب الماء ولا يتنفس . [لسـان العرب ـ مادة : عبب] .

أنْ نستغنى عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلماً .. إلخ .

فما بالك بالشمس التى تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملَّ أو تتخلف يوماً واحداً ، وهى لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ، أليست جديرة بأنْ نسأل عمَّنْ خلقها وأبدعها على هذه الصورة ؟ خاصة وأنها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكاناتنا .

هذه هى الآيات التى نأخذها بالأدلة ، لكن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بى إلى هذا الخالق : مَنْ هو ، وما اسمه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدَّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التعقُّل والتصوُّر ، والذى أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما ، فالتعقل أن أنظر فى آيات الكون ، وأرى أن لها موجداً ، أمّا التصور فبأنْ أتصور هذا الموجِد : شكله ، اسمه ، صفاته .. إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل ، إنما بالرسول الذى يأتى من قِبَل الإله الموجد .

وسبق أن ضربنا مثلاً ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ قلنا : لو أننا نجلس فى مكان مغلق ، وطرق الباب طارق ، فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا خلاف فى هذه ، لكن نختلف فى تصوُّره ، فواحد يتصور أنه رجل ، وآخر يقول : طفل ، وآخر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً .. إلخ .

إذن : اتفقنا فى التعقُّل ، واختلفنا فى التصور ، ولكى نعرف مَن الطارق فعلينا أن نقول : من الطارق ؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا

مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهى لنا هذا الخلاف .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعداً لتلقِّى هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثَّلْنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذى لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى فى الماديات لابد من قوى يستقبل ليعطى الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلِّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وإلا لو كلَّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربى بمحمد لكان محمد أوثقَ عندى من ربى ، ولو عرفتُ محمداً بربى ، فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد ، فبلَّغنى مراد ربى منى . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا فى القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة فى قوله تعالى عن سيدنا موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَن تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُكَ الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ فى الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وفى المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة اندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّى عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّى سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربى الذى رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد ﷺ أمته فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفى الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولا بُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه .. إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذى يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله فى العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة فى أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ومركوز فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه آدم - عليه السلام - لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجِد الإنسان ، وهذه الذرة فى كل منا هى التى شهدتْ الفطرة ،

وشهدتْ الخلقَ ، وشــهدتْ العهد الذى أخذه الله علينا جمـيعاً ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فإنْ حـافظـتَ على إشراقـية هذه الذرة فيك ، ولم تُـعرِّضـهـا لما يطمـس نـورها ـ ولا يكون ذلك إلا بالســيـر على منهـج خـــالقـك وبنـاء لبنات جـسـمك مـما أحل الله ـ إنْ فـعلتَ ذلك أنار الله وجـهك وبصيرتك .

لذلك جـاء فى الحـديث أن الـعبـد يـشكو : يقـول « دعـوتُ فلم يُستجب لى ، لكن أنَّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام؟ »(١) كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتـها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

فـالمـعيـشـة الضنك والعـيـاذ بالله تأتى حـين تنطمس النورانيـة الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشـراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله ، وشـهدتْ له بالربوبيـة ، ولو حافظت عـليهـا لظلّتْ كل التعـاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشـة الضنك ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] أى : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

والحق سـبحـانه يوضح لنا مـا يطمس الفطرة الإيمـانية ، وهمـا

---

(١) أخرجـه مسلم فى صحيـحه (١٠١٥) عن أبي هريرة قال قـال ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المـرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السمـاء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومـشربه حرام وملبسـه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟ » .

أمران : الغفلة والـتى قال الله عنها : ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] والقـدوة التى قال الله عنهـا : ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فـالذى يطمس الفطرة الإيمـانيـة الغـفلة عن المنهج ، هذه الغـفلة تُوجِد جـيلاً لا يتـمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العـقبـة فى الجيل الأول الغفلة ، لكن فى الأجيال اللاحقة الـغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضى الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالى الحق سبـحانه إرســال الرسل ليزيح عن الخَلْـق هذه الغفلة ، وليـوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَـنْ أراد أنْ يجادل فى الله فليـجادل بعلم وبهـدى وبكتاب منـير مُنزَّلٍ من عند الله ، ووَصْفُ الـكتاب بـأنه منيـر يدلُّنا على أن الكتـاب المنسوب إلى الله تعالى لا بُدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان .. إلخ .

وقد أوضـح الله تعالى هذه المـراحل فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

ثم : ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ .. (١٥٩)﴾ [البقرة]

وإن كان الإنسان يُعـذَر فى النسيان ، فلا يُعـذَر فى الكتمان ، ثم الذى نجا من النسيان ومن الكتمان وقع فى التحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلقوا من عند أنفســهم كلاماً ، ثم نسـبوه إلى الله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩)﴾ [البقـرة] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها فى اليهود .

إذن : فالكتب التى بأيديهم لا تصلح للجدل فى الله ؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذى يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل فى الله فليجادل بناء على علم بدهىٍّ أو هدى استدلالى ، أو كتاب منير . والكتب المنزَّلة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر[1] الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى - عليهم جميعاً السلام - وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التى شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التى كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهى أقسى شىء فى تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هى التى منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته فى بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه ﷺ خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم .. (٢٠)**﴾ [الأنعام]

ويقول عنهم : ﴿**وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)**﴾ [البقرة] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

---

(١) الزُّبُر : جمع زبور ، وهو الكتاب . زَبَر الكتاب يزبره : كتبه فهو مزبور ، وزبور : أى مكتوب . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ويحكى القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبى جديد نسبقكم إليه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التى كانت لهم ، والريادة التى أخذوها فى العلم والاقتصاد والحرب .. إلخ ، لقد كانوا يُعِدُّون واحداً[2] منهم لِيُنصِّبوه ملكاً عليهم فى المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دخلها رسول الله لم تَعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله ، فرفض هذا الملك الجديد .

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير ، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التى تحميها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبى الخاتم ، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام ، ولم تكن معجزة فى ذاتها ، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج ، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد .. إلخ وكتابه ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل .

أما محمد ﷺ فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ، ومنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أبىٍّ التاج . ونملكه علينا . [أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٠٠)] .

ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الخاتمة ، فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول : هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ، ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذى يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً : هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نَرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة فى ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب فى هذه الكتب .

يقول تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ** .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعنى : طلبتُ منك حفْظه ، مثل : استفهمتُ يعنى طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت .. إلخ .

فلما جُرِّب الخَلْق فى حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن ، وقال : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩) ﴾ [الحجر]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال فى أول سوره ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق فى التاريخ إلا القرآن .

والعجيب فى مسألة حفْظ القرآن أن الذى يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التى لك على خصمك ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فقد ضمن حفْظ القرآن ، والقرآن ينبىء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شىء فى الكون أبداً يناقض كلام الله فى القرآن : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم فى أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتى اختيار الخَلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم فى كون الله إلا ما أراد .

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل فى الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر فى الآيات الكونية ، وفى البدهيات التى تثبت وجود الخالق عز وجل ، ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر فى المعجزة التى جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو فى شدة الحصار الذى ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر .. إلخ.

ألم يُخبـر القرآن فى هذه الأثناء بقـوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] حتى أن سـيـدنا عمر ليتعـجب : أىُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه مـا حاق بالكفار قـال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

ألم يقل القرآن عـن الوليد بن المغـيرة[1] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] وفعلاً ، لم يعرفـوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خـرطومه[2] . ألم يُبشـرْ رسول الله قـبل المـعركـة إلى مصـارع القوم ، فيـقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مـصرع فلان ، وهذا مصرع فلان[3] ، ثم تأتى المعركة ويُقتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ﷺ .

والحق سبحـانه أعطانا فى القرآن أشياء تدل علـى أنه كتاب يُنوِّر لنا المـاضى ، ويُنوِّر لنا الحـاضر والمسـتـقبل . وسـبق أنْ قُلْنا : إن

---

(١) قال ابن حجـر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختلف فى الذى نزلت فيه ، فـقيل هو الوليد بن المغيرة وذكـره يحى بن سلام فى تفسيره ، وقيل : الأسود بن عبـد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى » .

(٢) عن ابن عبـاس فى قوله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] قال : رجل من قـريش كانت له زنـمة زائدة مـثل زنـمة الشـاة يعرف بها . قـال السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٤٩) : « أخرجه البخارى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم » وعن ابن عباس أيضاً فى قوله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] : قاتل يوم بـدر فخطم بالسيف فى القـتال . ولم يذكر أنه الوليد بن المغيرة .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيـحه (١٧٧٩) من حديث أنـس رضى الله عنه ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مـصرع فلان » ويضـع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضـع يد رسول الله ﷺ .

الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضى ، وما سيحدث فى المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذى تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون فى نفس المكان وتجلس معى ، لكنك لا تعرف ما فى صدرى مثلاً .

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فمثلاً فى غزوة مؤتة[1] لما بعث النبى ﷺ جيشه إليها ، وبقى هو فى المدينة قال : حين وزَّع القيادة : يحمل الراية فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال : فإذا قُتِل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها[2] .

وجلس النبى ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبى ﷺ وهو فى المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر فى تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتى شهدها رسول الله بنفسه ، أما التى لا يخرج فيها فتسمّى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور فى المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

(١) وقعت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى عام ٨ هجرية ، ومؤتة : قرية من أرض البلقاء من الشام ، وتسمى أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة ، استشهد فيها جعفر ابن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قاتلوا فيها الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/٣٦٦) وفيه أن رسول الله ﷺ نعاهم قبل أن يجىء الخبر .

في نفوس قومه[1] : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧﴾ [المجادلة]

هذه كلها من آيات الإنارة في القرآن التي استوعبتْ الماضي والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ㉑﴾

كلمة ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ㉑﴾ [لقمان] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شيء في معناها أن نقول : اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو : يكون المعنى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ㉑﴾ [لقمان] أي : تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

لكن يأتي ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ㉑﴾ [لقمان] وفي آية أخرى ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ١٧٠﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤/٣٢٣) : أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا فقال الله تعالى : ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑧﴾ [المجادلة] .

فما الفرق بين (وجدنا) و (ألفينا) وهما بمعنى واحد ؟ قالوا: لأن أعمار المخاطبين مختلفة فى صُحْبة آبائهم والتأثر بهم ، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة ، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتى ألف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال القرآن مرة (أَلْفَيْنَا) ومرة (وَجَدْنَا) .

والاختلاف الثانى نلحظه فى اختلاف تذييل الآيتين ، فمرة يقول : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة أخرى يقول : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

فما الفرق بين : يعقلون ويعلمون ؟

الذى يعقل هو الذى يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطى عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل ؛ لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ) .

إذن : إذا نُفى العقل لا يُنْفى العلم ؛ لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفى البسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذى بين يديه ، إنما تعلَّمه من الذى يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ؛ لذلك فنَفْى العلم دليل على الجهل المطبق الذى لا أملَ معه فى إصلاح الحال .

ونلحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٢١) ﴾ [لقمان] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فقولهم : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

فيه دلالة على إمكانية اتباعهم للحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿حَسْبُنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ولا نريد غيره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ؛ لذلك فى الأولى نفى عنهم العقل ، أما فى الأخرى فنفى عنهم العلم ، فعَجُز الآيات يأتى مناسباً لصدرها .

وهنا يقول تعالى فى تذييل هذه الآية ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان ، فالشيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم .

وهذا يدلنا على أن منافذ الإغواء مرة تأتى من النفس ، ومرة تأتى من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج فى نفس المؤمن .

وسبق أنْ بينَّا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التى تأتيك من قبَل الشيطان ، والتى تأتيك من قبَل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، فإذا تأبيْتَ عليه فى ناحية نقلك إلى ناحية أخرى .

أما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شىء بعينه ، ويصعب عليها أنْ تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفضلها ؛ لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفوس ؛ لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف فى الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا .

لكن نرى الكثيرين ممن يقعون فى المعصية يُلْقون بالتبعة على

الشـيطان ، فيـقول الـواحد منهم : لقـد أغوانـى الشيطان ، ولا يتـهم نفسه ، وهذا يكذِّبه الحديث النبوى فى رمضان :

« إذا جـاء رمـضان فُـتـحت أبواب الجنـة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »(١) .

فلو أن المـعاصى كلهـا من قِبَل الشيطان مـا رأينا معـصيـة فى رمضان ، ولا ارتـكبت فيه جريمـة ، أما وتقع فيه المـعاصى وتُرتكب الجـرائم ، فلا بُدَّ أن لهـا سببـاً آخر غـير الشـيطان ؛ لأن الشيـاطين مُصفَّدة فيه مقيدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجـدل بغيـر علم ، وبغـير هدى ، وبغيـر كتـاب منير ، فـعليه أنْ يُسلم وجـهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] ثم استثنى منهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] أخلص وجـهه فى

(١) أخرجه مسلم فـى صحيحه (١٠٧٩) ، والإمام أحمـد فى مسنده (٢/٣٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عبادته لله وحده ، وبذلك يكون فى معية الله ، ومَنْ كان فى معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذى ينجيك من الشيطان أنْ تُسلِم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير فى صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدى عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلَم منه بحال ، كذلك العبد إنِ انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً فى قوله سبحانه : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وهنا قال ﴿إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان] فما الفرق بين حرفى الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعنى الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان] يعنى : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدى ما افترضه عليك .

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شىء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »(١) .

والنبى ﷺ ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته كما تحمَّل الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أى : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً .

﴿ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] كلمة استمسك تدلُّ على القوة فى الفعل والتشبُّث بالشىء ؛ كما نقول (تبِّت فيه) ، وهى تعنى : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسك إنما (استمسك) .

وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشدّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت فى الاستمساك به

---

(١) قال سفيان بن عيينة : كان من دعاء مطرف بن عبد الله : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢/٢٠٧) .

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا يُنجيك من الهلاك ، ولا واقىَ لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذى يُسلِم وجهه لله ويُمسِك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

وكلمة ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢) ﴾ [لقمان] العروة : هى اليد التى نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهى التى تفرق بين الكوب والكأس ، فالكأس لا عروة لها ، إلا إذا شُرب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢) ﴾ [لقمان] أى : المحكمة ، وهى تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهى تعنى الشيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهى وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهى وُثْقى بالكوب ، فهى الموثقة التى لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌّ ، جاءت ضعيفة هشَّة ، بمجرد أنْ تمسك بها تنخلع فى يدك ، وهذا ما نسميه « الغش التجارى » وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشترى ، ثم يكون المعوِّض فى ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى فى السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن : إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفى موضع آخر يقول الحق عنها ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] فالعروة الوُثْقى هى حبل الله المتين الذى يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك فى الاصطلاح نسمى الفتحة فى الثوب والتى يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هى التى تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفى آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] أى : مرجعها ، فلا نظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذى آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أى : فى الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك فى الدنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لابُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجرى هذا المبدأ فى دنيانا ، فلماذا نستنكره فى الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذى خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوَّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَملاً يستشرى فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هى العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شيء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّي رسوله ﷺ فقال : ﴿وَمَن كَفَرَ .. ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان] أى : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان]

وهذا القول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف] ويقول : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله فى هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ① ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] يعنى : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم فى الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم فى الآخرة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. ٧٧ ﴾ [غافر] أى : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٧٧ ﴾ [غافر]

إذن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] هذه هى الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُريك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم وانكسارهم وذلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النبى مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطىء رأسه[2] بأدب وتواضع ؛ لأنه

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) : « اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة (التحريم) فقيل : نزلت فى شأن مارية ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، فعن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير فقال : لن أعود له ولا تخبرى بذلك أحداً » أ هـ بتصرف .

(٢) يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، (أى : أنه كان متعمماً بنصف برد من برود اليمن ، عمامة بغير ذؤابة) ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل » . والعثنون : هو ما نبت على الذقن وتحته سفلاً . وقيل : هو طولها وما تحتها من شعرها .

يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون المُلْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعِزّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة : « يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ .. (٢٣)﴾ [لقمان] إلى صيغة الجمع في ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. (٢٣)﴾ [لقمان] ولم يقل : إليَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ في اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

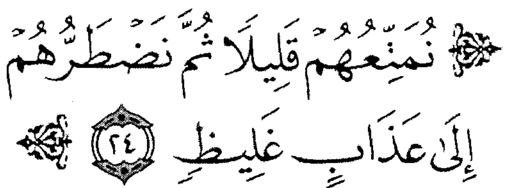
وقوله تعالى : ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا .. (٢٣)﴾ [لقمان] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. (٦)﴾ [المجادلة] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣)﴾ [لقمان] أى : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكى عملى أو قَوْلى ، فالله يعلم ما يختلج في صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و ﴿عَلِيمٌ .. (١١٩)﴾ [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات علْمها ذاتى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٢/٤) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم يقول الحق سبحانه :



الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم فى حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشىء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل فى مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّى ، والداخل فى مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل فى سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك رُوِى أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت فى يده[١] ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمِع منهم فى ساحة القتال أنْ ينادى أحدهم : هُبِّى يا رياحَ الجنة ، وآخر يقول : إنى لأجد ريح

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) .

الجنة دون أُحُد[1] .

فقوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان] هذا التمتُّع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ فى هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدى نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أى : لصالحك ، أمّا فتح عليك أى : أعطاك الدنيا لتكون حِمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيتَ لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم أنهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد فى الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل فى سَعَة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأخْذُ الكافر وهو فى أَوْج قوته وجبروته يدل

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إنى أجد ريحها من دون أحد » الحديث .

على قوة الأَخْذ وقدرته ، أما الضعيف فلا مزيّة فى أَخْذه ، كالذى يريد أنْ يحطم الرقم القياسى مثلاً ، فإنه يعمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته تحدَّى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وفن الأداء البيانى ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيّياً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿ نَضْطَرُّهُمْ .. (٢٤) ﴾ [لقمان] نلجئهم أى : نُضيِّق عليهم الخناق ، بحيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء فى الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ ولو إلى النار »[1] .

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان] والغلظ يعنى السُّمْك ، فالمعنى أنه عذاب كبير يصعب قلقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾

---

(١) فى صحيح مسلم من حديث المقداد بن الأسود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً »» التذكرة للقرطبى ص ٢٧٤ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان] أى : الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن فى معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصْمك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول : الحمد لله أى : الذى نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطرق نقول : الحمد لله أى : الذى خلصنا من شرِّه ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُردُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول - إنْ شاء الله - فى الآخرة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ [فاطر]

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرِجك مما كنتَ فيه

من الضيق ، ومن الهمِّ ، ومن الحزن ، وتقال حين ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَمْد على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى : ألم تقرأ الحديث القدسى : « إن الله يتجلى على خَلْقه المؤمنين فى الجنة فيقول : يا عبادى ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ؟ قال : أُحلُّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »[1] فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت فى الحمد مع النعمة ، وأنت الآن فى الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] أى : العلم الحقيقى ، النافع ، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو : يعلمون العلم الذى يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشىء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شىء فينبغى أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شىء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون مِلكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما فى الأرض ولما فى السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنىٌّ عنها لا يستفيد منها بشىء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنىٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزِدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٢٦) ﴾ [لقمان] أى : الغنى المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا الملْك فى السموات وفى الأرض ، بل جاء فى الحديث القدسى أن السماء والأرض بالنسبة لملْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التى نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنىُّ الغِنَى المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غنى عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله فى خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

---

(١) عن أبى ذر الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى ، فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (١/١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] منْ : هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بينَ أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين فى كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ ⑤ ﴾ [الرحمن] أى : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ ﴾ [الرحمن] أى : فى خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم فى معنى ، ويؤدى معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُرَاعِى النجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ   ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوادِى

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدى به فى سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتى بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. ㉗ ﴾ [لقمان] أى : يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْر له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً فى هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ⑩⑨ ﴾ [الكهف]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. ㉗ ﴾ [لقمان] لا يُراد به العدد ،

إنما يراد به الكثرة كما فى قوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ.. (١٢)﴾ [الطلاق] فهذه فى مجرتنا الشمسية ، فما بالك بالسموات فى المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هى كل ما علاك فأظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التى تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبينّا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين فى مسألة تعدد الزوجات ، فالعدد يعنى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أنْ يُنهى التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أنْ يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات[1] .

وكان عند رسول الله فى هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنَّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند أمته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله فى العدد ، أم فى المعدود ؟

نقول : استثناه فى المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه فى آية أخرى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

---

(١) أخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال لرجل من ثقيف ، أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفى : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » ووصله الترمذى فى سننه (١١٢٨) من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ أمره أن يتخير أربعاً منهن ، وسمَّى الرجل « غيلان بن سلمة الثقفى » .

إذن : لم يستثنه فى العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتى بغيرهن .

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء فى المعدود لا فى العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبى ﷺ إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبى ﷺ أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أُمر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، فى حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله فى هذه المسألة فى حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبى كُنَّ كبيرات فى السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن فى مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسْمها فى البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف[1] .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيَّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكالَ فى العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول فى المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة . وللمثنى المذكر : اثنان ،

---

(١) فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ، وقد وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنها فى مقابل ألا يطلقها رسول الله ﷺ ، قائلة للنبى ﷺ : « أبقنى يا رسول الله وأهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء » . الإصابة لابن حجر (٨/١١٧) .

وللمؤنث : اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم . وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهى الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ... إلخ فالعدد نفسه مبنىٌّ على التاء ، وليست هى تاء التأنيث ؛ لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل فى الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التى تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول : اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة .. وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذى يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهى أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التى يتكون منها جميع الأعداد .

وما دام الله تعالى قال : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثانى الشفع ، وخمسة ثانى

الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم فى أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر]

أما فى الجنة فيقول سبحانه : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو فى الثانية ، ولم تُذْكر فى الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] فى الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن فـ : ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتى فى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما فى الجنة فذكر

الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[1] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[2] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] أى : يُجعل مداداً لكلمات الله ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] كلمات الله هى السبب فى إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فكل مراد من شىء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغى أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشىء وهو لم يُخْلق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة فى الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] هى كن وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ في العجيب من أمر عيسى عليه السلام : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. (١٧١) ﴾ [النساء] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق

---

(١) القانت : المطيع الذاكر لله تعالى العابد . والقانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) السائحات : الصائمات . وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد . [لسان العرب ـ مادة : سيح] .

الطبيعى فى خَلْق البشـر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفســه طلاقة القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليـه السلام ، ومـرة يخلق بأم دون أب كـما خلق عـيسى عليـه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء . إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

إذن : مع طلاقة القـدرة لا اعتـبارَ للأسبـاب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مـثلاً قطرة الماء ، فـعليك أنْ تأتى بالأكـسوجين والأيـدروجين بطريقـة معيـنة ليخـرج لك الماء وإلا فـلا ، أما الخالـق - عز وجل - فيـخلق بالأشياء وبدون شىء ، لأن الأشيـاء بالنسبة لله تعـالى ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هى فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] والعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ويَقْـهر ولا يُقهـر ، ولا يستدرك أحـد على فعله حتى لو كان مخالفاً لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت فى هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة] إلى أن يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

والمنطق العـقلى يقتـضى أن نقول فى عـرف البشر : فـإنك أنت الغفور الرحيم ، فـالمقام مقام مغفرة ، لكن عـيسى عليه السلام يأتى

بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد .

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخَّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن فى الأرض له مهمة ، هذه المهمة هى شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة فى الكون ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ .. (٨٦)﴾ [الكهف] أى : فى رأى العين ، وإلا فهى لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة فى مكان ، وتشرق على جماعة فى مكان آخر .

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]

ولا يُفوَّض إنسان فى أنْ يُعذِّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)﴾ [الكهف] أى : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه فى أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوِّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذى يضبط استطراق النِّعَم فى الكون كله .

فالذى خُيِّر فى أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه فى أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف] أى : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغرى غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا فى الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أَوْلى فى أمور الدين والقيم التى تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى

الظلم واغتال الناس ، وقضى عليهم ، وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق - تبارك وتعالى - يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا فى هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم فى ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره فى كتاب ودين سماوى ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا فى أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥)﴾ [البقرة]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهى طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدَّة للتناول رفضوا عطية الله لهم ، وطعامه الذى أُعدَّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ..(٦١)﴾ [البقرة] ، فقال لهم : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..(٦١)﴾ [البقرة]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن

---

(١) المصر : واحد الأمصار . ومصَّروا الموضع : جعلوه مِصْراً . وقال الليث : المصر فى كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفىء والصدقات . [لسان العرب - مادة : مصر] .

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشكِّكون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست فى هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزئيات الأول ، فإذا كان هناك بعث أتُبعث هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهى نقص فى الآخر والعكس . هذه هى شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شىء فى الوجود يعطى قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعنى هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففى فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما فى فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهى فترة الثبات .

فالشخص الذى نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هى هى ؟

إذن : المسألة فى تكوين الجسم ليست ذرات وجزيئات ، إنما هى شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهى الستة عشر عنصراً التى تكوِّن جسم الإنسان ، والتى تبدأ بالأكسوجين وتنتهى بالمنجنيز ، وهى نفس العناصر المكوِّنة لتربة

الأرض التى نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [ق] يعنى : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا من الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور .. إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو .

ومن القضايا التى أثاروها فى مسألة البعث والالتباسات التى يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتى تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التى كان عليها ، فلم يكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هى : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خطِّه بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

إذن : فزمن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل ، وتذكرون أنه فى الماضى كانت الشوارع تضاء بمصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل فانوس ليشعله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهى بقوتك أنت لتحسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ؟ إنها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن .

ولمَ تستبعد هذا فى حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ؟ ألستَ تجلس فى مثل هذا المجلس فترانا جميعاً مرة واحدة فى نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ؟ ألستَ تقوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفعل جوارحك لك بمجرد أنْ يخطر الفعل على بالك ؟ أتفكر أنت فى العضلات التى تحركتْ والإشارات التى تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة حين قارنَّا حركة الإنسان فى سلاستها وطواعية الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدى حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك فى الأشياء ، فهل تستبعد فى حق الله أنْ يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقولها ؟ نقول : نعم أنت تفعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشياء ليست

منفعلة لك أنت ، إنما هى مُسخَّرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كونى مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست فى مقدورى أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هى كُنْ لنا جميعاً .

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فالله يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نوزع فيها جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون فى الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرى بى[1] .

إذن : فهو محمول على قدرة أخرى ، فالفعل لا يُنسب إليه إنما إلى حامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن ، فإذا كانت القوة قوة الحق - تبارك وتعالى - فلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه فى مسألة الخَلْق والإعادة : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (٢٨) ﴾ [لقمان]

فالأمر يسير على الله ؛ لأن خَلْق النفس الواحدة وخَلْق جميع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادى مثلاً ، فأنت تأتى باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه فى درجة حرارة معينة فيتحول تلقائياً إلى الزبادى الذى تريده ، فهل جلستَ أمام كل

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه - (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

علبة تُحوِّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة فى هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وأن تجرى عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حلَّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فى وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً فى وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾ [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة فى نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسَمْع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)﴾

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم . [شرح نهج البلاغة ـ للشريف الرضى ـ طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] .

هذه آيات كونية واضحة مرئيـة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ، ، فـالحق سبـحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونـهار ، لكنه ليس توزيعـاً متسـاوياً (ميكانيكـياً) ، بحيث يـكون كل منهمـا أربعاً وعشـرين ساعة ثابتـة على التقدير الجـبرى كمـا يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مـثلاً عن الأربع وعشـرين ساعة عدة دقـائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يومـاً وربع يوم عن طـريق الجـبر ، فـكل ثلاث سنين نجبر الرابعـة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبـيسة أى : طويلة ، فالتى تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شهر فبراير فى هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لنعوض اليوم .

وكلمـة يوم تعنى الليـل والنهـار ، لكن القـسمـة بينهـمـا ليـست متـساوية ، فالحق ـ تبارك وتعـالى ـ بصنعته الحكيـمة أراد أنْ يُوزع الحـرارة والبـرودة على كل مناطق المـعـمـورة ، ويعطى لكل منطقـة ما تحتاجه لتنبت أرضـها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الخريفى .

لذلك ، عرفنا أخيـراً أن الخالق سبحانه جعل لمـحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣,٥ درجة عن مستوى مدارها فــهى إذن غير مستوية ، ففى فصل الشتـاء يكون القسم الكبير منهـا مواجهاً لليل ، والآخر مـواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتـاء أقصى مـا يمكن من الطول وهو ١٢ ساعة فـى شهر كـيهك ،

حتى أن الفلاحين يقولون فى كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك فى فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففى الحادى والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفى ، وفى الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوى ، ثم الاعتدال الربيعى فى الحادى والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفى فى الثانى والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفى الاستواء الربيعى والاستواء الخريفى تجد أن الليل مساوٍ للنهار ، وجوّهما معتدل لا حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩)﴾ [لقمان] يعنى : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل فى النهار ، أو جزءاً من النهار فى الليل ، فيزيد فى أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمقوِّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط فى الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار - وهى قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية - فإن لليل مهمة فى الحياة وللنهار مهمة ، كما بيَّن لنا سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحى ، وفهمنا قول رسول الله : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة فى حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل جعل فى حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغى أن نتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر فى الكون ميلاداً يولد فيه ، ونثر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التى عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التى لم تصدقها العقول حتى فى العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التى تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] ومعنى خلفة يعنى : يخالف أحدهما الآخر ويأتى بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة فى بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خِلْفة لشىء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خِلْفة للنهار ، وفى المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خِلْفة لشىء قبله .

إذن : لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢)﴾ [الفرقان] أى : من بداية الخَلْق وهما خِلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل فى وقت واحد ، فلما تحركت الأرض فى دورانها صار كل منها خِلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون فى الثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التى تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم فساد هذا التأويل .

وفى الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعنى اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس وجدوا

أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

ومن عجائب اليوم فى هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤ يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوى ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآنى فى الانتقال من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] إلى الماضى ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ففى الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩)﴾ [لقمان] أى : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمى العمر النهائى : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أىُّ عظمة هذه فى كوكب مضىء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبنى على التسخير القهرى الذى يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة فى الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التى تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

وفى هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢٩)﴾ [لقمان] وفى مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢)﴾ [الرعد] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك فى سورتى فاطر (١٣) والزمر (٥) ، ولكل من الحرفين معنى : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ .. (٢٩)﴾ [لقمان] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٣)﴾ [فاطر] أى : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله فى قوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذى يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة فى السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التى عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضىء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا الشبه :

شبَّهْتُها بالبدرِ فَاسْتَضْحكتْ وقابَلَتْ قَوْلِى بالنُّكْرِ

أى : تكلفت الضحك

وَسفَّهَتْ قولى وقَالَتْ متَى سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هى حين تقول :

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْن كَما أَرْنُو ولاَ يَبْسِمُ عَنْ ثَغْر

ولاَ يُميطُ المرْطَ عن نَاهدٍ ولا يشدُّ العقد فى نَحْر

مَنْ قَاسَ بالبَدْر صَفَائى فَلاَ زَالَ أسِيراً فى يَدِى هَجْرى

إذن : فحقيقة القمر التى عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة فى الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه فى خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل فى التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً فى أول الشهر على خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** .. ⑤﴾ [يونس]

وتتجلى عظمة التكليف الإلهى وارتباطه بالقمر فى فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتى فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .. إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً

منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمرى يأتى الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة فى العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفى العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكْره من دخول الليل فى النـهار ، ودخول النهـار فى الليل ، وتسخيـر الشمس والقمـر ، ذلك كله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] فكل مـا تقدم نشأ عن صـفة من صـفات الله وهو الحق ، والحق هو الشـىء الثابت الذى لا يتغير ، فكأن ناموس الكون بكل أفـلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذى خلقه وأبدعه حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان]

ومـا دام الله تعالى هو (الحـق) فمـا يدَّعونـه من الشركـاء هم الباطل ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] ، فلا يوجد فى الشىء الواحد حَقَّـان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغـيره هو الباطل ، فالحق واحـد ومقابلـه الباطل . وأىُّ باطل أفظع من عبـادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهى حجارة صوَّروها بأيديهم وأقـاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجـارة جماد من جمـادات الأرض ، والجماد هو العـبد الأول لكل المخلوقـات ، عبد للنبات ، وعـبد للحيوان ، وعبـد للإنسان ؛ لأنه مُسخَّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسـان الذى كرَّمك ربك وجـعل لك عقـلاً مفكراً تتدنى بنفـسك وترضـى لها أنْ تعـبد أدنى أجناس الوجود ، وتتـخذها شـريكاً مع الله ، وأنت تـرى الريح إذا اشـتـدتْ أطاحـتْ باللات أو بالعـزى ، وألقتْـه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعـه ، فاحتـاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان]

لذلك ؛ قلنا فى الـحروب التى تنـشب بين الناس : إنهـا لا تنشب بين حقين ؛ لأن الـحقيقة لا يوجـد فيها حقَّـان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها فى الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهى مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شىء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً فى توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقى .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش(1) أذهبه الله فى نهابر(2) »(3) ومعنى : مهاوش يعنى بالتهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعى أن يُذهِب الله هذا المال فى الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب

---

(1) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(2) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

(3) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى: لا يصح .

ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذى يعيش على الكفاف ويعرق فى كسب عيشه بالحلال فيكفيه فى مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

فقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟ ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو فى هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذى يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندى من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندى من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك فى صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : يأخذ كل واد على قدره وسعته من الماء ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وهو القش والفتات الذى يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : مثلاً لكل منهما .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] وأن غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ [لقمان] العلى الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله ﷺ ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبى الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد فى الآيات السابقة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة جاءت ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذى تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذى ألف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] أى : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلى وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل.

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يطلقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به فى ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العلىُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذى يستحق هذا العلو .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته فى الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التى بيْن أيدينا فى الأرض فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] ألم تر : يعنى ألم تعلم ﴿ **أَنَّ الْفُلْكَ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] أى : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يرَ هذه السفن فى البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التى نراها اليوم كالأعلام ، كما فى قوله

سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ومتى وُجِدت البوارج العالية التى تشبه الجبال والمكوَّنة من عدة أدوار ؟ لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

ومَنْ يبحث فى القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التى تثبت صِدْق القرآن وصِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التى أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامى ، وقرأت فى سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله علىَّ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته .

وقلنا فى معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

وكلمة ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] الجرى : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشى الهُوَيْنَا أو تجرى . لكن ما هى نعمة الله فى جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر[1] ، وكان

---

(١) الدسر : مسامير السفينة وشرطها التى تشد بها . والدسار : المسمار ويقول تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] .

الغاطس منها فى الماء حوالى شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هى التى تُستخدم فى الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم فى حركة الغواصة تحت الماء . والآن نرى السفن العملاقة والتى تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل اللَّين ويجرى به ، ثم تأتى الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء ، ويتمكن ربان السفينة من التحكم فى حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح).

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التى تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أى شىء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط فى عجلاتها ، والذى يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ فى ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ.. (٣١)﴾ [لقمان] أى : من عجائبه فى كونه خاصة فى البحار ، ففى الماضى كنا لا نرى من المخلوقات فى الأعماق إلا السمك الذى يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى فى أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان] قوله تعالى : ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. ﴿٣١﴾﴾ [لقمان] توحى بأن آيات الله فى كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً فى البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما فى أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نستقبل آياته فى الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ(١) كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

(١) ختره : غدر به أقبح الغدر فهو خاتر وختّار : صيغة مبالغة . [القاموس القويم ١/١٨٧] .

معنى ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ .. (٣٢)﴾ [لقمان] يعنى : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال ﴿كَالظُّلَلِ .. (٣٢)﴾ [لقمان] جمع ظُلَّة ، وهى التى تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا(١) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١)﴾ [الأعراف]

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ فى عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شىء عجيب ونعمة تستوجب الشكر .

فالموج إذن شىء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٣٢)﴾ [لقمان] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء فى مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر فى عبادة الأصنام ، ففى هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قُلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذى صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

---

(١) النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشىء : جذبه واقتلعه . [لسان العرب - مادة : نتق] .

قلنا : إن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية فى ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هى مصدر الإشراقات فى نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذى وضعه له ربه - عز وجل - فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

النبى ﷺ يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه أو ، يُمجِّسانه »[1] .

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التى شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع فى النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضى نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه فى عبادة الأصنام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث .

لكن نقـول لمن عـبـد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتى عـليك الوقت الذى لا تلتـفت فـيـه إلى الأصنام ، بـل إلى الإله الحق الذى هـربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تُلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون فى المـثل (اللى متحبش تشوف وجـهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فـأنتم أعـرضتم عن الله وكـفـرتم به ، فلمـا نزلت بكم الأحـداث وأحـاطت بكم الأمواج صـرْتم أرانب ، فلمـاذا الآن تلجئـون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] وكان ينبغى عليهم بعـد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذى يُلْجأ إليه ويُستغاث به ، وبعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغى عليهم أن يؤمنوا بـه ، وأنْ يطيعـوه ، وأن تؤثر فـيـهم هذه الهـزة التى زلزلتهم ، إلا أنـهم عادوا إلى ما كـانوا عليه من الكفـر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هى حال الكافـر حينمـا يتعرض للابتـلاء والتمحـيص ، فإنه ينتكس ولا يرعـوى على خلاف الـمؤمن ، فـإنه إن تعرَّض لمـثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتـصد هو البين بين ، تأخذه الأحـداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كـشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر فى مـقابل المقتصـد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ [لقمان]

فمنهم من بهت كـفره حينما تـنبه فيه الوازع الإيمـانى ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الختَّار أى : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً فى الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسى الذى تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعونى وخلقى ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى فى آية

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿وَاتَّقُـوا النَّارَ .. (١٣١)﴾ [آل عمـران] وهمـا بمعنى واحـد ؛ لأن مـعنى اتقوا الله : اجـعلوا بينكم وبين صـفـات جلال ربكم وانتـقامـه وجبروته وقاية ، وكذلك فى : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عـام للناس جمـيعاً مـؤمنهم وكافرهـم ، فـالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنّ عليهـم ويعينهم ، وكأنـه سبحـانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَـم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكـرنا فى قـصـة اليـهودى الـذى اتهـموه ظلـماً بسـرقـة درع أحـد المسلمـين ، وقد عـزَّ على المسلمـين أنْ يُرمى واحد منهم بالسـرقة ، فجعلوها عند اليهودى ، وعرضـوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره فى رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعـفه الله ، وأنزل عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥)﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أى : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عـطاء الربوبية غير عطاء الألوهيـة ، عطاء الربوبية إيجـاد من عَدَم ، وإمـداد من عُدْم ، وتربـية للمؤمن وللكافـر ، أما عطاء الألوهية فطاعـة وعبادة وتنفيـذ للأوامر ، فـاخـتار هنا الرب الـذى خلق وربَّى ، وكـأنه سبـحـانه يقـول للناس جميـعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعـمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا

لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خفْتُ شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤)﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أيّاً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىِّ عنها ، جاء عَجُزها ﴿وَلا يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع فى الإيلام ، والولد يشفع فى الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشىء يسر لم يَأْت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشىء يؤذى لم يأْتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ فى أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعى الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح فى الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق - سبحانه وتعالى - يتكلم فى النعم أن منها نِعَم إيجاب ، ونِعَم سلب .

واقرأ فى ذلك قول ربك : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة فى الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفي بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يدارى كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله في الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب منى إنْ لم أَفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضى أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضى الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معى لا بى ، وأن الطبيب يعالج والله يشفى . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] أى : بزينتها وزُخْرفها ، فهى سراب خادع ليس وراءه شىء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط فى الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هى مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى فى هذا المثل : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥) ﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ فى تحقيرها من أنها دنيا ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥) ﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهى ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهى انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذى يغرُّك فى شىء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلى[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التدلُّل ... وإنْ كنت قَدْ أَزْمعت صَرْمى[2] فأجْملِى

أغرَّك منى أنَ حبَّك قَاتِلى ... وأنَّك مَهْما تأمُرى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التى أولها :

قفَا نبْك منْ ذكرى حبيب وَمنْزل ... بسقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَل

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

وتتصرف فيها فى كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله فى غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصى بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرَّنى كرمه ، لأنه خلقنى وسوَّانى فى أحسن صورة ، وعاملنى بكرم ودلَّلنى ، حتى أصابنى الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردَّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلى صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبنى ، فهى نَقْر لا خشوع فيها ، أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤ ﴾

بعد أن حذرنا ربنا - تبارك وتعالى - من الغرور فى الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان] والساعة لا تعنى القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم - عليه السلام - إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

إذن : لا ينبغى أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن فى إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه فى كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت فى كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون فى قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التى نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال فى قصة العُزير الذى قال الله عنه : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة] ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل فى قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى فى قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : لم يتغير .

وهذا دليل على صِدْقه فى يوم أو بعض يوم ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله ﴿مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حق قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان]

فهل هذه هى كل الغيبيات فى الكون ؟ نقول : فى الكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن هذه الخمس هى المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفى أى ناحية ؟ أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التى أنعم الله بها علينا ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٢٧) ﴾ [لقمان]

فلله تعالى فى كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا فى كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون - هذا ونحن لا نزال فى الدنيا ، فما بالنا فى الآخرة ، وفى الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبى ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكنك تسمع لمرائى الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة .

لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعنى : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة]

وقد ورد فى أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة[1] أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذرى ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتى حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتى ، فكيف أعرف موقع مماتى ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان]

وعجيب أنْ نرى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله فى هذه الغيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم بما قاله الله فى قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكى نستشعرها دائماً ، وفى كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على

---

(١) قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٨) : « نزلت آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] : فى الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبى ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ، وتركت امرأتى حُبْلَى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأىِّ أرض أموت ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين ، كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فَلا تَحْسَب السُّقْم كأسَ الممات وإنْ كَان سُقْماً شَديد الأثَر
فــرُبَّ عليــل تَــراهُ استْفَاق وربَّ سَلِيم تَــرَاه اسْــتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غــادة كعَــابٌ وغُــودرَتْ أمُّهــا العَجُوزُ
يجــوُزُ أنْ تبطىء المنَــايَا والخُلْدُ فى الدَّهْر لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى المـوت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه فى كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففى إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه فى كل وقت .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ .. ۝٣٤ ﴾ [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة .. إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن لله أقداراً فى الكون تحدث ولا تدخل فى حساباتهم ، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلب كل حساباتنا .

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهى مصدر الحرارة تقِلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينيـة ، إنما هى قدرة لله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التى تقول للشىء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر فـى الحج بأن نُقبِّل حجـراً ونرمى آخر ، وكل منهـما إيمـان وطاعـــة ، هذا يُبـاس[1] وهذا يُداس ، هذا يُقـبَّل وهـذا يقنبل ، لمـاذا ؟ لأن الله تعـالى يريد منا الالتـزام بأمـره ، وانصـيـاع النفس المؤمنة للرب الذى أحيا ، والرب الذى كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] هذه أيضاً من مفاتح الـغيب ، وستظل كذلك مـهما تقدمت العلوم ، ومـهما ادَّعى الخَلْق أنهم يـعلمـون مـا فى الأرحـام ، والذى أحـدث إشكالاً فى هذه المـسألة الآن الأجـهـزة الحـديثة التى اسـتطاعـوا بهـا رؤية الجنين ، وتحديد نوعـه أذكر أم أنثى ، فهـذه الخطوة العلمية أحـدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما فى الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التى استأثر الله بها .

ونقول : أنـتم بسلطان العلم علمتم مـا فى الأرحام بعـد أن تكوَّن ووضحتْ معـالمه ، واكتملتْ خلْقـته ، أما الخالق ـ عـز وجل ـ فيعلم ما فى الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولـده يحيى قبل أن تحمل فيـه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علّمنا الله ، فالطبيب الذى يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله ـ تبـارك وتعالى ـ يكشـف لبعض الخلق بعـض الغـيـبيـات ،

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : بوس] : « البَوْس التـقبيل ، فارسى معرب ، وقد باسه يبوسه » .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر - رضى الله عنه - حين أوصى ابنته عائشة - رضى الله عنها - قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصِّديق فى هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً[1] ، فهل نقول : إن الصِّدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعلِم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتى أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التى يُجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادى لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان فى حياته عُرضَة للتغيُّر .

لذلك يقال فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تسألنى عن رزق غدٍ ، كما لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر الأنصار

---

(١) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر ، أمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكانت حاملاً بها عند وفاة أبى بكر وولدت بعده . [ابن سعد فى الطبقات ٣/١٥٥] .

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم فى الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أنى جئت مطروداً فآويتمونى فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتمونى فأنتم صادقون .. لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله »[(١)] ، وقال فى مناسبة أخرى « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[(٢)] .

إذن : نُبِّىءَ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] نقول : الأرض منها عام وخاصّ ، فأرض المدينة شىء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن فى أىِّ بقعة منها ، وفى أى حجرة من حجرات زوجاته ؟ إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرضَ

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٣٣٠) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً . قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار ، والناس دثار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

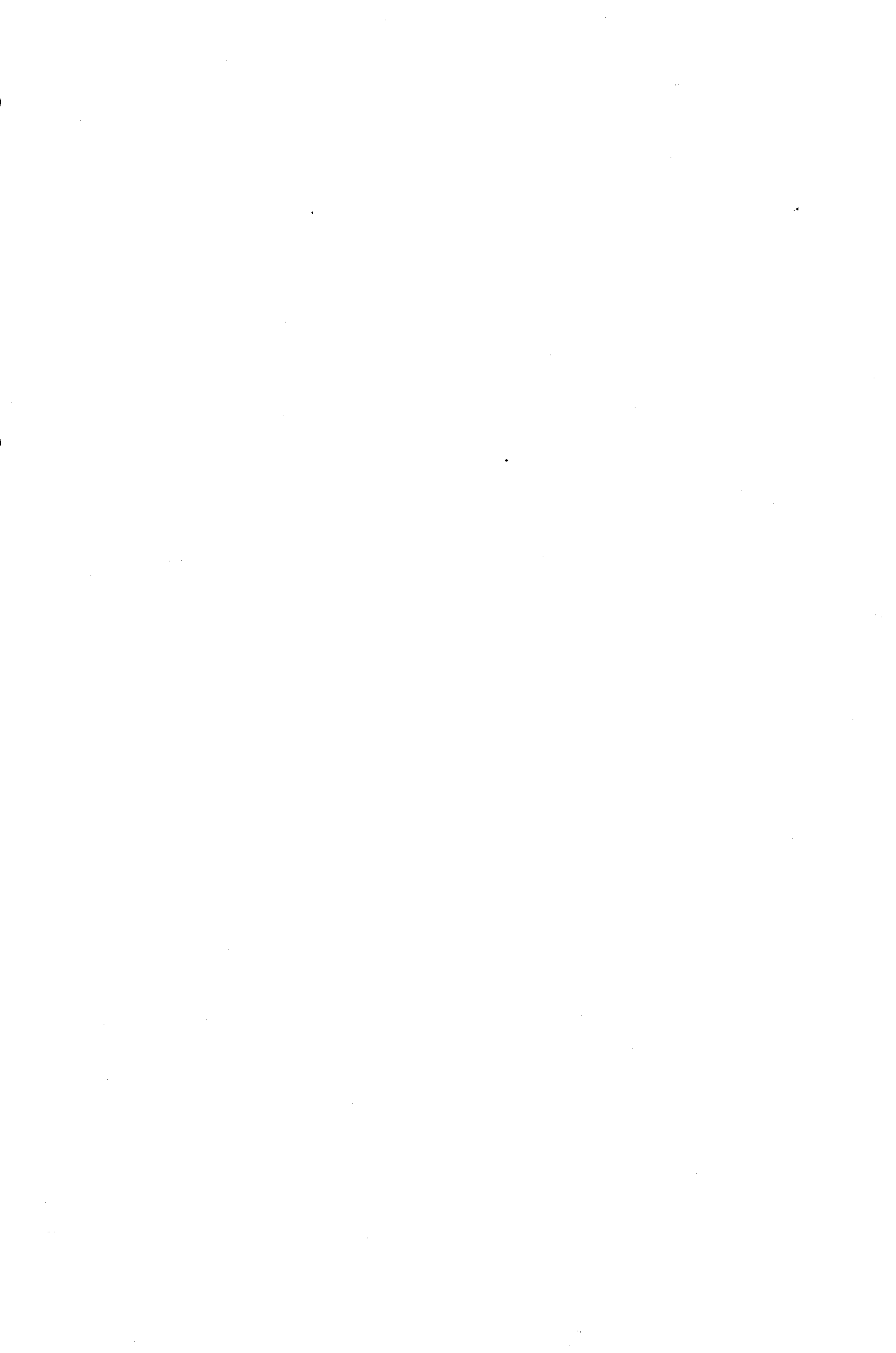
يُرْوى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير فى ذلك المنجِّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه فى المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهى مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذى يبغى نفاقه يقول له : هى خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

إلى أن انتهى الأمر عند أبى حنيفة رضى الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هى خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** .. (٣٤)﴾ [لقمان]

وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (٣٤)﴾ [لقمان]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر فى هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجرى بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شىء أكثر من أنك ستعيش نكِداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنَّا هذه المسألة لنُقبِل على الله بثقتنا فى مجريات قدر الله فينا .



سُورَةُ السَّجْدَةِ





سورة السجدة[1]



﴿ الم ﴿١﴾ ﴾

هذه من الحروف المقطَّعة المبنية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التى بُنِيتْ كما قُلْنا على الوصل من أول القرآن إلى آخره ، بل على وصل آخره بأوله ؛ لذلك ينبغى أن تقرأ القرآن على الوصل ، ما دام نَفَسُكَ يساعدك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفَس ، فتقف وتُسكِّن الحرف الذى وقفتَ عليه .

وقد قال علماء القراءات : وليس فى القرآن مِنْ وقف وجب ؛ لأنه

---

(١) سورة السجدة هى السورة رقم (٣٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة] . عدد آياتها ٣٠ آية ، نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الطور .

بُنى على الوصل ، فلا تقف إلا إذا ضاق نَفَسُك ؛ لذلك جعلوا فى القرآن مواضع للوقف ، وتُرسم فى المصحف (صلى ، قلى ، ج) ، لكن الأصل الوصل .

وقلنا : إن أوضح مثال على الوصل فى القرآن أن كلمة الناس فى آخر سورة الناس ، وهى آخر القرآن لم تأت ساكنة ، إنما متحركة بالكسر (الناسِ) ؛ لأن الله تعالى قدَّر حلَّك فى الناس فجعلك ترحل إلى بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الفاتحة ، فلا تقطع الصلة بين آخر القرآن وأوله ، وسمَّيْنا قارىء القرآن لذلك « الحالّ المرتحل » .

وهنا تأتى ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] بعد مفاتح الغيب الخمسة التى سبقتْ فى آخر سورة لقمان ، وكأنها مُلْحقة بها ، فهى سرٌّ استأثر الله تعالى بعلمه ، ونحن فى تفسيرنا لها نحوم حولها ؛ لذلك كل مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة فى بدايات السور لا بُدَّ أن يقول بعدها : والله أعلم بمراده ؛ لأن تفسيراتنا كلها اجتهادات تحوم حول المعنى المراد ؛ لذلك نحن لا نقول هذه الكلمة فى كل آيات القرآن ، إنما فى هذه الآيات والحروف بالذات .

وكيف بنا حين يجمعنا الله تعالى إنْ شاء الله فى مقعد صدْق عند مليك مقتدر ، كيف بنا حين نسمع هذا القرآن مباشرة من الله عز وجل ؟ لا شكَّ أننا سنسمع كلاماً كثيراً غير الذى سمعناه ، ومعانى كثيرة غير التى توصَّلنا إليها فى اجتهاداتنا ، وعندها سنعرف مرادات الله تعالى فى هذه الحروف ، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها ، وكم كنا أغبياء فى فَهْمنا لمرادات ربنا .

وقوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] عادةً يأتى بعد هذه الحروف المقطعة أمر يخصُّ الكتاب العزيز .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

مـادة (نـزل) وردتْ فى القـرآن بلفـظ : نزل ، ونزَّل ، وأنزل . أنزل تدل على التـعدية ، يعنى : أن الله تعـالى عدَّى القـرآن من اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يـباشر مهمته فى السـماء الدنيا ، وهذا الإنزال من الله تعالى .

أما نزَّل فالتنـزيل مهمة الملائكة ؛ لذلك يقـول تعالى فى الإنزال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر] أى : من اللوح المـحفـوظ إلى السماء الدنيا ، ثم تتنزَّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

ويقـول سبحـانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء] فقـد كان محـفوظاً عندنا فى اللوح المحـفوظ ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾ [الواقعة] ثم نزل به الروح الأمين جبريل .

وما دام ﴿ نَزَلَ به .. ۝١٩٣ ﴾ [الشـعراء] فهـذا يعنى أن القرآن نزل معه ، فـقوله : ﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء] تساوى تمـاماً ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء] ، فالنزول يُـنسَب مرة إلى القرآن ، ومرَّة إلى الروح الأمين .

ومادة نزل ومـا يُشتق منها من إنزال وتـنزيل تفيد كلهـا أنه جاء من جهـة العلو إلى جهة أسـفل منه ، كأنك تتلقَّى من جـهة أعلى منك وأرفع ، وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإيَّاك أنْ يضل بك الفكر لناحية أخرى .

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ فى أمر التكليف : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فنحن نفهم أن تعالوا بمعنى تعالَ . أى : أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو : أقبل دانياً إلى متعالٍ ، تعالَ من أوضاعك الأرضية إلى عُلُو ربك فى الملأ الأعلى.

تعالَ يعنى : لا تأخذ من نفسك ولا من مُسَاوٍ لك ، إنما ارتفع وخُذْ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهمً وأفكارهم ، وخُذْ من الذى شرَّع لك ؛ لأنه لا بُدَّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك وأسلم ؛ لأن علمه أوسع ، فلا يُشَرِّع لك اليوم ما ينقضه غداً .

ثم إنَّ شرعه لك يستوعب كل نواحى حياتك وأقضيتها ، وهذه المواصفات لا تكون إلا فى الحق - تبارك وتعالى - وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها ، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك ، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما نرى فى تشريعات البشر للبشر .

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ؛ لذلك سرعان ما تهاوى ؛ لأن شرط المشرِّع الحق ألاَّ ينتفع هو بما يُشرِّع ، وعليه فلا مشرِّع حقٍّ إلا الله .

لذلك رأينا حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أنْ تعضَّهم الأحداث ، وتخفق قوانينهم فى حَلِّ مشاكلهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام .

ولما سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] وفى موضع آخر ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف]

قالوا لنا : هذا يعنى أن الإسلام ظاهر على الأديان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت فى الرد عليهم : والله لو فهمتُم أسرار اللغة ، وتأملتُم هذه الآية لوجدتم أن الردَّ فيها ، فواحدة تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧﴾ [الصف] ، والأخرى تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ⑬⑬﴾ [التوبة]

إذن : فالكفر والشرك موجودان مع وجود الإسلام ، وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أنْ يُقْضَى عليهم قضاء مبرماً ، إنما يظهر عليهم بحيث يُضطرون إليه ، ويلجئون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ فى الظهور ، أنْ تأخذ بما فى القرآن وأنت غير مؤمن به ؛ لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه .

وأوضح مثال على ذلك أنهم هاجموا شرع الله فى مسألة الطلاق ، وفى مسألة تعدُّد الزوجات ، واتهموا الإسلام بالوحشية .. إلخ ، ثم تضطرهم أقضية الحياة ومشاكلها أنْ يشرِّعوا الطلاق ، وأنْ يأخذوا به على مرأى ومَسْمع من الفاتيكان ، فماذا جرى ؟ فنقول لهم : هل أسلمتم وآمنتم ؟ لا ، إنما لجأنا إليه ؛ لأن فيه الحل لهذه المشاكل التى أحاطتْ بنا .

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله ، وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ؛ لأنهم لو أسلموا لقالوا عنهم : أخذوا بهذا الشرع لأنهم أسلموا ، إنما ها هم يأخذون به وهم به كافرون مشركون .

ومعنى ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. ②﴾ [السجدة] أى : لا شكَّ فيه . وقلنا : إن النسب فى القضايا . أى : نسبة شىء لشىء إما مجزوم بها أو غير مجزوم بها ، فلو قُلْنا : الأرض كروية هذه قضية جزم بها

الآن ، ونستطيع التدليل على صحتها دليلاً حسياً ، فهذه قضية واقعة ومجزوم بصحتها ، وعليها دليل من الكون .

فإنْ كانت القضية غَيْرَ مجزوم بها ، فهى بين ثلاث حالات : إما فيها شكّ ، أو ظنّ ، أو وهم : الشك أنْ تتساوى الكفّتان : الإثبات والنفى ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما ترجِّحه ، فإنْ غلَّبْتَ الأخرى وجعلتها هى الراجحة ، فهذا توهم .

وهنا قال سبحانه ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. ۝٢ ﴾ [السجدة] لا شكَّ فيه ، فنفى الشكَّ ، وهو تساوى النفى والإثبات ، وما دام قد نفى التساوى ، فهذا يعنى أنه أراد أنْ يثبت الأعلى . أى : أنه حَقٌّ لا يرقى إليه الشك .

وجملة ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. ۝٢ ﴾ [السجدة] جملة اعتراضية بين ﴿ الْكِتَابِ .. ۝٢ ﴾ [السجدة] ، وبين ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [السجدة] وما دام أنه ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلا بُدَّ أنه حقٌّ لا ريب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

عجيب أنْ يقابلَ العربُ كلامَ الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا فى هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا للكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم الآن المعارض لمنتجاتنا ، ولا يُعرض فى المعارض هذه إلا السلع الجيدة محلّ الفخر ، فقبل الإسلام كان فى عكاظ وذى المجاز مضمار للقول ، وللأداء البيانى بين الأدباء والشعراء .

فعجيبٌ منهم ألاَّ يميزوا كلام الله عن كلام البشر ، خاصة وقد تحدَّاهم وتحدَّى فصاحتهم وبلاغتهم أنْ تأتى بآية واحدة من مثله ، ومعلوم أن التحدى يكون للقوى لا للضعيف ، فتحدِّى القرآن للعرب يُحسَبُ لهم ، وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو - إذن - شهادة لهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه فى مجال التحدى .

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله ، فمرة يقولون : شاعر ، ومرة : ساحر ، وأخرى يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : بل يُعلِّمه ذلك أحد الأعاجم .. إلخ ، وهذا كله إفلاس فى الحجة ، فهم يريدون أنْ يُكذِّبوا رسول الله ﷺ ، أما القرآن فى حدِّ ذاته ، فلا يَخْفى عليهم أنه كلام الله ، وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال : « والله ، إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدِق ، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه »[1] .

لذلك لما لم يجدوا فى القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كان اعتراضهم أنْ ينزل على هذا الرجل بالذات : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ[2] مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فكانوا

---

(١) اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يقصد محمداً) فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . فمن قائل : إنه كاهن. وقائل : مجنون . وقائل : إنه شاعر . وقائل : إنه ساحر . فردَّ كل أقوالهم ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك « السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٤) » .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود ، فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » والقريتان هنا : مكة والطائف .

ينتظرون أنْ يُنزَّل القرآن على عظيم من عظمائهم أو ملَك من الملوك ، لكن أنْ ينزل على محمد هذا اليتيم الفقير ، فهذا لا يُرضيهم ، وقد ردَّ القرآن عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

يعنى : إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من عرضها ، فهل نترك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على هواهم وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ و اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وهذا يعنى أنهم انتهوا إلى أن القرآن مُعْجِز ، وأنه من عند الله لا غُبَار عليه ، والذى قرأه منهم ، وأيقن أنه حق قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا الكلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على غبائهم وحُمْقهم ، وكان الأَوْلَى بهم أنْ يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا إليه .

وقد ردَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله ، وفنَّدها جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه مجنون ردَّ الله عليهم : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ؛ لأنه محكوم بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان ، ولا ينشأ عن ذلك خُلق كريم .

أما الإنسان السَّوىُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة ، فلو اعتدى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر فى المثلية ، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح ، واحد يكظم غيظه وآخر يزيل كل أثر للغيظ ، ويبغى الأجر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى(١) : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] وكأن الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سُئل الحسن البصرى : كيف يطلب الله منَّا أنْ نُحسن إلى مَنْ أساء إلينا ؟ قال : هذه مَرَاق فى مجال الفضائل ، وقد أباح الله لك أنْ تردَّ الإساءة بمثلها ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لكن يترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخَلْق كلهم عيال الله ، وهم عنده سبحانه سواء ، فماذا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شكَّ أنك ستكون فى جانب المظلوم ، فتأخذه فى حضنك وترعاه وتعطف عليه ، وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكون فى جانب عبده إذا ظلم . وقد قال أحدهم : ألاَ أُحسِن إلى مَنْ جعل الله فى جانبى ؟

من هنا يقولون : أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب

---

(١) نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال فى عائشة ، فلما أنزل الله براءة عائشة رضى الله عنها شرع الله يعطف الصِّديق على قريبه ونسيبه مسطح وكان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، وقد ضرب الحد على الزلة التى زلها فى حق عائشة ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] ، عند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة . [تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦] .

لك يأتى من الأشـرار حـين يسـيئـون إليـك وتحـسِن إليـهم ؛ لذلك يقولون : فـلان هذا رجل طيب ، لكن مَنْ يمشى معـه لا يستفـيد منه حـسنة أبداً ، لمـاذا ؟ يقـولون : لأنه خـادم للجـمـيع ، وجـعل خـدَّه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحداً (يستفتح) منه بحسنة .

ورُوى عن سـيـدنا رسـول الله ﷺ أنه تـبـسَّم فى مـجلس مع أصحابه ، فـقالوا : ما يُضحكك يا رسـولَ الله ؟ فقال : « رأيتُ ربى ، وقد أجلس بين يديه خَـصْمين ، فقال أحـدهما : يا ربِّ إن هذا ظلمنى فخُذْ لى حقِّى منه ، فقال : كيف آخذ لك حقك منه ؟ قال : أعطنى من حسناته بقـدر ما أساء إلىّ ، فقال : لـيست له حسنات ، فقـال : فخُذْ من سيـئاتى واطرح عـليه ، فقـال : أوَيرضيك ألاَّ تـكونَ لك سيـئة ؟ قال : إذن ، يا رب كيف أقضى حقى منه ؟ قال : انظر يمينك ، فنظر الرجل يمـينه ، فوجد قـصوراً وبسـاتين وجنَاناً ، ممـا لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن يدفع ثمنها ، فقال : وما ثمنها يا رب ؟ قال : أنْ تأخذَ بيد أخيك إلى الجنة ، فعجبتُ من رَبٍّ يُصلِح بين عباده »[(١)] .

هذا عن قـولهم عن رسول الله : مـجنون ، أما قـولهم : سـاحـر . فالردُّ عليـها ميسـور ، فإذا كان محـمد ساحراً ، سـحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم أنتم أيضاً ؟ فكونـكم سالمين من السحر دليل على أنه ﷺ ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله .

أما قولهم : شـاعر ، فهذا عجيب منهم ، وهم أمـة كلام وبلاغة ،

---

(١) أخرجـه الحاكم فى مـستدركـه (٤/٥٧٦) وقال : صحـيح الإسناد ولم يخرجـاه ، قال الذهبى : « عباد ضعيف وشيخه لا يعرف » وكذا أخرجه أبو بكر بن أبى داود السجستانى فى « البعث والنشور » (ص ٤٩ ، ٥٠) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وهم أكثر خَلْق الله تمييزاً للشعر من النثر ، وخير مَنْ يفرق بين الأساليب وطرق الأداء ، وقد تولى الله تعالى الردَّ عليهم ، فقال :

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩)﴾ [يس]

وفى سورة الحاقة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

فلما خابتْ كُلُّ هذه الحيل ، وكذبتْ كل هذه الافتراءات قالوا : بل له شيطان يُعلِّمه ، وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذى لا يُشَقُّ له غبار فى الفصاحة وحُسْن الأداء ، حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم ، فقالوا (وادى عبقر) ، وهو مسكن هؤلاء الجن الذين يُلْهِمون البشر ويُعلِّمونهم .

والشعر كلام موزون مُقفَّى ، وله بحور معروفة ، فهل القرآن على هذه الشاكلة ؟ لا ، إنما هو افتراء على رسول الله ، كافترائهم عليه هنا :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣)﴾ [السجدة]

فقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ .. (٣)﴾ [السجدة] أم تعنى أن لها مقابلاً ، يعنى : أيقولون كذا ؟ أم يقولون : افتراه ، فماذا هذا المقابل ؟ المقابل ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [السجدة] فالمعنى : أيُصدِّقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين ، وأنه لا رَيْبَ فيه ؟ أم يقولون افتراه محمد ، فأَمْ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السابق عليها .

وقوله : ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (٣)﴾ [السجدة] نعرف أن (بل) تأتى للاستدراك ، لكنها هنا ليست للاستدراك ، إنما لإبطال قولهم ﴿افْتَرَاهُ .. (٣)﴾ [السجدة] كما لو قُلْت : زيد ليس عندى بل

عمرو ، فأفادتْ الإضراب عما قبلها ، وإثبات الحكم لما بعدها ، وهم يقولون افتراه والله يقول : ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. ۝٣﴾ [السجدة] فكلامهم واتهامهم باطل ، والقرآن هو الحق من عند الله .

وقُلْنا : إن ﴿الْحَقّ.. ۝٣﴾ [السجدة] هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير ؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هَبْ أن حادثة وقعتْ نتج عنها مُدَّع ومُدَّعىً عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضى ، وقد يحدث أن يُغيِّر أحدهم أقواله ، أو يشهد الشهود شهادة زور .

لكن خبرة القاضى ودُرْبته تكشف الحقائق وتُظهِر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ، ويسألهم ويحاورهم إلى أنْ يصل إلى الحقيقة ؛ ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لاتفقوا فيه ، ولباقة القاضى هى التى تُظهِر الباطل المتناقض وتُبطِله وتُحِقّ وتغلب الحق الذى لا يمكن أن يتناقض .

كالقاضى الذى اجتمع أمامه خَصْمان ، يدَّعى أحدهما على الآخر أنه أخذ منه مالاً ولم يردّه إليه ، فقال المدَّعَى عليه : بل رددته إليه فى مكان كذا وكذا ، فأنكر المدَّعى ، فقال القاضى للمدَّعَى عليه : اذهب إلى هذا المكان ، فلعل هذا المال وقع منك هناك ، فذهب الرجل وأبطأ بعض الوقت ، فقال القاضى للمدعى : لقد أبطأ صاحبك ، فقال : أبطأ ؛ لأن المكان بعيد ، فوقع فى الحقيقة التى كان ينكرها .

ثم يقول سبحانه : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. ۝٣﴾ [السجدة] ومعلوم أن سيدنا رسول الله جاء بشيراً ونذيراً ، لكن خصَّ هنا النذير ؛ لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشر به ، ولم يأتِ ذكر البشارة هنا ؛ لأنهم

ما سمعوا للنذارة ، وما استفادوا بها .

لكن قولـه تعالى : ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. ③﴾ [السجدة] تصطدم لفظياً بقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ㉔﴾ [فاطر] وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⑮﴾ [الإسراء] وليس بين هذه الآيات تناقض ؛ لأن المعنى : ما أتاهم من نذير قريب ، ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ .. ⑲﴾ [المائدة]

وإلا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ㉕﴾ [لقمان] فهذا أثر من آثار الرسل السابقين ، كما كان فيهم أناس متبعون لمنهج الدين الحق ، والذين سماهم الله الحنفاء ، وهم الذين لم يسجدوا لصنم ، ولم ينحرفوا عن الفطرة السوية .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③﴾ [السجدة] لعل تفيد الرجاء ، والرجاء من الله كأنه واقع متحقق ؛ لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به ؛ ليأخذوا جميل عطائه فى الآخرة ، كما أخذوا عطاءه فى الدنيا ، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته ، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى : « ... دعونى وما خلقت ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا إلىَّ فأنا طبيبهم .. »[1] .

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية من قضايا أصول الكون :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يخبرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أنه خلق السموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول فى هذا الكون ، وجميع الأجناس فى خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد فى هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره فى الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهى إلى الموت ، فى حين أن الجمادات التى تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهى خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لابد أن لى عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لى ، ويناسب سيادتى فى هذا الكون ، إنها الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التى خدمتنى فى الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التى خدمتنى فى الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يدىَّ دون تعب ودون سَعْى ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقى المعطى .

لذلك ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتى فى خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أَنْ تنتهى إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تَسْلَم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنىّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوى قد يضعف ، أمّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار ، فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنت لستَ مثلها فى العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التى حولك ، أمّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا أقرَّ ـ حتى الكفار ـ بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهى دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التى استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلقت ولا حتى كيف خُلق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحد فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذى يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والأرض مسألة لا تُؤخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛

لذلك قَصَّ لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا فى قوله تعالى ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفِعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أما فى حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشىء كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادى مثلاً تأتى بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادى سبق إعداده ، ثم تتركه فى درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادى ، فهل تقول : إن صناعة الزبادى استغرقت منى سبعاً أو ثمانى ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق السموات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنة السماوات والأرض .

ومسألة خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُولجت فى سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْن عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففى الأعراف مثلاً ، وفى يونس ، وهود ،

والحديد[١] . تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفى الفرقان والسجدة وق[٢] . فتكلَّمتْ عن البينية ، فكأن السماوات والأرض ظرف خُلق أولاً ، ثم خُلق المظروف فى الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقى أنْ تُعِدَّ الظرفَ أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها فى زمن يساوى ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ④⑦﴾ [الحج] أى : فى الدنيا .

وقال عن اليوم فى الآخرة : ﴿تَعْرُجُ[٣] الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ

---

(١) هذه الآيات الأربعة هى :
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑤④﴾ [الأعراف]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ③﴾ [يونس]
- ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑦﴾ [هود]
- ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [الحديد]

(٢) أما الآيات التى أضيف فيها ما بين السماوات والأرض فهى :
- ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ⑤⑨﴾ [الفرقان]
- ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ③⑧﴾ [ق]

(٣) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/١٣] .

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج] فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ، ولليوم فى الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا فى سورة (فُصِّلَت) فهى التى فصَّلَتْ القول فى خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] هذه ستة أيام .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام فى الإجمال ، وثمانية أيام فى التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية .

وأعدْ معى قراءة الآيات :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : فى تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى الأربعة ، كما لو قلت : سِرْتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتين ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض فى يومين ، وخلق ما يلزمها فى تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] ومن العجيب أن يأتى هذا التفصيل فى (فُصِّلت) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤) ﴾ [السجدة] الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب الولاية فى الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿ اسْتَوَىٰ .. (٤) ﴾ [السجدة] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعانى تناسب الآية ، لكن فى إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفعْلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون فى الشىء الواحد ، فهل نُسوِّى بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤) ﴾ [السجدة] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ .. (٤) ﴾ [السجدة] الولىُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع فى الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذى يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالولىُّ هو الذى ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

ينصرك ، فليس لك ولىٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] فلا أحدَ ينجيكم ، ولا أحدَ يُسْعفكم إلا الله ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

كأن هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرّ بك حال ، فأنت بين الغِنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا وليَّ ولا نصيرَ لك إلا الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولم لا وأنت تستند إلى وليٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذى يخاف الأحداث يُضعِف قوته الفاعلة .

فمثلاً صاحب العيال الذى يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدى ، فهل أنا خلقتهُم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من المجتمع الإيمانى آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصَدَق الذى قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمالِ

وقال آخر :

* قَالَ ذُو الآبَاءِ لَيْتِى لاَ أَبَا لِى *

ولِمَ لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا فى ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتى على باله قَسْراً فى وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله - حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة : يا رب .

وقوله تعالى ﴿ مِّن دُونِهِ .. ④ ﴾ [السجدة] يعنى : لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أيّاً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ﴾

فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ⑤ ﴾ [السجدة] أى : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. ②⑤⑤ ﴾ [البقرة] إن قُلْنا بصحة ما تقولون ؟ بل هو سبحانه خلق الكون ، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل ، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خَرق هذه الرتابة

بشــواذ تخــرج عن القوانيــن المعــروفــة كمــا خــرق لإبراهيم ـ عليــه السلام ـ قانون الإحراق ، وكما خــرق لموسى ـ عليه السلام ـ قانون سيـولة الماء ، ومســألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قـيوميـته تعالى ، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه .

ولو أن المسألة كـما يقول الفلاسفة لكان الكون مـثل المنبه حين تضبطه ثم تتـركه ليعـمل هو من تلقاء نفـسه ، ولو كان الأمـر كذلك لانطفأتْ النار التى أُلقِى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً .

لذلك لما سُئِل أحد العـارفين عن قـوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] ما شـأن ربك الآن ، وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[1] .

إذن : مســألة الخَلْق إبداء لا ابتـداء ، فأمور الـخَلْق مُعـدَّة جاهزة مُسْبقاً ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور .

وقلنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فكلمة ﴿ يَقُولَ لَهُ .. (٨٢) ﴾ [يس] تدل على أن هذا الشىء موجـود بالفعل ينتظر أنْ يقـول الله له : اظهر إلى حيِّز الوجود .

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عـنه عن النبى ﷺ فى قــول الله تعـالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحـمن] قال : « من شــأنه أن يغـفر ذنبـاً ، ويُفـرِّج كرباً ، ويـرفع قومـاً ويضع آخرين » قـال السيوطى فى الدر الـمنثور (٧/ ٦٩٩) : « أخرجـه الحسن بن سفـيان فى مسنده والبـزار وابن جرير والطبـرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابـن مردويه والبيـهقى فى شُعَب الإيمان وابن عساكر » .

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ .. ۞﴾ [السجدة] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. ۞﴾ [السجدة] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها فى عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هى التى تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۞﴾ [السجدة] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوِك ؛ لذلك الذى يعمله البشر فى ألف سنة تعمله الملائكة فى يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه فى قصة سليمان - عليه السلام - حين قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞﴾ [النمل]

وهذا الطلب من سليمان - عليه السلام - كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشرىٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدّى له عفريت ، وليس جِنِّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففى الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما فى الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. ۞﴾ [النمل] وهذا يعنى أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذى عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ۞﴾ [النمل]

يعنى : فى طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده فى لمح البصر ، قال : ﴿ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قَدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ﴾ [السجدة] أى : من سنينكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ .. (٦) ﴾ [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٦) ﴾ [السجدة] وأنه سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾ [السجدة] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الآمر لا بد أنْ يتابع المأمور .

وقلنا : إن عالم الغيب تعنى أنه بالأَوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنَّا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قوْل الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعِلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه . ومع عِزَّته فهو سبحانه (الرحيم) .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوِجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ - عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[1] .

وحين تتأمل الضلوع فى قفصك الصدرى تجد أنها لا تؤدى مهمتها فى حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التى تحنو على أهم عضوين فى جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة فى الحياة ، ألاَ تراها فى أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة فى حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج فى طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها ؛ لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته فى الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّى عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفى كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر - مَيْزة يمتاز بها ، فالرجل الذى تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قوىَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه فى قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « يعنى أنها خُلِقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون فى الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغى لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه فى شىء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيّأ لها ، وتعجب من تصاريف القدر فى هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما فى العطور ، ويعمل الآخر فى الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شىء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ [السجدة] فالإنسان الذى كرّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلِق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقى الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله فى فريضة كُتبت عليه مرة واحدة فى العمر ، وهى فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالى فى النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال فى مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِّن مَّاءٍ .. ۝ ﴾ [المرسلات] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ .. ۝ ﴾ [الكهف] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ ۝ ﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ .. ۝ ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ ﴾ [الحجر] .. الخ ، فأىُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشيء الواحد ، والمراحل لا تقتضى النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلِق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هى خلاصة الشىء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أننى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقْتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية فى هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا .. (٤٩) ﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذى يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هبَة من الله لَعوَّضه الله فى أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أى : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أى على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غِنَاه غِنى ، والله عليم يَهبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع فى المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذى يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٢٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) أى : خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر فى فتح البارى ١١/٣) .

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدْق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشىء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشىء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد(١) حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألَّف خلالها ٨٣ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [الأعلام ٣/٢٦٦] .

كله يمكن أن تُوضع فى نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل فى المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففى هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهى تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا فى عالم الذر : إن فى كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ (١) وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر] وقد مرَّ آدم - عليه السلام - فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرت ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق - عز وجل - وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

---

(١) قال الشيخ أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٣٣٤) : « المراد بـ (روحه) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشىء يأتى على عكس بنائه ، فـإذا أردنا مثـلاً هدم عمـارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال فى الموت ، أول شىء فـيه خروج الروح ، وهى آخر شىء فى الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسـد ، أو كما يقولون (شـضَّب) ، وهذه المـرحلة أشبـه بمـرحلة الصلصـاليـة ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبـخر ما فيه من مائية ، وتبقـى بعض العناصر التى تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للمـوت دليلاً على صِـدْق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذى لم تشـهده .

وقوله تـعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾ [السـجدة] سبق أن تكـلمنا عن هذه الأعضـاء ، وقد قرر علمـاء وظائف الأعضاء مهـمة كل عضو وجارحة ، ومتى تـبدأ هذه الجارحة فى أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هى الجـارحة الأولى التى تؤدى مهمتها فى الطفل ، بدليل أنك إذا وضـعتَ أصبـعك أمـام عين الطفل بعـد ولادته لا (يرمش) ، فى حـين يفزع إنْ أحـدثتَ بجواره صـوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعـد ولادته مباشرة ، أما الرؤيـة فتتأخر من ثلاثـة إلى عشرة أيام .

لذلك كـانت حاسة الـسمع هى المـصاحبـة للإنسان ، ولا تنـتهى مهمتها حتى فى النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمـأ : الطين الأسود ، ومـسنون أى : مصـبوب فى قالب إنسـانى ، أو مصـوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩) ﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأتْ البصر مفرداً - فى هذا السياق - إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة فى الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكى يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها فى مناطه ، فاللسان فى الكلام ، والعين فى الرؤية ، والأذن فى السمع ، والأنف فى الشم ، والأنامل فى اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هى أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التى نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التى نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فـلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفـاهم مـعهم ، وقـبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسـمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فـما تسمعـه الأذن يحكيـه اللسان ، فـإذا لم تسـمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا فى سـورة البقرة فى قـول الله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨)﴾ [البقرة] أن البَكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع ـ إذن ـ هو أول مهمة فى الإنسان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحـتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسمـاع يتم البلاغ عن الله من السمـاء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذِكرْ السمع على ذِكْر البصر .

والحق سـبـحانه لـما تكلَّـم عن السمـع بهذه الصـورة قـال : أنا سـأُسْمع أسـماء الأشـياء ، فـهـذه أرض ، وهذه سمـاء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتـاج إلى حاسّة البصر فى مهمة القـراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قـراءته بنفسه ، واختمـرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصـره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ..(٩) ﴾[السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوياً لديه الملكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) ﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى اللهُ آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١٢١/١ وعزاه لابن جرير الطبرى] .

قال ابن كثير فى تفسيره (٧٣/١) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذراتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس : حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون .. الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التى تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعانى التى نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغى أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهى ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهى ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التى فرضها الله علينا ، وفى عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكى يعفينا جميعاً من أنْ يفدى كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح فى عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحى ، ونؤدى النُّسُك فى الحج .

وما دام المؤمن ينبغى له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح فى الدنيا حتى يأتى يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩﴾ [يونس]

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ⑩﴾

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ .. ⑩﴾ [السجدة] أى : غبنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أىِّ شىء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ⑩﴾ [السجدة] يعنى : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ⑩﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هى أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ⑩﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق] والذى خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛

---

(١) عىَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. ⑮﴾ [ق] أى : لم نعجز ولم نَعْىَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أَوْلَى على الخلق مرة ثانية . [القاموس القويم ٢/ ٤٦] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛ لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

تلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهى نقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّاكُم .. (١١) ﴾ [السجدة] من توفيت دَيْناً من المدين . أى : أخذتهُ كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّى يُنسَب مرة إلى الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر]

ويُنسَب لملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر فى نَقْضها وسَلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم

بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت أذن لملَك الموت فى ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّى من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر به عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتُه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبضت روحه أى : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب فى الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك، كما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.. (١٠) ﴾ [السجدة]

فالذى يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً فى قصة سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّى أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

والخطاب هنا للنبى محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى - عليه السلام - تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذى فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعنى أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. (١١) ﴾ [السجدة] جاءت ردّاً على قولهم ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبَّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفى هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] أى : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ فى هذا الأسلوب دقة الأداء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢)﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً فى الإنسان أعلى شىء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة فى قوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠)﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكىء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس فى الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس فى الدنيا نُكِّسَتْ رأسه فى الآخرة ، ومَنْ تواضع لله فى الدنيا رُفعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[(١)] .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - سيفعل فى كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة فعلوا ذلك فى الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥)﴾ [هود]

أى : يطأطئون رءوسهم ؛ لكى لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق :

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/٤٦) من حديث أبى هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » ، وكذا (٧/١٢٩) عن عمر بن الخطاب أنه قال : يأيها الناس ، تواضعوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعالَ واجهنى ، هات عينى فى عينك . ولا بُدَّ أنْ يستخزى أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست فى صالحهم .

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذى يأتى من جنس ما فعل الإنسان فى الدنيا قول الله تعالى فى الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه فى الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس فى وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتى العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب فى الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن : قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هى الآية الوحيدة التى تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتى بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

وفى معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهى قول الله تعالى : ﴿ خَتَمَ [١] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع فى الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشىء آخر ، وهو الغشاوة التى تُغطِّى أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة فى السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى فى العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أى شىء أبصروه ؟ وأى شىء سمعوه فى قولهم ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] ؟ أول شىء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم فى الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه ولىٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] أى : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول فى البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أى : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧]
قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع فى اللغة واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[(١)] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[(٢)] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىِّ المشاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[(٣)] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٣/٧) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥٤٤/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٤/٧) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى : قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال فى حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هى تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه فى تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا فى قصة الهدهد وسليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذى قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

وقال ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبى بكر لما أدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال .. وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخِل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبى ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم؟ .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصِّدِّيق أبى بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين] يعنى : يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

---

(١) الخبء : كل ما غاب ، وهو كل شىء غائب مستور ، والخبء الذى فى السماوات هو المطر ، وفى الأرض هو النبات . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين] لكن يُنهى الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألهم الله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى علىَّ ، من خَلْقى ، إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاَّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلى .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين ألِفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه .. الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التى لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت فى حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى الهداية فى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى اللهُ جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذى أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ولكى نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧) ﴾ [فصلت] أى : دللناهم وأرشدناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه أنه هو الأَوْلَى بالحكمة فى الخَلْق ، بدليل أن الذى يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصى .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصى يعصى باختياره ليؤذى الناس بإثم الكافر وبإثم العاصى ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد فى الكون ولا خَلَلٌ فى حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذى أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله فى القمة كفراً به سبحانه ، وفى غيرها معصيةً لأمره هو الذى يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا :

إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أَخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي .. ⑬﴾ [السجدة] أى : وقع وثبت وقُطِع به ، ويأتى هذا المعنى بلفظ سبق ، كما فى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⑰١﴾ [الصافات] وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .. ②٧﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى حكايةً عن الكفار فى حوارهم يوم القيامة : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ③١﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬﴾ [السجدة] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعِدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعِدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها[1] ، كما قال سبحانه : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ④٣﴾ [الأعراف]

والجِنَّة : أى الجِنّ والعفاريت .

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٤٣٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩﴾ [المؤمنون] » . قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء فى آية أخرى ﴿ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** (٤٨) ﴾ [القمر] ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** (٤٩) ﴾ [الدخان]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التى كفرت بربها : ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** (١١٢) ﴾ [النحل] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولى على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التى لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ **لِبَاسَ الْجُوعِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو فى الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذى اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التى تستولى على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهى حين يستشرف فى القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح ، فقال :

خَطَراتُ ذِكْرِكَ تَسْتثِيرُ مودَّتى فأُحسُّ منها فى الفُؤاد دَبيبَا
لاَ عُضْوَ لى إلاَّ وَفيه صَبَابَةٌ[1] فكأنَّ أَعْضَائى خُلِقْن قُلُوبَا

وعلَّة هذه الإذاقة ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (١٤)﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة الذى حدَّثناكم عنه ، وحذَّرناكم من أهواله ، فلم نأخذكم على غرَّة ، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة ، فلا عذرَ لكم الآن ، وقد ضخَّمنا لَكم هذه الأهوال ، فكان من الواجب أن تلتفتوا إليها ، وأنْ تعتبروا بها ، وتتأكدوا من صدْقها .

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون ؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب .

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤)﴾ [السجدة] فأنتم نسيتم لقاء الله ، ونسيتم توجيهاته ، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم ، ونحن تركناكم ليس هملاً ، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم ، فقد كانت رحمتى تشملكم فى الدنيا ، ولم أخصّ بها المؤمنين بى ، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر .

فكل شىء فى الوجود يعطى الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التى لا تستحقونها ، بل : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [السجدة]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به فى دنيا محدودة ، وعمرك فيها محدود ، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم ، فخسارتكم كبيرة ، ومصيبتكم فادحة .

---

(١) الصبابة : الشوق . والصَّبُّ : العاشق المشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

وقلنا : إن العمل فى الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغى أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت فى الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهى ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك فى الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله فى الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هى صفقة ينبغى أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) ﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل] وفى موضع آخر قال سبحانه فى هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧) ﴾ [الإسراء] أى : من قبل القرآن ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلّة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلَّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[1] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[2] :

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/ ٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) **سبب نزول الآية** : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال : كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦)﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعَّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.

التجافى يعنى الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ[1] له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هى لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا أن الإمام علياً رضى الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلُّدى ، إلا أن لى فى التعزى بعظيم فُرْقتك وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ - يعنى : الذى تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أىُّ فَقْد بعدك - فلقد وسدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْرى[2] ونَحْرى نفسك ، أما ليلى فمُسهَّد ، وأما حزنى فَسَرْمَد[3] ، إلى أنْ يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها ... فَأَصْغها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يَطُل منك العهد ، ولم يخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام

---

(١) قليته قِلَى : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . والقِلَى : البُغْض . [اللسان - مادة : قلى] .

(٢) السَّحْر : الرئة والقلب . أى : أنها ماتت وهى مستندة إلى صدره . والنحر : الصدر وهو موضع القلادة منه . [اللسان] .

(٣) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [اللسان - مادة : سرمد] .

مُودِّع ، لا قالٍ ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أُقِم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة] أى : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل فى الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشى ، وبالقوة يحمل الأثقال .

فإذا ما أتعبه الحمْل وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشى بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشى وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو سمحت احمل عنى هذا الحمْلَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسى ؟

إذن : التعب فى هذه الحالة ناشىء من ثقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، ألاَ ترانا إذا أطال الإمام فى الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسِّع دائرة العضو المحتمل ، فثقَل الجسم فى حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعب حداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقى على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق فى النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذى تشعر به حال اليقظة - إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً - وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالى إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعِث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهى مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمى فى حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة فى اليقظة ، ولم تأتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم فى الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدى الله .

وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] ثم يقول سبحانه : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُجَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم فى الصلاة تُنسيهم التعب الذى يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : خوفاً مما حدث منهم من تقصير فى حق الله ، وأنهم لم يُقدِّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : فى المغفرة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة] والمراد هنا الزكاة .

لذلك نرى فى قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..

(١٦)﴾ [السجدة] أن هذا التجافى كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن الصلاة بالزكاة ، فقال بعدها : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

[السجدة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ[1] أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازى عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى فى التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

وقال النبى ﷺ عن الجنة : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] إذن : كيف نُسمِّى هذه الأشياء ؟ وكيف نتصوَّرها وهى فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

---

(١) القرة : كل شىء قرَّتْ به عينك . ويقال : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم ألاَ ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥) ﴾ [الرعد] أى : أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هى على الحقيقة ففوق الوصف الذى تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذى يضربه لنا من شوائبه فى الدنيا ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير فى الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك فى ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥) ﴾ [محمد] وكان العربى إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس فى شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها فى فمه سكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟

وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[2] (٤٧) ﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكر . وقال أبو عبيدة : الغَوْل أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) أنزف القوم : نفد شرابهم . وأنزف القوم إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع [لسان العرب ـ مادة : نزف] . قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . [نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/٧] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. ﴿١٥﴾﴾ [محمد] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل فى الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل فى الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا فى الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التى لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصِفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّى هذا المثال مما يشوبه فى الدنيا .

ومن ذلك أن العربى كان يحب شجرة السِّدر أى النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى فى نعيم الجنة قال عنها : ﴿فِى سِدْرٍ[1] مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة] أى : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شىء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن] فنفى عنهن ما يُنغِّص على

---

(١) السدر : شجر النبق والسدر من الشجر سدران : أحدهما برى لا يُنتفع بثمره ، وثمره لا يسوغ فى الحلق . والسدر الثانى ينبت على الماء ، وثمره النبق أصفر مُرٌّ . [لسان العرب ـ مادة : سدر] . المخضود : هو الذى خُضِد شوكه فلا شوك فيه .

(٢) طمثت المرأة : حاضت . فهى طامث . والطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية . فمعنى لم يطمثهن إنس أى : لم يمسسهن أحد .

الرجل جمال المرأة فى الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى : السكون ، ومنه قرَّ فى المكان أى : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر فى مكان أو تشترى شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق .. الخ .

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التى لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى الريف ، فيقضى هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أى : استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعنى : لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعنى : لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففى الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعانى ، فلا ينبغى لها أنْ تطمع فى شىء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١)﴾ [طه]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معانى مادة (قرَّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أى : المسرورة ، أما العين الساخنة فهى الحزينة المتألمة .

ومن المعانى أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لعِلَّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التى دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك . ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لى ، إنما دعتْ علىَّ ، فهى تقصد أقرَّ الله عينك يعنى : أسكنها فلا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك . أى : أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شىء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أخفاه لعباده المؤمنين فى الجنة بأنه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] وهذه أثارت معركة بين العلماء هى معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أى : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

وقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[١] الله برحمته»[٢] .

فلما حميَتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع فى نِعَمه دون أنْ يطالبه بشىء حتى بلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء فى الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدى ما كلَّفك ربك به كأنك تجازى ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك فى الأولى ، وله الفضل عليك فى الآخرة .

ثم إن الحق - تبارك وتعالى - حين يُشرِّع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه فى ذاته فضل ، ألاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله يتغمدنى : يلبسنى ويتغشانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]

وحين يُحسِن العبد فى التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾

أولاً : نلحظ فى اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتى للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعى السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١٨)﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) **سبب نزول الآية :** أخرج الواحدى وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى بن أبى طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦] .

العمـوم لا خصـوص السبب ، فـراعى السيـاق خصوص السـبب فى مـؤمن وكافـر ، وراعى عمـوم الموضـوع فقـال ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ ⑱﴾ [السجدة] والقاعدة الـفقهية تقـول : إن العبرة فى القرآن بعـموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقـبة بن أبى معيط حين جادل علياً رضى الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شـباباً ، وأجلد[2] منك جلَداً ، وأذرب[3] منك لسـاناً ، وأحـدُّ منك سـناناً ، وأشـجع منك وجداناً ، وأكـثر منك مَـرَقاً . فـردَّ عليه علىٌّ ـ كـرَّم الله وجهـه ـ بما يدحض هذا كله ويبـطله ، فقـال له : اسكت يـا فاسق ، ولا مـوهبـة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقـد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استـعملتَ قـوة شبـابك وجلَدك وذَرَب لسـانك وشـجاعة وجـدانك فى الباطل وفى المعصية ، وفى الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمـعتْ الآية بين خصـوصية هـذا السبب فى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. ⑱﴾ [السجدة] وبين عموم الموضـوع فى ﴿لاَّ

---

(١) « ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعمـوم اللفظ لا بخصـوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعـدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيـات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمـيـة زوجـتـه فـيـتناول الحكم الـمأخـوذ مـن هذا اللفظ العـام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ..⑥﴾ [النور] غيـر حادثة هلال دون احتـياج إلى دليل آخر » [مـباحث فى علوم القرآن ـ مناع القطان ـ ص ٨٠ ـ نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م] .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصبر . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

(٣) الذرب اللسـان هو الحـادُّ اللـسان . والـذرب : الحـاد من كل شىء . [اللسـان ـ مـادة : ذرب] .

يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

وجاء قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨) ﴾ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأتِ الجواب مثلاً : لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الخصم هو الذى ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبى . فتستطيع أنْ تقول له : وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا ـ على سبيل الخبر منك ، لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتى وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨) ﴾ [السجدة] ولابد أن نقول نحن فى جواب هذا السؤال : لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه :

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية

أن المراد الجمع ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٩)﴾ [السجدة] أى : العموم ؛ لأنه أُخذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد فى جنسه جمع كثير ، كما فى قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩)﴾ [السجدة] ومن الفاسق إلى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٢٠)﴾ [السجدة] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذى يناسبه :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .. (١٩)﴾ [السجدة] والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى فى شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقوِّمات الحياة (ومعين) يعنى : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣)﴾ [هود] فنبَّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

ونلحظ فى هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحِّحها له ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، ألاَ

ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلمان الفارسى وهو من غير العرب بالمرة : « سلمان منا آل البيت »[(١)] .

وإنْ كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست خصوصية للأنبياء ، إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** .. ⟨٢١⟩ ﴾ [الطور]

وإلحاق الأبناء بالآباء فى الحقيقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم فى الجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإنْ كان الأولاد دون سِنِّ التكليف فطبيعى أنْ يلحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرُّشْد ليس لهم أماكن محددة ، إنما ينطلقون فى الجنة يمرحون فيها كما يشاؤون .

وقد مثَّلْنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك فى زيارة أحد الأصدقاء ، فتجلس أنت فى حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير يجرى فى أنحاء البيت ، ويدخل أى مكان فيه لا يمنعه أحد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة[(٢)] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

(٢) عن أبى حسان قال قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم « صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويه - فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلى على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها فائدة فهى عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلى على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [السجدة] أى : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعَدّ لينزل فيه الضيف الطارىء عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التى نراها الآن ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾

﴿ فَسَقُوا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] من الفسوق أى الخروج ، نقول : فسقتْ البلحة يعنى خرجت عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] قلنا : إن المأوى هو المكان الذى تأوى إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قـالوا : المأوى المكـان الذى ينزل فيـه الإنســان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فـينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخريـة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) ﴾ [آل عمران]

ومعـلوم أن البشـرى لا تكون إلا بالشـىء السَّار ، ومـثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] ، وهذا كثير فى أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانـه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخـرف] إذن : لا أمل لهم فى الخـروج ، ولا حـتى فى المـوت الذى يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة فى العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستـولتْ على كل الأعضـاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جـزاء ما كانوا يكذبـون بها فى الدنيا ، حـيث كذَّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتـصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه فى الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ (١) دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن كثير غيره . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر . [تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢] .

﴿ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ .. (٢١) ﴾ [السجدة] أى : القريب والمراد فى الدنيا ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ .. (٢١) ﴾ [السجدة] أى : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذى سيصيبهم فى الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السجدة]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب فى دار التكليف كالأَسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود(١) مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم(٢) على أبى جهل فى إحدى الغزوات ، وقد طرحه فى الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعى الغنم(٣) .

ووصف العذاب فى الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذى لا مهربَ منه ولا ملجأ .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، من أكابر صحابة رسول الله ﷺ فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، كان قصيراً جداً يكاد الجلوس يوارونه ، ولى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبى ﷺ ، ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن نحو ستين عاماً .

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً قصيراً . وقال إبراهيم التيمى : أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه فقال رسول الله ﷺ : أتضحكون منهما ؟ لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد . [ابن سعد فى الطبقات الكبرى ١٤٣/٣] .

(٣) كان هذا فى غزوة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبى جهل فى القتلى ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل ، فوجده بآخر رمق ، فوضع رِجْله على عنقه ، وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . ثم احتز ابن مسعود رأسه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٦/٢ ، ٢٧٧] .

وقولـه سبحـانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السـجدة] أى : رجاء أنْ يعودوا إلى سـاحة الإيمـان . وقلنا : إن لعلَّ تفيـد الرجاء المـحقق إنْ كان الفـعل من الله عز وجل ، أمـا الرجاء هنا فـرجاء فى العـبد الذى يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾

هنا أيضاً يعـرض علينا ربنا ـ تبارك وتعـالى ـ هذه القضـية فى صورة هذا السـؤال التقـريرى ، كأنه سبـحانه يقول لـنا : أنا رضيت ذمتكم يا عـبادى ، فقـولوا لى : هل يوجد أحد أظلم مـمَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبـيعى أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار منّا بهذه الحـقيقة ؛ لذلك عرضـها الحـق سبحانه فى صورة سؤال بدل الإخبار بها .

ومعنى ﴿ ذُكِّرَ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] أى : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القـديم الذى أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] وسبق أنْ قُلْنا : إن فى كل منّا ذرةً شـهدتْ هذا العهـد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة فى نفـسه بأنْ يُغـذِّيها بالحـلال ، ويُعوِّدها الطاعـة لتبـقى فـيه إشراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان ولكل الأمكنة .

و ﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أي : التوراة ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أي : في شك ﴿ مِّن لِّقَائِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَيٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج في أنهما التقيا فيه صادقاً[1] .

لذلك في القرآن آية ينبغي أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبيء بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية في لقاء موسى والأخرى في لقاء كل الرسل[2] . إذن : علينا أن نصدق بحديث

(١) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أُسْرِى بى موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » رواه قتادة عن أبى العالية الرياحى . وقال : يعنى به ليلة الإسراء . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٦٣) .

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية (الزخرف : ٤٥) أى : واسألهم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له . [تفسير ابن كثير ٤/١٢٩] .

الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ..(٢٣)﴾ [السجدة] أى : لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسِرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ألم يواجه عبد الله بن سلام[(١)] قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[(٢)] ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التى اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدِم هذا النبى ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠] .

(٢) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ومن لقاء الكتاب الذى وعد به النبى ﷺ ما رُوى عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أنْ يؤمن أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْتٌ - يعنى : يتبجحون بالكذب - فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ . فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ أعلن إسلامى ، فلما اجتمع اليهود سألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا ... فقال عبد الله : أما وقد قالوا ما قالوا يا رسول الله فأشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[1] ؟

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣)﴾ [السجدة] أى : جعلنا الكتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن لهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من باطنهم، إنما إمامة القدوة بأمر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

---

(١) بعدما أسلم عبد الله بن سلام قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه . قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

.. ﴿٢٤﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هدى من الله .

وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]

الإيقان : هو الإيمان الذى لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعنى : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة فى النفس .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم فى القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك فى وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير فى هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص فى الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهى لله وحده لا يمكن أنْ يدَّعيها أحد ؛ لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهى مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتى فى مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل من الملائكة المدبرات أمراً لتدبر أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] أى : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً فى الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة فى الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكَ .. (٢٥)﴾ [السجدة] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذى سيتولَّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعةً من حكم حاكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلم عن الرسالة التى أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد فى الناس عقيدة أعلى ، وهى عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهى هذه

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته فى الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذى خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر وننصرف ، إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته فى الكون ، وحين يأتى مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على غرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامى هذا بمنتهى التدبُّر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التى يريدها لما نبَّه عقلَك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفِّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعدما تمشى فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد . فالذى يريد أنْ يغشَّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال فى قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، فى حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُحثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها - والحق سبحانه يريد ألاَّ يترك عذراً لأحد فى البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله فى الكون .

ثم يأتى الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القومَ ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتى بآيات الأحكام التى تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة فى تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أنْ تُظهر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة فى المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذى هو خليفته فى الكون تصيبه غفلة حين ينخرط فى أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك نجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقى عندى حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهى آيات واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً مَن ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إننى أُسيِّر الريح ، أو أُنبِت الزرع ، أو أُنزِل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تنْسَ أيها الإنسان أنك خليفة لله فى الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه فى الدنيا ، فاغترَّ بما فى يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُسْتخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتى من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر فى الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلِم ما يأتى : أن كل شىء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدى مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد فى الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصلُحت له الأشياء التى تدخَّل فيها ، كما صلُحَتْ له الأشياء التى لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا فى أداء حق الله فى الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج .

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التى لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التى شهدت العهد الأول الذى قال الله فيه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

أى : قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التى وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذى أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة فى نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبى ﷺ يضرب لنا المثل فيقول : « تُعْرض الأمانة - أى : التكاليف الاختيارية من الله - على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْرِبها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السموات والأرض ، والآخر أسود مُربَاداً كالكوز مُجَخِّياً[1] ممقوتاً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2] .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصى .

---

(١) مرباداً : أسود عليه غبرة . والتربد : التلوّن [اللسان - مادة : ربد] والكوز المجخّى أى : المائل الذى يصب ما فيه . وهو هنا المائل عن الاستقامة ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [لسان العرب - مادة : ج خ ى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ومسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان من حديث حذيفة بن اليمان . ولفظه : « تُعرض الأمانة » .

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح فى المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْن لله تعالى ، فكل شىء فى الوجود مُسبِّح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.. (٤١)﴾ [النور]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية فى ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته فى الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها - عز وجل - فهى مُسبِّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عَاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصى أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها فى عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه[١] ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً فى نومه وفى يقظته ، فإذا رأيتَ

---

(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟ قال : « تنام عينى ولا ينام قلبى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين .

إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعُدْ صالحاً للتعايش معى .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التى سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦)﴾ [السجدة]

كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[2] (١٠)﴾ [الفجر]

فهذه الأهرامات التى يَفِد إليها الناس ، والتى تُعَدُّ مزاراً سياحياً هى آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التى

---

(١) جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) نقل ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٠٨) أقوال السلف فى تأويل الأوتاد :

« - الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . قاله ابن عباس .

- كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .

- كان له ملاعب يُلعب له تحتها من أوتاد وحبال . قاله قتادة » .

وقال الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه « القاموس القويم ٢/٣١٨ » : « لعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون تشبه الجبال » .

تثبت صدق الرسـول فى البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أقضية الحياة ، والتى لا يمكن لبشـر أنْ يستدرك عليها ، والتى تحمل الحلَّ الشافى والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

فها هى آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها فى الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] يهدى : أى : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هاد ومهدىٌّ والشىء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل فى كتابٍ الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادى ، وهو الله عز وجل ، **والثانى** : أن يُذكر المهدىّ وهم الخَلْق ، **والثالث** : وهو أن يُذكر المهدى إليه ، وهى الغاية التى يريدها الله .

وهذا الفعل يأتى مرة متعدِّياً بنفسه ، كما فى سورة الفاتحة : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة] أى : يا الله ، فالله هو الهادى ، ونحن المهديون ، والغاية هى الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما فى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا

.. ﴿٤٣﴾ [الأعراف] فلم يَقُلْ : هدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما في : ﴿ .. وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]

فتلحظ أن الهادي واحد وهو الله تعالى ، والمهديّ هو الخَلْق ، لكن المَهْدَى إليه هو المختلف ، أما في هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة] فلم تدخل اللام على المَهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقُلْ الحق سبحانه : أولم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر .. الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواهٍ ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التي لا مطلوبات لها .

والذي يرى في التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه في الشهوات وتحدُّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً في التفوق الذي ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقي مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التي تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من

الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها فى الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذى كلفنى لا يحتاج منى إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتى بشىء ، بل هو سبحانه يتحنن إلىَّ ؛ لأكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام فى ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدى لا الهادى ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَّغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى ـ لمن فطن ـ قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [لقمان] فالهدى ليس حِمْلاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التى أرادها الله لهم .

فما الذى بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهى بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أى : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ،

والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً من الأمم التى عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التى انتهوا إليها :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ومن مصلحتنا أن يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن قوله تعالى - من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التى ينبغى ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبى أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما فى قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرِن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلى ، عصر صدر الإسلام ، عصر بنى أمية ، العصر العباسى ، عصر المماليك ،

---

(١) قال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] هم قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال : قوم صالح وقوم شعيب . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قال : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وفرعون وقومه . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٦٣] .

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا فى الحياة التى نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى فى الماديات ، وإلى أدنى فى المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من ربْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار فى القيم وفى الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران فى خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة فى الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا فى العصر الحجرى ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن فى عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط فى الماديات ، لكن منحدرون فى المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادى جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله فى الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيَّن لنا : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فأنا الذى أنزلتُ ، وأنا الذى ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : أننى لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هى شاخصة أمامكم تمرون

بها ، وترونَها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ لم يَرَ ظالماً ألم يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذى لا ينتظر الآخرة ، بل يُعجل لهم فى الدنيا .

وفى ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع فى الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد فى الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شىء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لم يَعُدْ كان عبرة لغيره .

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه . وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا .. (١٢٩)﴾ [الأنعام] فكأن الظالم له رسالة ، هى أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإنِ اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ لكفار مكة : « اذهبوا فأنتم

الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لى ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفى موضع آخر سيقول ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] ويقول : ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] فينُوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآنى بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ.. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخى ، فناسبها ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب ـ مادة : جرز] فهى الأرض الجدباء التى لا نبات فيها أو التى أُكل نباتها أو هلك لأى سبب . [القاموس القويم ١/١٢٠] .

مرئية ، فناسبها ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] فهذا ينبغى أنْ يُسمع ، وهذا ينبغى أنْ يُرى .

وفى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَهْلَكْنَا.. (٢٦)﴾ [السجدة] لنعتبر بإهلاك المكذبين فى الماضى ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته فى الكون ، فيأتى الفعل ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ.. (٢٧)﴾ [السجدة] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففى كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أى : المجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال فى الحال وفى الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال فى ختامها ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨)﴾ [الكهف] فالجُرُز هى الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحَّ عليه فجفَّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧)﴾ [السجدة] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذى يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهى من الأمام ، فالذى تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ .. (٩)﴾ [فاطر]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما فى هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل

إلى الأرض ساقه فى الأنهار ، أو سلكه ينابيع فى الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا - عز وجل - جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع فى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً - أرض خصبة - قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1] .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء ، وتُخرِج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التى لا تُمسِك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢) ﴾ [الحجر] وقال سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** (٣٠) ﴾ [الملك]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٩٩/٤) وابنه عبد الله فى زوائده على المسند (٣٩٩/٤) ، والبخارى فى صحيحه (٧٩) كتاب العلم (٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى .

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطِن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ينابيعَ فى باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلى يختلط فيه العذب بالمالح ، لا .. إنما يسير الماء العَذْب فى شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** (١٩) **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ** (٢٠)﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ** .. (٢٧)﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدى من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿**أَنَّا نَسُوقُ** .. (٢٧)﴾ [السجدة] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان فى الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام فى الغالب ما تأكل من

الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهى الأنعام .

وأشرْنا إلى أن دقَّة البيان القرآنى اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

ولك أنْ تقرأ فى مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

فقال فى الأولى ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال فى الأخرى ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك فى النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة فى مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٨)﴾

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشىء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين بُعث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ

خـالفه ، وأن ربه - عـز وجل - مـا كان لـيرسله إليـهم ، ثم يُسْلمـه أو يتخلى عنه ، فهـو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهـذه سنة الله فى أنبيائه ورسله ، حيث قال سـبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفـاً لم ينتصر فيه المـسلمون ، حتى فى حـياة الرسـول ﷺ وحيـاة الصـحابة ، فـاعلم أن الجندية عندهم قـد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا فى حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

وحـين نتـأمل الأحـداث فى (أحُـد) نجـد أن الله تعـالى يقـول للمسلمـين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحمـيكم أو يُخرِجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة لله فى كونه لا تتبدل .

ففى (أُحُد) خالف المسلمون أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمـعاً فى الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشـركون ، وكانت النتـيـجة لا نقـول انهـزموا ، إنمـا هم لم ينتـصـروا ؛ لأن المـعركـة (ماعت) والرسول موجود بينهم[1] .

والبعض يرى فى هذه النتـيجة التى انتـهتْ إليها الحـرب فى أُحُد مأخذاً ، فيـقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسـول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعـينهم عاقـبة مـخـالفتـهم لأمر رسـول الله ، وأنْ يشعـروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير أخا بـنى عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنـا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشـام ٣ / ١٠) وأورد البيهقى فى دلائل النبوة (٣ / ٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعـهم للفوز بالغنائم ، فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكـم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيـبن من الغنيمة ، فمـال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً » .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة فى أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه فى أُحُد وانتصروا !!

كذلك فى يوم حنينٍ الذى قال الله فيه : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. (٢٥)﴾[التوبة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم فى النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص فى الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأننى لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكَمى مكان احترام ولا توقير .

وهنا يحكى الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] أى : النصر الذى وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُسْتضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] تعجب عمر حتى قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أنْ نحمى أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سَيُهزم الجمع ويولون الدبر[١] .

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جَمْع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ فى أرض بدر ، ويشير بعصا فى يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد[1] .. الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أَخْذٌ وردّ وكرّ وفرّ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب فى قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة على الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف فى قوله تعالى حكايةً عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون فى حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ، ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدرى ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٩٦) ﴾ [الأعراف] أى : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا فى كلمة العين ، فتأتى بمعنىً العين الباصرة . تقول : رأيت فلاناً بعينى ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن منى أى : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروى أرضه من عينى أى : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أى : جواسيسه . وهذا يسمونه : المشترك اللفظى .

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً فى الأمر المادى ، تقول : فتحتُ الباب أى : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل فى معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف] ففتحوا متاعهم الفتح المادى الذى يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوى ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتى الفتح بمعنى إظهار الحق فى الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى أهلُ اليمن القاضىَ (الفاتح) .

ويأتى بمعنى النصر والغلبة ، كما فى هذه الآية التى معنا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [السجدة] ولابد أنْ يقول المؤمنون فى إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون فى هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هى من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغى أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر إسرائه قال : « لقد أُسْرِى بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس »[1] ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ .

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أَسْرى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها فى ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا : إن الفعل الذى يستغرق زمناً هو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الفعل العلاجى ، إنما ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لا يعالج الأفعال ، فقط يقول كُنْ فيكون ، والفعل يتناسب مع زمنه تناسباً عكسياً ، فكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبارك وتعالى عن سؤالهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] بما يفيد أنه سؤال استبعاد واستهزاء ، فيقول سبحانه :

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ(١) لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾

أى : لِمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفتح إذا جاء أُسْدل الستار على جرائمكم ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظِركم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذا كانت لديه فُسْحة من الوقت ، أما الإيمان الذى يأتى فى النزع الأخير ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذى قال حين أدركه الغرق : ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس] فردَّ الله عليه هذا الإيمان ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن لا ينفع منك إيمان ؛ لأنك مُقْبل على الله ، وقد فات أوان العمل ، وحَلَّ أوان الحساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

---

(١) قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقتبى : يعنى فتح مكة . قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٧١/٧) : وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعنى يوم القيامة .

﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾ [السجدة] أى : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذى خلقكم يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

هذا المعنى كما نقول فى العامية (ادينى عرض كتافك) أى : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عَقِّبْ بعدَها وَعيداً   فَإنْ لَمْ يُغْنِ أَغنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْى أو حَدّ مُرْهَف

فالعاقل الوحى يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه : ﴿وَانتَظِرْ .. (٣٠)﴾ [السجدة] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أى : انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعد أنْ يتنبه إلى بشريته ، وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن

يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَفِ بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوى الوفاء ، لكنك لا تملك فى الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارىء ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك .. الخ .

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿انتَظِرْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] وبين ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيدَ لها من قوة إنفاذ .

ومعنى ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] أى : ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مُؤيَّد من الله مُرْسَل من قبله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى : ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ..

(٥٢) ﴾ [التوبة] أى : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التى تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

يعنى : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغى أن نسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق - تبارك وتعالى - فإذا جاءت هذه الآية التى تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك فى الصلاة .

فكأن فى هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرِج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن فى آيات سجود التلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله تُذكِّرنى به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفى فى شكرها السجود الرتيب الذى نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفى السورة أيضاً بعض الإشارات التى وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجى ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ فى نظرك ، إنما القبيح الذى يُخرِج الحُسْن التكليفى عن مناطه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ خلق كل شىء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ..(٧)﴾ [السجدة]

فإذا قَبُحَ الشىء فى نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ، وقُلْ إننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غنى ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبنى أم تعيب خالقى ؟ والمعنى أنه خلقنى لحكمة ، ولمعنى من المعانى .

وصدق القائل(١) :

لِلْقُبْح وَقْتٌ فِيهِ يَظْهر حُسْنُه وَيُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْمِ

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره فى كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التى تَتلَقَّى عن الله هى التى تستطيع أنْ تقف على أسرار الله .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .


سُورَةُ الأَحْزَابِ



ســورة الأحــزاب(١)



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾

قوله تـعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحـانه ، رسـول الله لقبه ، واسمه مـحمد ، واسمه أحمد كما ذُكر فى القرآن ، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُـسمَّاه ، بحـيث إذا أطلقه الواضـع انصرف إلى المـسمى ، والقوم الذين سُمُّوا لهم مـحيط يُعرفون فيه ، وغـيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط .

---

(١) سورة الأحزاب هى السـورة رقم ٣٣ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سـورة مدنية ، عدد آياتها ٧٣ آية ، نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسـول الله ﷺ وطعنهم فيه وفى مناكحته لنسائه وزواجـه ﷺ من ابنة عمتـه زينب بنت جحش وأدب دخول بيـوت النبى . وقد نزلت سورة الأحزاب بالمدينة بعـد سورة آل عمران وقبل سورة الممـتحنة فهى السورة رقم ٨٩ فى ترتيب نزول سور القرآن . [راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يُوضع لمسمّى ليُعلَم به ويُنادَى به ، ويُميِّز عن غيره ، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإنْ سُمِّى به بدايةً وجُعل علَماً على شخص فهو اسم ، وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضِعةٍ كما تقول : فلان الشاعر أو الشاطر .. إلخ .

فإذا أُطلق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها (محمد) فلا بُدَّ أن نقول : محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط ..الخ .

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤)﴾ [آل عمران]

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ..(٤٠)﴾ [الأحزاب]

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦)﴾ [الصف] وسبق أنْ تكلَّمنا فى علة هذه التسمية .

أما كنيته : فأبو القاسم . ولقبه : رسول الله .

وهكذا استوفى سيدنا رسول الله العَلَمية فى أوضاعها الثلاثة : الاسم ، والكُنْية ، واللقب .

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان ، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن ، أو يدل على الضِّعَة ، وهذه فى الغالب تحدث فى الأولاد الذين يُخاف عليهم العين ، فيختارون لهم لقباً يدل على الحِطّة والضِّعة وما أشبهه (بالفاسوخة) يُعلِّقونها على الصغار مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل ، وطبيعى أنْ يأتى لقبه ﷺ مُشْعِراً برفعة أيما رفعة ، فهى ليست عند الخلق فحسب ، إنما رفعةَ عند الخالق ، فلما وُلد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده . وقال : سمَّيْته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[1] .

ولما وُلد القاسم كُنِّى به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقّبه برسول الله وبالنبى ، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله ، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك .

فالرسول ﷺ رسول الله ونبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرّف عندكم ، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ١٧٠) أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدِّث أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله ﷺ ـ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سَمِّه محمداً .

فأحبُّ شيء فى الإعلام برسول الله أن نقول : محمد ، أو أبو القاسم ، أو رسول الله ، أو النبى ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً ، فلم يقُلْ يا محمد ، إنما بلقبه الذى يُشعر برفعته عند الحق سبحانه ، فقال فى ندائه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ .. (٦٥)﴾ [الأنفال] ، ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١)﴾ [المائدة]

ولو تتبعتَ نداء الله للرسل من لَدُنْ آدم عليه السلام لا تجد رسولاً نُودِى بغير اسمه إلا محمد ﷺ . أما لفظ (محمد) فقد ورد فى القرآن ، لكن فى غير النداء ، ورد على سبيل الإخبار بأن محمداً رسول الله .

وحتى فى الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

وقال : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠)﴾ [الفرقان]

إذن : فى النداء استقل بيا أيها النبى ، ويا أيها الرسول ، أما فى الإخبار فلا بُدَّ أنْ يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى .

ونُودِى ﷺ بيـٰأيها النبى ، ويـٰأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم مَنْ ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، نقول : يا سيدى فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. الخ .

وقد تقدمتْ (أَيُّهَا) على المنادى هنا ؛ لأن الاسم المنادى المحلَّى بأل لا يُنادى مباشرة إلا فى لفظ الجلالة (الله) فنقول : يا الله ، فكأن الحق سبحانه توحَّد حتى فى النداء ، هذا فى نداء المفرد .

والحق سبحانه نادى رسوله يٰأيها النبى ، ويٰأيها الرسول ، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ؛ ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ، ولم يُؤْمَر بتبليغها ـ وهذه مسائل خاصة بالنبوة ـ وله أمور أخرى أُمِر بها ، وأُمِر بتبليغها .

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله .

وكلمة (النبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به ، وأصْله من النَّبْوَة ، وهى الشىء العالى المستدير فى وسط شىء مستْوٍ .

فحين تقول : رأيتُ فلاناً اليوم ، هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ] أى : الخبر الهائل الذى هَزَّ الدنيا كلها ، وملأ الأسماع ، وزلزل العروش .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ۝١﴾ [الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام العربى مُقسَّم إلى خبر وإنشاء ، فالخبر نسبة كلامية كانت قبل النطق بها نسبة ذهنية ، وبعد النطق بها كلامية ، فإنْ كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والخبر هو القول الذى يُوصَف بالصدق إنْ طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن خالف .

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر يعنى : قولٌ لا يُوصَف بصدق ولا بكذب ، كأن تقول لإنسان : قِفْ ، فهذا أمر لا يقال لقائله : صادق ، ولا كاذب .

فقوله تعالى لنبيه ﴿ اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليحدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقى حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

نقول : ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشىء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان . أو : أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك فى بداية الدراسة : اجتهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه مجتهد ، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ فى بداية الأمر .

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة : ماض وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شىء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ⑬⑥ ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان ، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان ؛ لأن المعنى : أنتم آمنتم قبل أنْ أُكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامى ماض ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدثوا إيماناً جديداً ، حالاً ومستقبلاً ، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم ، وأنْ تستمروا عليه .

فمعنى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] أى : واصل تقواك حالاً ، كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً ، فلا تنقطع عنها أبداً .

أو : أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه ، والله كلَّف بأشياء ،

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء ، فـإذا قال الله لرسوله ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] فـهى غيـر قوله لنا : اتقـوا الله ، فالأمـر لنا نحن بالتـقوى . أى : نفّـذ ما فُـرِض عليك ، أمـا فى حق رسول الله فـهى بمعنى : ادخل فى مقـام الإحسان ، وجدِّده دائماً ؛ لأن مـراقى القبول من الله لا تنتهى ، كما أن كمالات العطاء فى الله لا تنتهى .

لذلك قـال ﷺ : « من استوى يومـاه فهـو مغبون »[1] أى : من استـوى يومه مع أمسـه فى قُرْبه من الله فـهو خاسـر ، لماذا ؟ لأنه ينبغى للمؤمن أنْ يزيد فى قُرْبه وفى مودته ، وعـلاقته بالله يوماً بعد يوم ؛ لأن نِعَم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً .

كما أن الحق سبحانه لا يكتفى من رسوله بما يكتفى به من سائر الخلق ، إذن : فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر الخَلْق ، التقـوى فى حق رسول الله مجالهـا واسع ، وللرسول مع الله فيوضات لا تنتهى .

لذلك حين يناديك ربـك للصلاة فى كل يوم خمس مـرات ، فاعلم أن فضله عليك غيـر مكرر ، بل فضله متجـدد ، فعطاؤه لك فى الظهر

---

(١) ذكره الزركشى فى « التذكرة فى الأحاديث المشتهرة » (ص ١٣٨) بطوله « من استوى يوماه فهـو مغبون ، ومن كان آخـر يومه شراً فهو ملعون ، ومـن لم يكن على الزيادة فهو فى النقصان فالموت خير له ، ومن اشـتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهى عن الشـهوات ، ومن تـرقب الموت هان عليـه اللذات ، ومن زهد فى الدنيـا هانت عليه المصيبات » وقال : « أسنده صاحب مسند الفردوس (الديلمى) من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن على مرفوعاً وهو إسناد ضـعيف » ، قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٤/ ٣٣٥) : لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى ﷺ فى الـنوم فـقلت : يا رسـول الله ، أوصنى ، فـقـال ذلـك بزيادة فى آخـره رواه البيهقى فى الزهد .

غير عطائه لك فى العصر ، غير عطائه لك فى المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممتداً .

ولذلك يحذرنا أهل الخير أن نداوم مع الله فى شىء من الطاعة ، ثم نقصر عنها ، كذلك يحذرنا الشرع أنْ ننذر لله ما لا نستطيع الوفاء به ، لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجملْ بك أنْ تظل فى مقام التطوع ، إنْ خفّت نفسك للطاعة أدِّها ، وإنْ قَصُرت فلا شىء عليك .

وكونك تفرض على نفسك شيئاً من الطاعات من جنس ما فرض الله عليك . يعنى : أنك أحببتَ الطاعة وحلَتْ لك العبادة ، حتى زدتَ الله منها ، فقلت مثلاً : نذرتُ لله أن أصلى من الركعات كذا ، أو أتصدَّق بكذا من المال ؛ لأنك رأيتَ فى الصلوات الخمس إشراقات وفيوضات من الله فزدْتَ منها .

والحق سبحانه يطلب منا حين ينادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور ، لكن المسجد خُصِّص للصلاة ، فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه . وأنت فى صلاة ما دُمْتَ تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيد البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاة فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخر عن تكبيرة الإحرام .

وقد ورد فى حديث سيدنا رسول الله : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٦٠٢) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهناك مطلوب إيمـان ومطلوب إحـسان : مطـلوب الإيمان هو مـا فرضـه الله عليك ، وجـاء فى الحديث القدسى : « ما تقـرَّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه »[(١)]

فإنْ أردتَ أن تتقرب إلى الله فتقرَّب إليه بما يحب ، ومن جنس ما فرضـه عليك ، فالله أمرك بصـلاة وصيام وزكـاة ، فإنْ حلَتْ لك هذه العبـادات فزدْ منها فوق مـا فرضه الله عليك ، وحـين تزيد اعرف أنه مسَّتْـكَ نورانية الإشراق فى العبـادة فقلت : الله يستحق منـى فوق ما كلَّفنى ، وهذا هو مقام الإحسان .

وسبق أنْ تحدثنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

وهل فرض الله على عبـده ألاَّ يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أنْ تُصلى العشاء ، وتنام حـتى صلاة الفجر ، كذلك فى الاستـغفار ، أما الذى لا يهـجع من الليل إلا قليلاً ويقوم فى السَّـحَر للاستغـفار ، فلا بُدَّ أنه حلَتْ له الـعبادة ، وحـلا له الوقوف فى حضـرة ربه - عز وجل - فدخل فى مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعـان : إحسان كم ، وإحسان كـيف ، إحسان الكم بأنْ تزيد على مـا فُـرض عليك ، فتـصلى فـوق الفرض وتُزكِّى فـوق الفرض ، أما إحسان الكيف فبأنْ تخلص فى عبادتك لله ، وأنْ تعبد الله

---

(١) جزء من حديث قدسى ، أخرجه البخـارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشـة ، وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى شرح هذا الحديث فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١/٨٧) بتحقيقنا .

كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك[1] يعنى : إذا لم يكُن لديك الإشراق والشفافية التى تريك الله ، فلا أقلَّ من أنْ تعبده على أنه يراك .

وساعة تدخل فى مقام الإحسان فأنت حرٌّ إذن فيما تقدم من الإحسان ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة] على حسب ما تخفّ نفسك للطاعة ، خفَّتْ لخمس ركعات ، خفَّتْ لعشر ، خفَّت لخمسة بالمائة فى الزكاة ، خفَّتْ لعشرة .. الخ أنت حر .

ألا ترى أن الحق سبحانه لما تكلم عن هذا المقام قال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] أما فى الزكاة المفروضة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

إذن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١) ﴾ [الأحزاب] أى : تقوى تناسب مقامك من ربك ؛ لأن عطاءات الله سبحانه لا تتناهى ، كما أن كمالاته لا تتناهى ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألته السيدة عائشة : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[2] .

يعنى : العبادة لا تكون لمجرد الثواب والمغفرة ، إنما هناك درجات وارتقاءات أخرى .

---

(١) هو حديث جبريل المشهور الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه فى صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والتقـوى : قلنا أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشـأ منه ضرر لك وقاية ، لكن كـيف نجعل بيننا وبين ربنا سبـحانه وقاية ، ومهـمة التقوى أن تندمج مع الله فى معيته ؟ هذا فى حق مَنْ يتحكم جيداً فى نفسه ، ويحملها على منهج الله .

قالوا : لأن لله تعـالى صفات جلال وصـفات جمال ، ولكل صـفة منها مطلوب ، فـالله تعالى غفـور رحيم ، وهو أيضاً سـبحانه القـهار الجبـار المنتقم ، الله سبحـانه هو الضار وهو النافع ، إذن : فصـفات الجمال هى التى تُؤتى الإنسان الخير الذى يحبه ، وصفات الجلال هـى التى تتـسلط على مَنْ يخالـف . فعلى العـبد دائمـاً أنْ يظل خائفـاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال .

إذن : تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأنك لستَ مطيقـاً لهذه الصـفات ، ولا تطيق مسَّـة خفيـفة من النار ، وهى جند من جنود الله فاحذرها .

وعرفنا فى مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما ، وأن الله يُشـفِّع بعض المؤمنين ، ويُشـفِّع الأنبيـاء والملائكة ، ثم بـعد ذلك تبقى شفاعة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله[1] ؟

---

(١) عن أبى بكر الصديق فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قـال : « عُرِض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيـشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجـىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الـخمسة والسـتة ، والنبى ليس معه أحـد . ثم يقال : ادعوا الشـهـداء فيشفـعون لمن أرادوا ، فـإذا فعلت الشـهـداء ذلك يقول الله : أنـا أرحم الراحمـين ، أدخلوا جنتى من كـان لا يشرك بى شـيئـاً فيدخلون الجنـة » الحديث أخرجـه أحمـد فى مسنده (١/ ٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

قالوا : أى تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب العبد ذنباً تتسلط عليه صفات الجلال لتعاقبه ، فتتصدى لها صفات الجمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق .

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] فهل حين يتقى رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا : جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام ، تقول : أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إذن : فعطف لا تُطع الكافرين والمنافقين على ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] بالالتزام .

والنبى ﷺ حينما جاء جاء على نظام كونى أعده الله تعالى لخَلْقه ، وحين خلق الله الخَلْق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة ـ أخذ عليهم العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ⑰②﴾ [الأعراف] فشهدوا لله تعالى قبل أنْ تتهيأ لهم المعاصى والشهوات .

فإذا أصابت الناسَ غفلةٌ أو نسُوا هذا العهد بعث الله لهم من رسله مَنْ يُذكِّرهم ؛ لذلك خُوطِب النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ .. ⑦﴾ [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ①⑥⑤﴾ [النساء] يعنى : ليسوا منشئين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقضية معلومة سلَفاً من الأزل ، وما هم إلا مبشرون بالثواب لمن أطاع ، ومنذرون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أنْ يكونوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة وألاَّ يغفلوا عنها .

والغفلة تأتى إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعبادة أو وسوسة من غير مطيع فى أذنك ، سواء أكان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وقلنا : إن المنحرف يحسد المستقيم على استقامته ، لكنه لا يستطيع أنْ يتحمل تبعات هذه الطاعة ، فلا أقلَّ من أنْ يحاول أنْ يجذب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التى له ؛ لذلك حين يوسوس لك صاحبك بشىء من معصية الله فأول شىء ينبغى أنْ تفطن إليه أنه يكرهك ، ولا يريد لك الخير الذى يعجز هو عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أنْ تتميز عليه بشىء .

إذن : الكافرون والمنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أنْ يحملوا أنفسهم على منهج الله ، ولا أنْ يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقلَّ من أنْ يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج الجديد الذى جاء به رسول الله .

وقلنا : إن الرسول لم يأتِ إلا لضرورة ، هى انطماس معالم المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع فى النفس البشرية أولاً ثم فى المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تُذكِّره النفس اللوامة وتردُّه عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمتْ فيه النفس الأمَّارة بالسوء وصرفتْه عن الخير كله ، فلم يَبْقَ له رادع إلا فى المجتمع الإيمانى الذى يقوم بدوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذه هى ميزة الخيرية فى هذه الأمة التى قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فإذا انطمس هذا المبدأ فى المجتمع أيضاً حتى لم يَعُدْ فيه آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء بإيقاظ جديد برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها برسولها أن الله منحها هذه الخيرية ، بحيث لا يعدم فيها الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر أبداً ؛ لذلك لا يجىء رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنها أمة مأمونة .

ولا بُدَّ للأمة التى توفرتْ لها هذه المناعة الجماعية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أنْ يكون لها وَعْىٌ إيمانى وفهم جيد لهذه المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة الإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول الله حين قال : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالمشرِّع قدَّر عدم الاستطاعة ، فجعل لكل خطوة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر مجالاً : متى أُغيِّر المنكر بيدى ؟ ومتى أُغيره بلسانى ؟ ومتى أغيره بقلبى ؟

أغيره بيدى فيمن أملك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير ، فإنْ كان المُنْكَر ممن لا ولايةَ لى عليه ، فعلىَّ أنْ أغيره بلسانى فى ضوء قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] بالأسلوب الحسن الجميل ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٣) وأبو داود فى سننه (١١٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

لكن نجد بعض الدعاة يدعون على غير بصيرة ، فيغفلون مسألة الاستطاعة ، ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجالاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله باليد ، وهذا مخالف لأمر رسول الله .

فإنْ توقعتَ أنْ يصيبك ضرر فلتغير المنكر بقلبك ؛ لأن الهدف أن تستقطب المنحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا تجمع عليه شدتين : الأولى أنْ تُخرِجه مما يألف ، والثانية : أنْ تُخرِجه عما يألفه بما يكرهه .

ويخطىء الكثيرون فى فهم تغيير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول فى نفسك : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك وأنا أنكره ، هذا مجرد إنكار باللسان والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم ، إنما يريد منا عمل القلب الذى يتبعه عمل الجوارح ، فقالبك فى هذا الإنكار تابع لقلبك .

فحين ترى مَنِ استشرى فى العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على نهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ، ولا تستطيع مواجهته ، فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهملاً له ، فلا تجامله فى حزن ولا تُهنِّئه فى فرح ولا تساعده إن احتاج .. الخ .

عليك أنْ تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه الجميع هذا الفعل ، وسلكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع .

لذلك لم نر النبى ﷺ صنع سجناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم فى عزل المجتمع الإيمانى لهم ، أو سجن المجتمع عنهم ، لا يكلمهم ولا يتعامل معهم ، حتى الزوجة عزلها الشرع عن زوجها لا يقربها حتى يقضى الله فى أمره .

أتذكرون قصة كعب بن مالك[١] ، وكيف عزله المجتمع الإيمانى وكان من الثلاثة[٢] الذين خُلِّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، حتى قاطعه أقرب الناس إليه ، فلما تسوَّر الحديقة على ابن عمه وقال : تعلم أنى أحب رسول الله فلم يرد عليه .

وتأتى زوجة[٣] هلال إلى رسول الله وقد كان أحد الثلاثة أيضاً ، وتقول : يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له ما للرجال فى النساء ، فقال لها : اخدميه لكن لا يقربنك . وقد ظل هؤلاء فى هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

هكذا التزم المسلمون الأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقول سجن المخالف ، إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هى سبب الأزمة التى تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذى يعيش بيننا ، أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه ، بل لأهل الحى والشارع ؟

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال :

---

(١) هو : كعب بن مالك الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، إلا تبوك ، تخلف عنها ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً .

(٢) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

(٣) هى : خولة بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/ ١٢١] ، ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأته جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

لا ليس عندى وقاطعه ؟ هل سلَّم واحد منهم على شخص ، فلم يردّ عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية ، ويتحمل الإثم عليها ؛ لأنه تستَّر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول : إن المجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وينبغى قبل أنْ نتكلم عن المجرم نتكلم معه نحاوره وننصحه ونحسن إليه قبل أن نقاطعه ، نفهم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »(١) ولم يقل على سلطان جائر . فقبل أنْ نفضحه ونُشنِّع عليه يجب أنْ نتكلم معه ، وأنْ ننصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أنْ ترده إلى الجادة فيقبل منك ، وعلى الأقل لا يضرك ، إنما آفتنا أننا نُشنِّع على المجرم، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له .

لذلك قال العربى فى صفات الناس : إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإنْ لم يعلموا كذبوا .

إذن : معنى التغيير بالقلب أن يكون قالبك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكلِّفك شيئاً ، على خلاف التغيير باليد أو باللسان ؛ لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف .

وبعزل المجتمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإجرام ، وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملّقوهم وتودَّدوا إليهم ربما لاتقاء شَرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

لذلك جعل الشارع الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده ، إنما على العاقلة أى : على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها ، والأخذ على أيدى المنحرف منهم ؛ لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق - سبحانه وتعالى - حين وضع المنهج الذى يُنظِّم حياة الخَلْق يريد سبحانه الخير لخلقه ، وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه بشىء ، فلو أن الخَلْق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى مُلْك الله شيئاً(١) .

ثم هو سبحانه خلق الإنسان ، وحدد مهمته فى الحياة ، ووضع له قانون صيانته فيها ، كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذى صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة فى عملية غسيل الملابس ، فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ، ولم يحدث أنْ صنع صانع آلة ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أنْ تُستخدم .

لذلك ، فَشَلُ العالم كله يأتى من أن الخَلْق يريدون أنْ يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانته ، ويغفلون أنه صنعة الله ، والذى يحدد مهمة الصَّنْعَة هو صانعها .

والحق سبحانه حدَّد لنا مهمتنا فى الحياة قبل أنْ يستدعينا إليها ،

---

(١) قطعة من حديث قدسى طويل ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

واقرأ إنْ شئتَ قولَ ربك : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ ﴾ [الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له المنهج ، وحدَّد له مهمته وقانون صيانته فى قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صَنْعته أولاً ، فإنْ حدث فى هذه الصنعة عَطَب فيجب أنْ تُردَّ إلى الصانع ، وإلى قانون الصيانة بافعل ولا تفعل ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق ، وهو الذى يعلم ما يصلح صنعته ويضمن سلامتها ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك]

ويقول تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ۝٥٩ ﴾ [النساء]

إذن : فآفة المجتمع البشرى أولاً : أنه يريد أن يُحدِّد لخَلْق الله مهمتهم ، وأن يتدخل فى صنعة ليست صنعته . ثانياً : حين يفسد المجتمع يجعلون له قوانين إصلاحية من عندهم ، وهل تركنا الله بدون منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حزبه أمر أو عَزَّ عليه شىء يُهْرع إلى ربه ، ويقف بين يديه فى الصلاة ، كما تعرض أنت آلتك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عطب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشىء مادى .

أما الحق سبحانه فغيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون الغيب ، بحيث لا تدرى أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك - عز وجل - تعود مُنْشرح الصدر ، راضياً طيِّب النفس .

الحق سبحانه يقول لرسوله : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..

(١) ﴾ [الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحق ، وأنْ يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد فى الكون أنْ يحب الإنسان أنْ يأخذ خير غيره ، وأن يكون دمه من عرق الآخرين ، فإذا جاء مَنْ يعدل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد ؛ لأن دعوته تتعارض ومنافعهم .

والحق سبحانه بيَّن لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله فى الرسل أنْ تكون لهم الغلَبة فى نهاية الأمر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالله تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : استقامة على إطلاقها ، فمَنْ منكم يرينا فيه التواءً أو اعوجاجاً؟ ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

فالصراط المستقيم واحد ، وسبيل الحق واحد ، أما الباطل والفساد فله سُبُل شتى ، وقد نبهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خَطَّ للصحابة خطاً واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خطوطاً[1] ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٦٥) والحاكم فى مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ﴿١٥٣﴾ [الأنعام]

وتعلَّمنا فى علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خَطَّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف فى بداية الطريق عدة سنتيمترات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات .

إذن : الطريق المستقيم هو الذى يُسهِّل لك السفر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقُّ عليك ، حتى أنت فى لغتنا العامية تقول لصاحبك : (تعال دُغرى) أو تقول (بلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴿١٥٣﴾ [الأنعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال ، وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ .

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا بُدَّ أن يتصادموا معه ؛ لذلك ينبه الحق - تبارك وتعالى - نبيه ﷺ : أول مراتب التقوى أن تتقى الله وحده ، ثم لا تُطع الكافرين والمنافقين ؛ لأنهم يريدون أنْ يأخذوك للشر والله يريدك للخير .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾ [الأحزاب] تعنى : أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأى والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتكَ فيه أمر من الله ؛ لذلك نزل سيدنا رسول الله فى غزوة بدر على رأى الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] لما قال

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ثم السلمى . قال ابن سعد وغيره : شهد بدراً . وكان يكنى أبا عمر . قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة ١ / ٣١٦] .

له : يا رسول الله ، أهذا منزلٌ أنزلكه الله ، أم هو الحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة » ، فقال : إذن هذا ليس لك بمنزل(١) .

وقد أشار سلمان الفارسى(٢) على رسول الله بحفر الخندق فأخذ بمشورته ، والقاعدة الشرعية تقول : لا اجتهاد مع النص . فإذا لم يكُنْ فى المسألة نصٌّ فلا مانع من أنْ تطيع المؤمنين الناصحين لك ، المشيرين عليك بالخير .

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نُصْح الناصحين ، ولم يحرمه مشورة أهل الرأى .

وقد اختلف الناس حول استشارة الحاكم : أهى ملزمة له أم غير ملزمة ؟ وإجابة هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فللحاكم أنْ يسمع المشورة ، وأنْ يقارن بين الآراء ويفاضل بينها ، ثم يكون له وحده القرار النهائى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] أى : أنت وحدك .

وفى العالم المعاصر نرى الأنظمة إذا احتاجت إلى أَخْذ الآراء فى موضوع ما ترجح الجانب الذى به الرئيس ، وهذا لا يصح ، فالآراء

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩) وعزاه لابن إسحاق ، وتمامه أن الحباب ابن المنذر قال : : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال ﷺ « لقد أشرت بالرأى » .

(٢) سلمان الفارسى صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، جاب البلاد طلباً للحق وقرأ كتب الفرس والروم واليهود . ثم أسلم وآمن برسول الله ﷺ ، وقال عنه : سلمان منا أهل البيت ، جُعل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفى عام ٣٦هـ ، كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

تنير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير ؛ لأن الحيثية التى انتخبته من خلالها أنك تشهد له بالتفوق ، إذن : فهو الذى يرجح أحد الآراء .

وفَرْق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوِّض رئيس الدولة شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور ، أو اتخاذ قرار ، فهى صاحبة الرأى ، وحين تعرض عليه ما توصلتْ إليه يعطيها الموافقة ؛ لأنه فوَّضها فى هذا الأمر ، إذن : التفويض يجيز لك اتخاذ القرار ، أمَّا المشورة فتقف عند عرض الرأى فحسب .

والرسول ﷺ كان لا يريد الخروج لغزوة أُحُد ، لكن لما شاور صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب ، ولبس لها ملابسها ، ثم عادوا إلى رأيه ﷺ فى عدم الخروج . فقال ﷺ : « ما كان لنبى يلبس لامة الحرب ... »[1] .

وحدث ما حدث فى أُحُد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر رضى الله عنه ـ فلم يستمع لمشورة المسلمين فى حرب الردة وصمَّم عليها[2] ، وقال : والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعنى : بالحصى ، وانتصر

---

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١٢٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

(٢) قال البخارى فى صحيحه (كتاب الاعتصام ـ باب قول الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] (١٣/٣٣٨ ـ فتح البارى) : « لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ فى الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبى ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » .

الصِّديق ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دين الله من فتنة كادت تذهب به .

إذن : فاجعلوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرجِّحاً ، فيأخذ منكم جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً .

وهنا فَرْق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات التى ينبغى أن نكون على علم بمدلولها : الإيمان والكفر والنفاق والجحد .

الإيمان : الإنسان منا له قلب يحمل النوايا ، وله قالب يعبر عنها ، كما قال الشاعر :

إنَّ الكَلاَم لَفِى الفُؤادِ وإنَّمَا ... جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤادِ دَليلاً

فالإيمان هو الحق الذى يعتقده القلب ، ويقتنع به ، ويوافقه اللسان والقالب ، أما إنْ وافق اللسان القلب فى الباطل فهذا هو الكفر .

لذلك قلنا : إن الكافر منطقى مع نفسه ؛ لأنه نطق بما فى قلبه ، لكنه غير منطقى مع الحق لأنه جحده بقلبه وجحده بلسانه ، فليس عنده اختلاف بين القلب واللسان .

أما النفاق فهو أنْ يعتقد القلب الكفر ويضمره ، ويعلن اللسان كلمة الإيمان ، فالمنافق يخالف لسانُه قلبَه ، فهو غير منطقى لا مع الحق ولا مع نفسه ؛ لذلك كان المنافق فى الدَّرْك الأسفل من النار ، لأنه أشرُّ من الكافر .

لذلك لما طلب سيدنا رسول الله من القوم أنْ يقولوا : لا إله إلا الله قالتها القلة المؤمنة ، وامتنعت الكثرة الكافرة ، لماذا ؟ لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقَالوها من بداية الأمـر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقهم بها دليل على فهمهم لها ولمطلوباتها .

أما الجـاحد فعلى النقـيض من المنافق ، فهـو مقتنع فى نفسه ، لكنه لا يقـدر على النطق بمـا يقتنع به من الـحق ؛ لذلك يقول تعـالى عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

ولمـا طال الجدل بينـهم وبين رسول الله قـالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] بدل أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وبعد أنْ قـالوا فى القرآن أنه سحر ، وأنه أسـاطير الأولين .. الخ زهق باطلهم ، وكشف الله جحودهم ، حين حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فـالقـرآن لا غـبارَ علـيه وهو حـق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل عـلى عظيم من عظمـاء مكة أو المـدينة لآمنَّا به ، وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقـرآن ، والقرآن يستوجب أنْ يؤمنوا أيضاً بمحمد .

ومعلوم أن الإسـلام صاح صيحـته الأولى فى أُذن مَنْ ؟ فى أذن كـفـار مكة وسادة قـريش والجـزيرة كلهـا ، وقـد كـانت لهم الكلمـة المسـموعة والمنزلة الـرفيعة بـين العرب جمـيعاً لقـيامهم على خـدمة الحجيج ، ووقوع بلادهم على طرق التجارة بين الشمال والجنوب .

إذن : الإسلام لم يستضعف جماعة ليـعلن فيهم صيحته الأولى ، إنمـا اختـار السادة ، لكن الله تعـالى لم يشأ أنْ ينتـصر الإسـلام فى مكة ؛ لأنه لو انتصر فيهـا لكان من الممكن أن يقال : قوم من قريش

تعصَّبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم كما سادوا الجزيرة .

لذلك لما أعلن سيدنا رسول الله دعوته بين قومه أسرعوا إليه يقولون : يا محمد إنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. فقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله ، أو أهلك دونه »[1] .

فشاء الله أن تكون الصرخة الأولى فى أذن السادة أصحاب الكلمة والسلطة فى مكة ، وأن تكون نصرة الدين فى المدينة ، لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، وليست العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يُطاع مع أمر رسول الله ؛ لأن المؤمن برسول الله يتلقَّى من رسول الله .

لذلك يُعَدُّ من الخطأ بمكان أن نقول : كيف فعل رسول الله كذا وكذا ؟ فنناقشه ونستدرك عليه ﷺ ، وكيف تجعل من نفسك أيها المؤمن ميزاناً وحكَماً يحكم على أفعال الرسول ويضعها فى الميزان ؟

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة .

كمن يناقشون مثلاً مسألة تعدد الزوجات ، ويصل بهم الحدُّ إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة .

وكيف نعارض رسول الله فى هذا ، والله تعالى لم يعارضه ، ولم يُقلْه من مسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فعْل رسوله وباركه ، فلا تجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ؛ لأن الأصل أنه هو المقياس الذى نقيس عليه أفعالنا ، فنسأل : أفعل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإنْ فعل فعلنا .

ومن هذا المنطلق سُمِّى الصِّديق صدِّيقاً ، فلما حدَّثوه أن رسول الله يخبر أنه أتى بيت المقدس فى ليلة قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

والحق سبحانه حين ينهى رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين إنما يُبيِّن له طبيعتهم ، وحقيقة عدائهم له ، فهُمْ غير مخلصين له ، وعليه أن يتهم أمرهم إنْ أمروه ويتهم نهيهم إنْ نَهوْه ، وكيف يُخلصون فى أمره أو نهيه ، وقد جاء ليصادم سيادتهم ، ويكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهَبْهم مخلصين لك لأنك من قريش ، ويريدون نصرتك فينقصهم فى نُصْحهم لك العلم والحكمة ، فلا يصح إذن أنْ تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كما نلحظ أن القوم فعلاً طلبوا من رسول الله أشياء ، فكأن الله نبهه قبل أنْ يطلبوا منه إلى ما يُطلب منه من مخالفتهم وعدم طاعتهم ، والطاعة فيها مطيع ومطاع ، وهم يريدون أن يكونوا

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

مطاعين ، ورسول الله طائع ممتثل لأمرهم ، لكن كيف تقلب المسألة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرِّع للناس فيطيعوه ، فهو الذى يأمر ، وهو الذى يُطاع .

فكأن الرسول ﷺ يقول لهم : كيف أقارن بينكم وبين ربى ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمى وانضم إليهم وفد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا بعبد الله بن أُبىٍّ ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وقد أمَّنهم رسول الله فقالوا : يا محمد كُفَّ عن آلهتنا : اللات والعزى ومناة ، واشهد بأن شفاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن تحفظ لنا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمتِّعنا بآلهتنا سنة وأقرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك[1] .

فنهاه الله ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] لأنك لا ينبغى أن تتراجع أمامهم فى شىء أبداً ، وإلاَّ لكنتَ خاضعاً لهذه السيادة المزعومة ، ولأعطيتَهم الفرصة حين تطاوعهم ؛ لأنْ يقولوا : لقد أطاعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدى .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها ، وربما يقول قائل : ولِمَ لم يهادنهم رسول الله حتى يشتدَّ عود الدعوة ، فهم سادة القوم وأصحاب الكلمة والمهابة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادنة ، ويرفض أن يعتمد رسول الله إلا على الله ؛ لذلك قال فى الآية

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٦) أن قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافرون] نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره .

بعدها : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ۝٣﴾ [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب] فالعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أمّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا فى أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفى ، فالصفتان متلازمتان متكاملتان ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص]

فالقوى إنْ كان خائناً لم تنفعك قوته ، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته ؛ لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد خاصته من أهل العراق ، يقول : إنِ استعملتُ عليهم القوى يَفْجُروه[1] ، وإن استعملتُ عليهم الضعيف يُهينوه ، فقال له : إن استعملت عليهم القوى فلك قوته وعليه فجوره ، فقال له أمير المؤمنين : ما دُمْتَ قد عرفتَ هذا فلا أُولِّى عليهم غيرك .

إذن : فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أنْ تضع الشىء فى موضعه ، والقضية فى مكانها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا ۝٢﴾

---

(١) يفجرونه : يُغضبونه ويخالفونه . ويفجرونه أيضاً : يجعلونه يفجر فلا يرعى لهم حرمة [معنى ما فى لسان العرب ـ مادة : فجر] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٧٥ ٣) : « قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ السلمى وأبو عمرو وابن أبى إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر » ، أى : أن الله كان :

– بما تعملون من اتباع ما أوحى إلينا من ربنا ببلاغ رسلنا .

– بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكيد للإسلام ومحاولة إبعادنا عن اتباعنا ديننا .

نلحظ هنا نهياً بين أمرين : الأول ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] والآخر ﴿ وَاتَّبِعْ مَـا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ۝٢ ﴾ [الأحزاب] وبينهما النهى : ﴿ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] ووقوع هذا النهى بين هذين الأمرين ترتيب طبيعى ؛ لأنك إذا اتقيتَ الله ستُعلى منهج الحق ، وهذا يؤذى أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به ، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون فى أُذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك إذن أنْ ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتبعه .

وقلنا : إن الوحى : إعلام بخفاء ، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً ، ولله تعالى فى وحيه وسائل كثيرة مع جميع خَلْقه ، فيوحى سبحانه إلى الجماد ؛ لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما فى قوله سبحانه وتعالى عن الأرض : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ [الزلزلة]

ويوحى إلى النحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ﴾ [النحل]

ويُوحى إلى غير رسول أو نبى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى .. ۝١١١ ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ۝٧ ﴾ [القصص]

هذا هو الوحى فى معناه العام ، أما الوحى الخاص فيكون من الله تعالى لرسول مُرْسَل من عنده إلى الخَلْق ، وله طرق متعددة ، فمرةً يكون بالنفث فى الروع ، ومرة يكون بالوحى بكلام لا يُرى قائله ، ولا يُعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. ۝٥١ ﴾ [الشورى]

والقــرآن الكريم لم يـأْتِ بالإلهـام ولا بـالكلام من وراء الغــيب والحُجُب ، إنما جـاء عن طريق رسول مَلَك نزل به علـى رسـول الله ، فثبت القرآن من هذا الطريق .

ولا بُدَّ فى هذه المسألة من التقارب بين الرسول الملَك ، والرسول البشر ، فلكل منهمـا طبيعته الخاصة ، ولكى يلتـقيا لا بُدَّ من أمرين : إما أنْ يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقبل منها ، أو ينزل الملَك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أنْ يُلقنها .

لذلك جـاء فى الحديـث أن جبـريل عليه السـلام نزل إلى مـجلس رسول الله فى صورة بشــرية ليُعلِّم الناس أمور دينهم[(١)] . وكان النبى ﷺ فى أول الوحى تأخذه قشــعريرة ، ويتصبب جبينه عـرقاً ، حينما يأتيه جبريل بالوحى ، وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ يبلغ به الجهد حتى يقول : زمِّلونى زمِّلونى ، دثِّرونى دثِّرونى .

وإذا جاءه الوحى وهو جالس مع أصحابه وركـبته على ركبة أحدهم يشعر لها بثـقل كأنها الجبل[(٢)] ، أو يأتيه الوحى وهو على دابة فكانت تئط[(٣)] ، لذلك فتـر عن رسول الله الوحى بعد فـترة ليسـتريح من هذا الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أُوحى إليه ، فيتشوق إليه من جديد .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمـر بن الخطاب : أن جـبريل أتى رسـول الله ﷺ بين أصحـابه فى صورة « رجل شـديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد » .

(٢) قال زيد بن ثابت (كاتب الوحى) : أنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخـذه على فخذى ، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (أى : تكسر وتدق) أخرجـه البخارى معلقاً مجزوماً به فى كتاب الصلاة ـ باب ما يذكر في الفخذ ، ووصله فى تفسير سورة النساء .

(٣) عن أسـمـاء بنت يزيد قـالـت : إنى لآخـذة بزمـام العـضبـاء ناقـة رسـول ﷺ إذ أنزلت عليـه المائدة كلهـا فكادت من ثقلها تدق بـعضد الـناقة . أخرجه الإمام أحـمد فى مـسنده (٦/ ٤٥٥) .

وبعدها خاطبه ربه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح]

والهدف حينما يكون غالياً ، والغاية سامية يهون فى سبيلها كل جهد ، وقد عاد الوحى إلى رسول الله بعد شوق ، وخاطبه ربه بقوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

إذن : ثبت القرآن بالوحى عن طريق الرسول الملَك ، ولم يثبت بالإلهام أو النفث فى الرَّوْع ، أو الكلام من وراء حجاب ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

والوحى هنا ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الأحزاب] منْ مَنْ ؟ ﴿ مِن رَّبِّكَ .. (٢) ﴾ [الأحزاب] ولم يقل مثلاً رب الخلق ، نعم هو سبحانه رب الخَلْق جميعاً ، لكن محمداً ﷺ سيد الخلق ، فهو رب الخلق من باب أَوْلَى ، وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام ، وأنه تعالى لن يخذلك أبداً ، وما اتصاله بك إلا للخير لك ولأمتك .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾ [الأحزاب] الخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة . يعنى : لا يسأل أهل العلم السطحى ، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شىء .

وتلحظ أن الآية السابقة خُتمتْ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾ [الأحزاب] أى : عليماً بما يُشرِّع ، حكيماً يضع الأمر فى موضعه ، وقال هنا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾ [الأحزاب] أى : بما ينتهى إليه أمرك مع التشريع ، استجابةً أو رفضاً ، فربُّك لن يُشرِّع لك ثم يتركك ، إنما يَخْبُر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فالخبرة تدل على منتهى العلم وعلى العلم الواسع ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى قصة لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فالخبرة تدل على العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صغرت ، واللطف هو التغلغل فى الأشياء مهما كانت دقيقة ، وقلنا : إن الشىء كلما لَطُفَ عَنُفَ .

فكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن ، فمهما صُودمتَ من خصومك ، ومهما تألَّبوا عليك ، فربُّك من ورائك لن يتخلى عنك ، وهؤلاء الخصوم خَلْقى ، وأنا معطيهم الطاقات المفكرة والطاقات العاقلة والطاقات المتآمرة ، وسوف أنصرك عليهم فى كل مرحلة من مراحل كيدهم لك .

لذلك لم يقووا عليك مناظرة ولا جدلاً ، ولم يقدروا عليك حين بيَّتوا لك ليضربوك ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك بين القبائل ، وخرجتَ من بينهم سالماً تحثو التراب على رؤوسهم ، حتى لما استعانوا عليك بالسحر وبالجن أخبرتُك بما يدبرون لك ، ولم أُسلمْك لكيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

يعنى : إياك أن تظن أن واحداً من هؤلاء سوف يساعدك فى أمرك ، أو أنه يملك لك ضراً ولا نفعاً ، فلا تُحسِن الظن بأوامرهم ولا

بنواهيهم ، ولا تتوكل عليهم فى شىء ، إنما توكل على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أن تكون عاجزاً فى شىء ، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك ، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك ، فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير ، فقال : « لو توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً »[2] .

أما التواكل فأنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك ، وتقعد عن الأخْذ بها ، وتقول : توكلت على الله ، لا إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ؛ لأن لك رباً أقوى من الأسباب ؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب .

لذلك ، كثير من الناس يقولون : دعوتُ الله فلم يستجب لى ، نقول : نعم صدقت ، وصدق الله معك ؛ لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها ، فساعة تستنفد أسبابك ، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** .. (٦٢) ﴾ [النمل] والمضطر هو الذى عزَّتْ عليه الأسباب ، وخرجتْ عن

---

(١) المخمصة : الجوع ، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً . ومعنى الحديث : أى تغدو الطير بُكرة وهى جياع ، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

نطاق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى - عليه السلام - حين حاصره فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

نعم ، مدركون ؛ لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر فقال : (كلا) يعنى لن نُدْرَك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] قالها موسى عن رصيد إيمانى وثقة فى أن الله سيستجيب له .

والبعض يقول : دعوتُ الله فى كذا وكذا ، وأخذت بكل الأسباب ، فلم يستجب لى ، نقول : نعم لكنك لَسْتَ مضطراً ، بل تدعو الله عن ترف كمن يسكن مثلاً فى شقة ويدعو الله أنْ يسكن فى فيلا أو قصر ، فأنت فى هذه الحالة لست مضطراً .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] أى : يكفيك أنْ يكون الله وكيلك ؛ لأنه لا شىء يتأبَّى عليه ، ولا يستحيل عليه شىء .

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض الإخوان فرأينا رجلاً مكفوف البصر يريد أنْ يعبر الشارع فقلنا لزميل لنا : اذهب وخذ بيده ، فنزل وعبر به الشارع ثم قال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى المنزل رقم كذا فى هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا من جيبه عشرة جنيهات ووضعها فى يد الرجل ، فلما أمسك بورقة العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء وقال : لا شىء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال لصاحبنا : يا بنى أرجعنى مكان ما كنت !! فقد قضيت حاجته التى كان يسعى لها !!

نعم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثنيه عن إرادته شيء ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾[النحل]

وفى التوكل ملحظ آخر ينبغى أنْ نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلتَ على أحد يقضى لك أمراً فاضمن له أنْ يعيش لك حتى يقضى حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتُعلِّق به كل آمالك ، وفى الصباح تسمع نعيه : مات فلان ؟

إذن : لا ينبغى أن تتوكل إلا على الله الحى الذى لا يموت : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨)﴾ [الفرقان] واستغنِ بوكالة الله عن كل شيء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ(١) وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ(٢) ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤)﴾

---

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ ، فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى فى رِجْله ، فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠١] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٧٨/٧) : « أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل فى زيد ابن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] » .

ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها ، فقد ذكر الله تعالى معسكرين : معسكراً يجب أنْ يُطاع ، فقال تعالى لرسوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ .. ۝١﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ .. ۝٢﴾ [الأحزاب] وبينهما معسكر آخر نُهِى رسول الله عن طاعته ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ .. ۝١﴾ [الأحزاب]

إذن : نحن هنا أمام معسكرين : واحد يمثل الحق فى أجلى معانيه وصوره ، وآخر يمثل الباطل ، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة ، إما أنْ ينحاز ويغلب صاحب الحق ، وإما أنْ يغلب جانب الباطل ، وما دمت أنت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا ، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحق ؛ لأن الله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ .. ۝٤﴾ [الأحزاب] إما الحق وإما الباطل ، ولا يمكن أنْ تتقى الله وتطيع الكافرين والمنافقين ؛ لأن القلب الذى يميل ويغلب قلب واحد .

ومعلوم أن القلب هو أهم عضو فى الجسم البشرى ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطبيب دواءً ، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمى ، ويحتاج إلى وقت ليتمثل فى الجسم ، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة فى العضل ، فيصبُّ الدواء فى الجسم مباشرة ، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة فى الوريد ، لماذا ؟

ليصل الدواء المطلوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء فى أسرع وقت . إذن : فالدم هو الذى يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذى يؤدى هذه المهمة ؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به فى حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحيز الواحد لا يمكن أنْ يسع شيئين فى وقت واحد فما بالك إنْ كانا متناقضين ؟ وقد مثَّلْنا هذه العملية بالزجاجة الفارغة إنْ أردتَ أن تملأها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء .

كذلك الحال فى المعانى ، فلا يجتمع حق وباطل فى قلب واحد أبداً ، وليس لك أنْ تجعل قلباً للحق وقلباً للباطل ؛ لأن الخالق جعل لك قلباً واحداً ، وجعله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا تزاحمه بشىء آخر .

ويُرْوَى أنه كان فى العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهرى(١) وكان مشهوراً باللسَن(٢) والذكاء ، فكان يقول : إن لى قلبين ، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر ، فيقول له : يا جميل ، ما فعل القوم ؟ قال : منهم مقتول ومنهم هارب ، قال : وما لى أراك هكذا ؟ قال : مالى ؟ قال : نعل فى كفِّك ، ونعل فى رِجْلك ، قال : والله لقد ظننتهما فى رجلى ، فضحك أبو سفيان وقال له : فأين قلباك ؟

وإذا كان القلب هو المضخة التى تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية ، كذلك حين تستقر عقائد الخير فى القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء ،

---

(١) ذكر ابن حجر العسقلانى هذه القصة فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٢٥٥) فى ترجمة جميل بن أسيد الفهرى يكنى أبا معمر ويلقب ذا القلبين ، وذكرها أيضاً فى ترجمة وهب بن عمير الجمحى (٦/٣٢٧) ثم قال : « ذكر الثعلبى هذه القصة لجميل بن معمر ، وأن الذى تلقاه فسأله هو أبو سفيان ، وأسنده ابن الكلبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس لكن قال : جميل بن أسد » .

(٢) اللَّسن : الفصاحة ، واللسْن : الكلام واللغة . [لسان العرب ـ مادة : لسن] .

فتتجه جميعها إلى طاعة الله ، فالرِّجْل تسعى إلى الخير ، والعين لا تنظر إلا إلى الحلال ، والأذن تسمع القول فتتبع أحسنه ، واللسان لا ينطق إلا حقاً .

فكل الجوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذى تشرَّبته من طاقات الخير فى القلب .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »(١) .

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين فى قلب واحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التى شاعتْ عند العرب ، فيقول سبحانه : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ** .. ④ ﴾ [الأحزاب]

وقد شاع فى الجاهلية حين يكره الرجل زوجته ، يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ومعلوم أن ظهر الأم مُحرَّم على الابن حرمة مؤبدة ، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً ، إنما جعل لها كفارة كذب ؛ لأن الزوجة ليست أماً لك ، وحدد هذه الكفارة إما : عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً(٢) .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) . من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) قال تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ ﴾ [المجادلة] .

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. (٢) ﴾ [المجادلة] أي : كذباً ؛ لأن الزوجة لا تكون أماً .

فالحق سبحانه جاء بمتناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين ، فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أماً ، فهى إما أم ، وإما زوجة .

كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر فى مسألة التبنى ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه ، فيصير الولد ابناً له ، يختلط ببيته كولده ، ويرثه كما يرثه ولده ، وله عليه كل حقوق الابن .

وهذه متناقضة أيضاً كالسابقة ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الزوجة لا تكون أماً بحال ، كذلك المتبنَّى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

الدعىُّ : هو الذى تدعى أنه ابنٌ وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الظِّهار ، فألغى القرآن هذه العادات ، وقال : ضعوا كل شىء فى موضعه ، فجعل للظهار كفارة ، ونهى عن التبنى بهذه الصورة .

والحق سبحانه ساعةَ يريد أنْ يلغى حكماً يقدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الناس ؛ لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبنى الذى عنده .

تعلمون أن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج من السيدة خديجة ، وكان

لها منزلة عند رسول الله ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام[(١)] عبداً من سوق الرقيق هو زيد بن حارثة ، وكان من بنى كلب ، سرقه اللصوص من أهله ، وادعوْا أنه عبد فباعوه ، ثم أهدتْه السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ، فصار مولىً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمَنْ يكون فى خدمة رسول الله ؟

لقد أحبَّ زيدٌ رسولَ الله ، وعَشِق خدمته ، وقال عن معاملته ﷺ له : « لقد خدمتُ رسول الله عشر سنين ، فما قال لشىء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ، ولا لشىء تركتُه لِمَ تركتَه »[(٢)] .

وفى يوم من الأيام ، رآه واحد من بنى كَلْب فى طرقات مكة ، فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بنى كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه : خيِّره ، فإنِ اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا له أبٌ ، فلما خيَّروه ـ قال سيدنا زيد : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف ، وعلى

---

(١) هو : حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، عمته خديجة بنت خويلد ، ولد قبل الفيل بـ ١٣ سنة ، كان من سادات قريش ، وكان صديق النبى ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ،ولكن تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح . فى عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢٠ سنة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٣٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) والترمذى فى سننه (٢٠١٥) من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه .

تمسّكه بخدمته ، فتبنّاه كما تتبنى العرب ، وسمَّوْه بعدها : زيد بن محمد.[1]

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يبطل التبنى بدأ بمتبنَّى رسول الله ، ليكون هو القدوة لغيره فى هذه المسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه البنوة ؟

كان سيدنا رسول الله قد زوَّج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش ، أخت عبد الله بن جحش ، وقد تعب رسول الله فى إقناع عبدالله وزينب بهذه الزيجة التى رفضتها زينب[2] ، تقول : كيف أتزوج زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تزوجته إرضاءً لرسول الله ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالتْ عليه ، أنها من السادة ، وهو من العبيد ، فكَرِه زيد ذلك ، ولم يُطِقْ فأحبَّ أنْ يطلقها ، فذهب إلى رسول الله وشكا إليه ما كان من زينب ، وعرض عليه رغبته فى طلاقها .

فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

---

(١) أورده ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/٤٠) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٢/٢٨٢) ، وابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢/٥٩٩) . وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما اختاره زيد على أبيه وعمه : « يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا » .

(٢) أورد ابن سعد فى الطبقات (١٠/٩٨) أن زينب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش ، قال : فإنى قد رضيته لك ، فتزوجها زيد ابن حارثة .

له : أمسك عليك زوجك فعاوده زيد ، عندها علم رسول الله أن رغبتهما فى الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدرى ، أراده الله لحكمة ، ولأمر تشريعى جديد ، شاء الله أنْ يُوقِع البغض بين زيد وزينب ، فبُغْض زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، وبُغْض زيد لزينب كان اعتزازاً بالنفس .

ولكى يبطِل الحق سبحانه تبنِّى رسول الله لزيد قضى بأنْ يتزوَّج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة الابن تحرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعنى أن زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة التبنى ، والأثر المترتب على هذه العادة .

وقد أحسَّ رسول الله بشىء فى نفسه ، وتردَّد فى هذا الزواج مخافة أنْ يقول الناس : إن محمداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلِّق زينب ليتزوجها هو ، كما يقول بعض المستشرقين الآن ، وأنه ﷺ كان يضمر حبَّ زينب فى نفسه ، وهذه كلها افتراءات على رسول الله ، فالذى يحب امرأة لا يسعى جاهداً لأنْ تتزوج من غيره ، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له : أمسكْ عليك زوجك .

ثم لا ينبغى لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله فى نفسه ، من أنه عاشق أو مُحبٌّ ، لكن انظر فيما أبداه الله ، فالذى أبداه الله هو الذى يُخفيه رسول الله ، واقرأ : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : الذى كان يُخفيه رسول الله هو أنه يخاف أنْ تتكلَّم به العرب ، وأنْ تقول فيه مَا لا يليق به فى هذه المسألة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ.. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا قرَّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبنى فى شخص رسول الله.

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبنى إنما يبطل عادة ذميمة ، تُقوِّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق ، فالولد المتبنّى يعيش فى الأسرة كابنها ، تعامله الأم على أنه ابنها ، وهو غريب عنها ، كذلك البنت تعامله على أنه أخوها ، وهو ليس كذلك ، وفى هذا من الفساد مَا لا يخفى على أحد.

وأيضاً ، فكيف يكون الأب الذى جعله الله سبباً مباشراً لوجودك وتأتى أنت لتردَّ هذه السببية ، وتنقلها إلى غير صاحبها ، وأنت حين تنكر البنوة السَّببية فى أبيك فمن السهل عليك - إذن - أنْ تنكر المسبِّب الذى خلق أولاً ، ولِمَ لا وقد تجرأتَ على إنكار الجميل .

وكذلك الذى ينكر البنوة السببية يتجرأ على أنْ ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخَلْق لغير الخالق .

وإلا ، فلماذا يحثُّنا الحق دائماً على برِّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع من

---

(١) الوطر هو الحاجة والأرب . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٩١] . ويقول فى القاموس القويم ٢/٣٤٣ : « الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ويقال : فلان قضى وطره من زوجه أى : طلقها » .

كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣) ﴾ [الإسراء]

قالوا : لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبره ، وأنكرتَ أبوته وتمردْتَ عليها ، فلعلَّك تتمرد أيضاً على سبب الوجود الأصلى ، فالوالدان لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانا كافرين .

لذلك ، لما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] . فالشرع حين يضع للجريمة حَداً وعقوبة ، فهذا إيذان بأنها ستحدث فى المجتمع المسلم ، أما الكذب فلم يضع له الشارع حداً ، مع أنه أشد من السرقة ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا : لأن المؤمن لا يُتصوَّر منه الكذب ، ولا يجترئ هو عليه ؛ لأنه إنْ عُرف عنه الكذب وقال أمامك : أشهد أنْ لا إله إلا الله يمكنك أنْ تقول له : أنت كاذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] أى : ما تقدَّم من جَعْل الزوجة أماً ، أو جَعْل الدَّعى ابناً ، فالزوجة لا تكون أبداً أماً ؛ لأن الأم هى التى ولدتْ ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] وهل يكون القول إلا بالأفواه ؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا ؟ قالوا : نعم ، القول بالفم ، لكن أصله فى الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما فى الفؤاد ، كما قال الشاعر :

---

(١) أخرجه الإمام مالك بن أنس فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

إنَّ الكَلامَ لَفِى الفُؤادِ وَإنَّما جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤادِ دَليلاً

إذن : لابدَّ أنْ يكون الكلام نسبة فى القلب ، منها تأتى النسبة الكلامية ، فهل ما تقولونه له واقع ؟ هل الزوجة تكون أماً ؟ وهل الولد الدعىُّ يكون ابناً ؟ فهذا كلام من مجرد الأفواه ، لا رصيد له فى القلب ولا فى الواقع ، فهو ـ إذن ـ باطل ، أما الحق فما يقوله الحق سبحانه ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ④ ﴾ [الأحزاب] والحق هو أن يكون المعتقد فى القلب مطابقاً للكائن الواقع .

فالإنسان قد يتكلم بكلام استقر فى قلبه حتى صار عقيدة عنده ، وهو كلام غير صحيح ، فحين يخبر بهذا الكلام لا يُسمَّى كاذباً لأنه أخبر على وَفْق اعتقاده ، مع أن الخبر كاذب ، فهناك فَرْق بين كذب الخبر ، وكذب المخبر .

فالحق سبحانه يعاملنا فى الأمر المعتقد فى القلب : إنْ كان له واقع ، فهو صِدْق فى الخبر ، وصِدْق فى المخبر ، وإنْ كان المعتقد لا واقعَ له فهو كذب فى الخبر ، وصدق فى المخبر .

إذن : الأمر المعتقد يكون حقاً ، إنْ كان له واقع ، ويكون كاذباً إنْ لم يكُنْ له واقع ، فإذا لم يكُنْ هناك اعتقاد فى القلب أصلاً فهو مجرد كلام بالفم ، وهذا أقل مرتبةً من القول الذى تعتقده وهو غير واقع .

فمعنى ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ④ ﴾ [الأحزاب] أى : الواقع الذى يجب أنْ يعتقد ، والإعجاز هنا ليس فى أن الله تعالى يقول الحق الواقع بالفعل ، إنما ويخبر بالشىء فيقع فى المستقبل على وَفْق ما أخبر سبحانه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه صادق حين يقول ما كان ، ويصدق حين يقول ما سيكون .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] كأنه يقول : قارنوا بين قولين : قَوْل بالأفواه ، وقول بالواقع والاعتقاد ، وإذا كان قَوْل الله أقوى من الاعتقاد فقط فهو من باب أَوْلَى أقوى من القول بالأفواه فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾ [الأحزاب] أى : يهدى السبيل إلى القول الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٥) ﴾

معنى ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] يعنى : قولوا : زيد بن حارثة ، لكن كيف يُنزع من زيد هذا التاج وهذا الشرف الذى منحه له سيدنا رسول الله ؟ نعم ، هذا صعب على زيد - رضى الله عنه - لكنه ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] لا عندكم أنتم .

و ﴿ أَقْسَطُ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] أفعل تفضيل ، نقول هذا قسْط وهذا أقسط ، مثل عدل وأعدل ، ومعنى ذلك أن الذى اختاره رسول الله من نسبة زيد إليه يُعَدُّ قِسْطاً وعدلاً بشرياً ، فى أنه ﷺ أحسَّ بالبنوة

وصــار أباً لمن اختــاره وفضَّـله على أبيـه .

لكن الحق سـبحانه يريد لـنا الأقسط ، والأقسط أنْ نـدعو الأبناء لآبائهم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] أى : نُعرِّفهم بأنهم إخواننا فى الدين .

ومـعنى المـوالـى : الخـدم والنصـراء الذين كـانـوا يقـولون لهم « العبـيد » ، فالولد الذى لا نعرف له أباً هو أخ لك فى الله تخـتار له اسماً عـاماً ، فنقول مثـلاً فى زيد : زيد بن عبد الله ، وكلنا عـبيد الله تعالى .

والبنوة تثـبت بأمرين : بالـعقل وبالشـرع ، فالرجل الذى يتـزوج زواجـاً شرعـياً ، وينجب ولداً ، فـهـو ابنه كوناً وشـرعاً ، فـإذا زَنَت المرأة ـ والعياذ بالله ـ على فراش زوجـها ، فالولد ابن الزوج شَـرْعاً لا كوناً ؛ لأن القاعدة الفقهية تقول : الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر[1]

كذلك فى حـالة الزوجة التى تتـزوج مرة أخرى بـعد وفاة زوجـها أو بعد طلاقهـا ، لكنها تنجب لستة أشـهر ، فتقوم هنا شـبهة أن يكون الولد للزوج الأول ، لذلك يُعَدُّ ابناً شَرْعاً لا كوناً ؛ لأنه وُلد على فراشه .

فإن جاء الولد من الزنا ـ والعياذ بالله ـ فى غير فراش الزوجية فهو ابنه كوناً لا شرعاً ؛ لذلك نقول عنه « ابن غير شرعى » .

كمـا أن فى قوله تعـالى : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ.. (٥)﴾ [الأحزاب] تشريفـاً للنبى ﷺ ، فلو قال تعـالى : هو قسْط لكان عـمل النبى إذن جَوْراً وظلماً ، لكن أقسط تعنى : أن عمل النبى قِسْط وعَدْل .

---

(١) هو حديث لـرسول الله ﷺ أخرجـه أحمد فـى مسنده (٢/٢٣٩ ، ٢٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحـه (١٤٥٨) كتاب الرضاع ـ باب الولد للفراش (١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] يُخْرجنا من حرج كبير فى هذه المسألة ، فكثيراً ما نسمع وما نقول لغير أبنائنا : يا بنى على سبيل العطف والتودد ، ونقول لكبار السن : يا أبى فلان احتراماً لهم .

فالحق سبحانه يحتاط لنا ويُعفينا من الحرج والإثم ، لأننا نقول هذه الكلمات لا نقصد الأبوّة ولا البنوة الحقيقية ، إنما نقصد تعظيمَ الكبار وتوقيرهم ، والعطف والتحنُّن للصغار ، فليس عليكم إثْمٌ ولا ذَنْبٌ فى هذه المسألة ، إنْ أخطأتم فيها ، والخطأ هو ألاَّ تذهب إلى الصواب ، لكن عن غير عَمْدٍ .

وإذا كان ربنا - تبارك وتعالى - قد رفع عنا الحرج ، وسمح لنا باللغو حتى فى الحلف بذاته سبحانه ، فقال : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة] فكيف لا يُعفينا من الحرج فى هذه المسألة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾[الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : أن الفعل إذا أُسْنِد إلى الحق سبحانه انحلَّ عنه الزمن ، فليس مع الله تعالى زمن ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وهو سبحانه خالق الزمن .

لذلك نقول ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : كان ولا يزال غفوراً رحيماً ؛ لأن الاختلاف فى زمن الحدث إنما ينشأ من صاحب الأغيار ، والحق سبحانه لا يطرأ عليه تغيير .

لذلك نخاف نحن من صاحب الأغيار لأنه مُتقلِّب ، ويقول أهل المعرفة : تغيَّروا من أجل ربكم - يعنى : من الانحراف إلى الاستقامة - لأن الله لا يتغير من أجلكم ، أنت تتغير من أجل الله ، لكن الله لا يتغير من أجل أحد ، ومادام الحق سبحانه كان غفوراً رحيماً ، وهو سبحانه

لا يتغير ، فبالتالى سيبقى سبحانه غفوراً رحيماً.

وتلحظ فى أسلوب القرآن أنه يقرن دائماً بين هذين الوصفين غفور ورحيم ؛ لأن الغفر سَلْب عقوبة الذنب ، والرحمة مجىء إحسان جديد بعد الذنب الذى غُفِر ، كأن تُمسك فى بيتك لصاً يسرق ، فلك أنْ تذهب به للشرطة ، ولك أن تعفو عنه وتتركه ينصرف إلى حال سبيله ، وتستر عليه ، وبيدك أنْ تساعده بما تقدر عليه ليستعين به على الحياة ، وهذه رحمة به وإحسان إليه بعد المغفرة .

وقد عُولِجَتْ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل] وهذا التوجيه يضع لنا أول أساس من أسس المغفرة ؛ لأنك لا تستطيع أبداً تقرير هذه المثلية ، ولا تضمن أبداً إذا عاقبتَ أنْ تعاقب بالمثل ، ولا تعتدى ؛ لذلك تلجأ إلى جانب المغفرة ، لكى لا تُدخِل نفسك فى متاهة اعتداء جديد ، يُوجب القصاص منك .

وسبق أنْ حكيْنا قصة المرابى الذى اشترط على مدينه إذا لم يسدِّد ما عليه فى الوقت المحدد أن يأخذ رطلاً من لحمه ، فلما تأخر اشتكاه المرابى عند القاضى ، وذكر ما كان بينهما من شروط ، فأقرَّه القاضى على شرطه ، لكن ألهمه الله أنْ يقول للمرابى : نعم خُذْ رطلاً من لحمه ، لكن بضربة واحدة ، فإنْ زِدْتَ عنها أو نقصْتَ وفَّيناها من لحمك أنت ، عندها تراجع المرابى ، وتنازل عن شَرْطه .

إذن : أجاز لك الشرع القصاصَ بالمثل ليجعل هذه المرحلة صعبة التنفيذ ، ثم يفتح لك الحق سبحانه باب العفو والصفح فى المرحلة الثانية :﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن]

ثم يُفسرها بحيثية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ أننى لم أنفعل انفعالاً غضبياً ينتج عنه ردّ فعلٍ انتقامى ، وجعلتُ غضبى فى قلبى ، وكظمتُه فى نفسى ، وهذه المرحلة الأولى ، أما الثانية فتُخرِج ما فى نفسك من غَيْظ وغضب وتتسامح وتعفو .

ثم المرحلة الثالثة أنْ ترتقى إلى مرتبة الإحسان ، فتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وهذه رحمة ، والرحمة : أنْ يميل الإنسان بالإحسان لعاجز عنه ، فإنْ كان الأمر بعكس ذلك فلا تُسمَّى رحمة ، كأن يميلَ العبدُ بإحسان إلى سيده .

هذه صور أتتْ فيها الرحمة بعد المغفرة ، وهذا هو الأصل فى المسألة ، وقد تأتى الرحمة قبل المغفرة ، كأنْ تُمسك باللص الذى يسرق فتشعر أنه مُكْره على ذلك ، وليس عليه أمارات الإجرام ، فيرقّ له قلبك ، وتمتد يدك إليه بالمساعدة ، ثم تطلق سراحه ، وتعفو عنه ، فالرحمة هنا أولاً وتبعتها المغفرة .

بعد ذلك لقائل أنْ يقول : ما موقف زيد بعد أنْ أبطل الله تعالى التبنى ، فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ؟ وكيف به بعد أنْ سُلب هذه النعمة وحُرم هذا الشرف ؟ أضفْ إلى ذلك ما يلاقيه من عَنت المرجفين ، وألسنة الذين يُوغرون صَدره ، ويُوقعون بينه وبين رسول الله ، وهو الذى اختاره على أبيه .

لا شكَّ أن الجرعة الإيمانية التى تسلَّح بها زيد جعلتْه فوق هذا كله ، فقد تشرَّب قلبه حبّ رسول الله ، ووقر فى نفسه قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

ثم تأتى الآيات لتوضح للناس : لستم أحقَّ على زيد من محمد ، لأن محمداً ﷺ أَوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم ، لا بزيد وحده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

فالمعنى : إذا كان النبى ﷺ أَوْلَى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم فما بالكم بزيد ؟ إذن : لستُم أحقَّ على زيد من الله ، ولا من رسول الله ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الذى نُزِع من زيد حين صار زيد ابن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمد .

فلماذا تُغمضون أعينكم عن فضل أعظم ، ناله زيد من الله تعالى حين ذُكر اسمَه صراحةً فى قرآنه وكتابه العزيز الذى يُتْلَى ويُتعبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة ، فأىُّ وسام أعظم من هذا ؟ فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] قَوْل خالد يَخلُد معه ذِكْر زيد ، وهكذا عوَّض الله زيداً عما فاته من تغيير اسمه .

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] ما المراد بهذه الأولوية من النبى ﷺ ؟

قالوا : هى ارتقاءات فى مجال الإحسان إلى النفس ، ثم إلى الغير ، فالإنسان أولاً يُحسن إلى نفسه ، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد ؛ لذلك يقول ﷺ : « ابدأ بنفسك ، ثم بمَنْ تعول »(١)

ويقولون : أوطان الناس تختلف باختلاف هِمَمها ، فرجل وطنه نفسه ، فيرى كل شىء لنفسه ، ولا يرى نفسه لأحد ، ورجل وطنه أبناؤه وأهله ، ورجل يتعدَّى الأصول إلى الفروع ، ورجل وطنه بلده أو قريته ، ورجل وطنه العالم كله والإنسانية كلها .

فرسول الله ﷺ تعدَّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم ، والمؤمنين على وجه الخصوص ؛ لذلك كان ﷺ إذا مات الرجل من أمته وعليه دَيْن ، وليس عنده وفاء لا يُصلِّى عليه ويقول : « صلُّوا على أخيكم »(٢)

والنظرة السطحية هنا تقول : وما ذنبه إنْ مات وعليه دَيْن ؟ ولماذا لم يُصَلِّ عليه الرسول ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال أن رسول الله ﷺ قال لرجل من بنى عذرة : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٩٧) كتاب الزكاة - باب الابتداء فى النفقة بالنفس . أما لفظة « ثم بمن تعول » فقد وردت فى حديث آخر عند مسلم أيضاً فى صحيحه (١٠٣٤) كتاب الزكاة عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصدقة عن ظهر غِنىً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

(٢) عن أبى قتادة قال : أُتى النبى ﷺ برجل ليصلى عليه ، فقال النبى « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » قال أبو قتادة : هو علىَّ . فقال ﷺ : بالوفاء ؟ قال : بالوفاء . فصلى عليه . أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٦٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : لم يمنع الرسولُ الصلاة عليه وقال : صلُّوا على أخيكم ؛ لأنه قال فى حديث آخر : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها - لم يَقُل أدَّاها - أدى الله عنه »[1]

أما وقد مات دون أنْ يؤدى ما عليه ، فغالب الظن أنه لم يكُنْ ينوى الأداء ؛ لذلك لا أصلى عليه ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] صار رسول الله يتحمل الدَّيْن عمَّنْ يموت من المسلمين وهو مدين ، ويؤدى عنه رسول الله ، وهذا معنى ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فالنبى أَوْلى بالمسلم من نفسه .

ثم ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ أمام عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من : نفسه ، وماله ، والناس أجمعين » ولصدْق عمر - رضى الله عنه - مع نفسه قال : نعم يارسول الله ، أنت أحبُّ إلىَّ من أهلى ومالى ، لكن نفسى .. فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه »[2]

فلما رأى عمر أن المسألة عزيمة فَطِن إلى الجواب الصحيح ، فلابُدَّ أن الله أنطق رسوله بحُبٍّ غير الحبِّ الذى أعرفه ، إنه الحب العقلى ، فمحمد ﷺ أحبُّ إليه من نفسه ، والإنسان حين يحب الدواء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦١ ، ٤١٧) والبخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وابن ماجة فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٢) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

المرَّ إنما يحبه بعقله لا بعاطفته ، وكما تحب الولد الذكى حتى لو كان ابناً لعدوك ، أما ابنك فتحبه بعواطفك ، وتحب مَنْ يثنى عليه حتى لو كان غبياً مُتخلِّفاً .

ومشهورة عند العرب قصة الرجل الغنى الذى رزقه الله بولد متخلف ، وكَبر الولد على هذه الحالة حتى صار رجلاً ، فكان الطالبون للعطاء يأتونه ، فيُثْنون علَى هذا الولد ، ويمدحونه إرضاء لأبيه ، وطمعاً فى عطائه ، مع أنهم يعلمون بلاهته وتخلُّفه ، إلى أن احتاج واحد منهم ، فنصحوه بالذهاب إلى هذا الغنى ، وأخبروه بنقطة ضَعْفه فى ولده .

وفعلاً ذهب الرجل ليطلب المساعدة ، وجلس مع هذا الغنى فى البهو ، وفجأة نزل هذا الولد على السُّلم كأنه طفل يلعب لا تخفى عليه علامات البلَه والتخلف ، فنظر الرجل إلى صاحب البيت ، وقال : أهذا ولدك الذى يدعو الناس له ؟ قال : نعم ، قال : أراحك الله منه ، والأرزاق على الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أن أزواجه ﷺ أمهات للمؤمنين ، وعليه فخديجة رضى الله عنها أم لرسول الله بهذا المعنى ؛ لأنه أول المؤمنين ؛ لذلك كانت لا تعامله معاملة الزوجة ، إنما معاملة الأم الحانية .

ألاَ تراها كيف كانت تحنُو عليه وتحتضنه أول ما تعرَّض لشدة الوحى ونزول الملَك عليه ؟ وكيف كانت تُطمئنه ؟ ولو كانت بنتاً صغيرة لاختلفَ الأمر ، ولاتهمتْه فى عقله . إذن : رسول الله فى هذه المرحلة كان فى حاجة إلى أم رحيمة ، لا إلى زوجة شابة قليلة الخبرة .

وزوجاته ﷺ يُعْتبرن أمهات للمؤمنين به ؛ لأن الله تعالى قال مخاطباً المؤمنين : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا.. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ لأن الرجال الذين يختلفون على امرأة توجد بينهم دائماً ضغائن وأحقاد .

فالرجل يُطلِّق زوجته ويكون كارهاً لها ، لكن حين يتزوجها آخر تحلو في عينه مرة أخرى ، فيكره مَنْ يتزوجها ، وهذه كلها أمور لا تنبغي مع شخص رسول الله ، ولا يصح لمن كانت زوجة لرسول الله أن تكون فراشاً لغيره أبداً ؛ لذلك جعلهن الله أمهات للمؤمنين جميعاً ، وهذه الحرمة لا تتعدى أمهات المؤمنين إلى بناتهن ، فمَنْ كانت لها بنت فلتتزوج بمَنْ تشاء .

إذن : لا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ويُقدِّره قدره أنْ يخلفه على امرأته .

لذلك كان تعدد الزوجات في الجاهلية ليس له حَدٌّ معين ، فكان للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فلما جاء الإسلام أراد أنْ يحدد العدد في هذه المسألة ، فأمر أنْ يُمسك الرجل أربعاً منهن ، ثم يفارق الباقين[(١)] ، بمعنى أنه لا يجمع من الزوجات أكثر من أربع .

أما رسول الله ﷺ فقد أمسك تسعاً من الزوجات ، وهذه المسألة أخذها المستشرقون مأخذاً على رسول الله وعلى شرع الله ، كذلك مَنْ لَفَّ لَفَّهم من المسلمين .

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية ، فأسلمن معه ، فأمره النبي ﷺ أن يتخير أربعاً منهن . أخرجه الترمذي في سننه (١١٢٨) ، وابن ماجة في سننه (١٩٥٣) موصولاً . وأخرجه الإمام مالك في موطئه مرسلاً عن ابن شهاب الزهري بلفظ : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » .

ونقول لهؤلاء : أنتم أغبياء ، ومَنْ لفَّ لفكم غبى مثلكم ؛ لأن هذا الاستثناء لرسول الله جاء من قول الله تعالى له : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ.. (٥٢)﴾ [الأحزاب]

يعنى : إنْ ماتت إحداهن لا تتزوج غيرها ، حتى لو مُتْنَ جميعاً لا يحل لك الزواج بغيرهن ، فى حين أن غيره من أمته له أنْ يتزوج بدل إحدى زوجاته ، إنْ ماتت ، أو إنْ طلقها ، وله أنْ يُطلِّق منهن مَنْ يشاء ويتزوج مَنْ يشاء ، شريطة ألاَّ يجمع منهن أكثر من أربع ، فعلى مَنْ ضيَّق هذا الحكم ؟ على رسول الله ؟ أم على أمته ؟ إذن : لا تظلموا رسول الله .

ثم ينبغى على هؤلاء أنْ يُفرِّقوا بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، فكَوْن رسول الله يكتفى بهؤلاء التسع لا يتعدَّاهن إلى غيرهن ، فالاستثناء هنا فى المعدود ، فلو انتهى هذا المعدود لا يحلّ له غيره ، ولو كان الاستثناء فى العدد لجاز لكم ما تقولون .

ومن ناحية أخرى : حين يمسك الرجل أربعاً ، ويفارق الباقين من زوجاته لهن أنْ يتزوجن بغيره ، لكن كيف بزوجاته ﷺ إنْ طلق خمساً منهن ، وهُنَّ أمهات المؤمنين ، ولا يحل لأحد من أمته الزواج منهن ؟ إذن : الخير والصلاح فى أنْ تبقى زوجات الرسول فى عصمته .

وما دام ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦)﴾ [الأحزاب] كذلك يجب أن يكون المؤمنون أوْلى برسول الله من نفسه ، ليردُّوا له هذه التحية ، بحيث إذا أمرهم أطاعوه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ (٦)﴾ [الأحزاب]

كلمة (وَأُولُوا الأَرْحَامِ) مأخوذة من الرحم ، وهو مكان الجنين فى بطن أمه ، والمراد الأقارب ، وجعلهم الله أوْلى ببعض ؛ لأن المسلمين الأوائل حينما هاجروا إلى المدينة تركوا فى مكة أهلهم وأموالهم وديارهم ، ولم يشأ أنصار رسول الله أن يتركوهم بقلوب متجهة إلى الأزواج .

فكانوا من شدة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها[1] ، وهذا لوْن من الإيثار لم يشهده تاريخ البشرية كلها ؛ لأن الإنسان يجود على صديقه بأغلى ما فى حوزته وملكه ، إلا مسألة المرأة ، فما فعله هؤلاء الصحابة لون فريد من الإيثار .

وحين آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المؤاخاة اقتضت أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى ، فلما أعزَّ الله الإسلام ، ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الحق سبحانه أنْ تعود الأمور إلى مجراها الطبيعى ، فلم تَعُدْ هناك ضرورة لأنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى .

فقررت الآيات أن أُولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى مسألة الميراث ، فقال سبحانه : ﴿ **وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ..** (٦) ﴾ [الأحزاب] فقد استقرت أمور المهاجرين ، وعرف كل منهم طريقه ورتَّب أموره ، والأرحام فى هذه

---

(١) حدث هذا مع عبد الرحمن بن عوف المهاجر من مكة ، وسعد بن الربيع الأنصارى « حيث قال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فَخُذْه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق » الخبر بطوله أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/١١٧) .

الحالة أوْلَى بهذا الميراث .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ.. ۝٦ ﴾ [الأحزاب] تنبيه إلى أن الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ بُضْعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ؛ لأنك حين تتأمل مسألة خَلْق الإنسان تجد أننا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء .

يُرْوى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له : رجل بالباب يقول : إنه أخوك ، فقال معاوية : كيف لا تعرف إخوتى ، وأنت حاجبى ؟ قال : هكذا قال ، قال : أدخله ، فلما دخل الرجل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ قال : أخوك من آدم ، فقال معاوية : نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أول مَنْ يصلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا.. ۝٦ ﴾ [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمَنْ حضر منهم قسمة فَلْيكُنْ له منها نصيب على سبيل التطوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ۝٨ ﴾ [النساء]

وقوله سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٦ ﴾ [الأحزاب] أى : فى أم الكتاب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أى : القرآن .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ ﴾

كلمة (إذ ، إذا) ظرف لحدث ، تقول : إذا جاءك فلان فأكرمه ، فالإكرام مُعلّق بالمجيء ، والمعنى هنا : واذكر إذْ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ، وهذه قضية عامة فى الرسل جميعاً ، ثم فصَّلها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ⑦ ﴾ [الأحزاب]

الميثاق : هو العهد يُؤخذ بين اثنين ، كالعهد الذى أخذه الله تعالى أولاً على الخَلْق جميعاً ، وهم فى مرحلة الذَّرِّ ، والذى قال الله عنه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ⑰② ﴾ [الأعراف]

فما العهد الذى أخذه الله على النبيين ؟ العهد هنا هو : الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق ، وحين يصطفى الله رسولاً ليبلِّغ الناس شرع الله ، هذا الاصطفاء لا يرد ، إذن : فهو عرض مقبول ، وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأنْ يحمل رسالة الله إلى الخَلْق ، فهى - إذن - مسألة إيجاب وقبول .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ⑦ ﴾ [الأحزاب] الآخذ هو الحق سبحانه ، والمأخوذ منه هم النبيون ، والميثاق : العهد الموثَّق ، والعهد تعاهد وتعاقد بين طرفين على أمر يُحقِّق الصالح عندهما معاً ، ولو اختلف واحد منهما ما تَمَّ العقد ، فإنْ كان الطرفان متساويين اشترط كل منهما ما يراه لنفسه فى العقد .

فإنْ كان الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذى يأخذ العهد للأدنى ، لماذا ؟ لأنك جعلتَه فى مرتبة أنْ يعطى عهداً ، ويُوثق بينك وبينه أشياء ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ⑦ ﴾ [المائدة]

والمواثقة مفاعلة بين الطرفين : أنتم واثقتُموه به وهو واثقكم به ؛ لأن

الرسل حين يختارهم الله ، لا شكَّ أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار الله رسولاً ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده الله من العهد .

وهل رأينا رسولاً فى موكب الرسالات عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن : قبول الرسالة كأنه العهد ، جاء من طرف واحد فى إملاء شروطه ؛ لأنه الطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق فى أن الله اختاره ، وجعله أهْلاً للاصطفاء للرسالة .

لذلك رأينا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - لما اصطفاه الله للرسالة آنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردَّها ، إنما طلب من الله أنْ يسانده فى هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص]

فلم يقل : أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أذعن لأمر الله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة التى فى لسانه يستعين عليها بأخيه .

إذن : كلمة (الميثاق) تدور حول الشيء المؤكَّد الموثَّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤) ﴾ [محمد]

ثم يأتى تفصيل هذه القضية العامة : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

(٢) أثخنتموهم : غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . وأثخنته الجراح : أوهنته والإثخان فى كل شيء : قوته وشدته ، [لسان العرب - مادة : ثخن] .

﴿ ... وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ۞ ﴾ (٧) [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أي من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، لكن لماذا قدَّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثاني للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام ، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام ، فانقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمن به ، فكان هو الأب الثاني للبشر بعد سيدنا آدم .

لذلك يقول البعض : إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة . ونقول : عمومية نوح كانت لمن آمن به ولأهل السفينة في زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهي عامة في كل الزمان ، وفي كل المكان .

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، إنما هي لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أنْ يبدأ به في مثل هذا المقام ، ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[(١)] .

ثم يخصُّ بالذكر هنا نوحاً ؛ لأنه الأب الثاني للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ، فإبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

---

(١) قال السيوطي في « الدرر المنتثرة » (ص ٣٤٢) : « لا أصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذي في سننه (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة قال : قالوا يا رسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . وفي الباب عن ميسرة الفجر .

أبو الأنبياء ، وتُقدِّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها ، وأنه قدوة فى مسألة الذَّبْح والسَّعْى وغيرها .

وموسى وعيسى ؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود فى المدينة ، والنصارى فى نجران ، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى ، وكانت لهم فى الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية ، وكأنهم هم أصحاب هذه البلاد .

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه ـ فى ميثاقهم مع أنبيائهم ـ يدخرهم ليشهدوا لمحمد بصِدْق دعوته ؛ لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقولون لعبدة الأصنام : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيُبعث فى أرض ذات نخل ، ومن صفاتها كذا وكذا ، لذلك لما قطَّعهم الله فى الأرض أمماً وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

إذن : فأهل الكتاب كان من المفترض فيهم أنْ يشهدوا لرسول الله بصدْق الرسالة ، لكن يحكى القرآن عنهم بعد هذا كله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تمرُّد القالب ؟ قالوا : إنها السلطة الزمنية التى أحبوا أنْ تبقى ، وأنْ تدوم لهم ، فقد بُعِث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حِرَف وعمارة ،

وخافوا من رسول الله ومن الـدين الجديد أن يسلبهم هذه المكانة ، وأنْ يقضى على هذه الـسيادة ، لذلك قـال القرآن عنهم : ﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** (٩٠) ﴾ [البقرة]

لهـذا خصَّ بالذكْر هنا مـوكب الأنبـياء مـوسى وعـيسى عليـهمـا السـلام .

ونلحظ أن السيـاق ذكر موسى عليه السـلام ، ولم يذكر له أباً ، أما فى عيسى عليه السلام فقال : ﴿ **عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ..** (٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا دليل على أنه يؤكـد الأصالة فى الإنجـاب ، فالأب هو الأصل إنْ وُجِـد مع الزوجة ، فـإنْ لم يوجد الأب فـالأبوة للزوجـة ؛ لذلك نسب عليه السلام إلى أمه .

وجاءت هذه المسألـة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهيـة ، فمسألة الخَلْق ليست عملية ميكانيكيـة تخضع لقانون ، إنما هى قدرة الله التى خلقتْ آدم بدون أب ولا أم ، وخلـقت حـواء من أب دون أم ، وخلقتْ عـيسى عليـه السـلام من أم بدون أب ، وخلقتْ سـائر الخَلْق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخَلْق القسمة العقلية فى كل صورها .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** (٧) ﴾[الأحزاب] أى : من الأنبيـاء ، والميثـاق الغليظ أى المؤكـد ، فقد وسّـعه الله وأكده حـينما أخبر أنبياءه ورسله أنهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم .

لذلك لم يُوصَف الميـثاق بأنه غليظ إلا فى هذا المـوضوع ، وفى علاقة الرجل بالمرأة حـين يطلقها ، وقد فرض لها مـهراً ، فينبغى أنْ يُؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقـول سبحانه : ﴿ **وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** (٢١) ﴾ [النساء]

فسمّى الميثاق بين الزوجين ميثاقاً غليظاً أى : قوياً ومتيناً ؛ لأنه فى العِرْض ، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الرسل المذكِّرين المبشِّرين المنذرين جاء تفصيله فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

والشىء الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لماذا أخذ الله هذا العهد ؟ قالوا : لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصَّب له حين يأتى رسول جديد ، لكن من الصَّعب على الإنسان أن يكون له دين ، ثم يأتى رسول جديد ليزحزحه عن دينه ، وهنا تكمن المشقة التى يعانيها الرسل .

لذلك قال الله تعالى للرسل : من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذا جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمنن به ولتنصرنه[2] ، ثم أقررهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا ، والمعنى : إياكم أن تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أنْ تضعوا لهم هذه القاعدة ، ففيها الوقاية لهم .

---

(١) الإصر : القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً ؛ لأنها تشق على المكلَّف وتثقل عليه ، وقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١)﴾ [آل عمران] أى : عهدى . [القاموس القويم ١/ ٢١] .

(٢) أخرج ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، لئن بُعث وهو حى ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ .. (٨١)﴾ [آل عمران] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢/ ٢٥٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

اللام هنا فى ﴿ لِيَسْأَلَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أننا أخذنا من النبيين الميثاق ، لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صدْقه ليس تبكيتاً للصادق ، إنما تبكيتاً لمن كذَّب به ، سنسأل الرسل : أبلغتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فالاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذَّب .

أو : يكون المعنى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أنتم بشَّرتم بأن الإله واحد ، فأنتم صادقون ؛ لأنكم أخذتُمْ هذه منى ، ولما قامت الساعة ولم تجدوا إلهاً آخر يحمى الكافرين ، إذن : فقد صدقت فيما أخبرت به ، وصدقتم فيما بلغتم عنى ، حيث لم تجدوا فى الآخرة إلا الإله الواحد .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] ولو كان معه سبحانه إله آخر لَدافع عن هؤلاء الكافرين ، ومنعهم من العذاب .

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذى وعد الله به ، وبلَّغوه لأممهم ،

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، وكأن الحق سبحانه يسألهم : هل تخلَّف شيء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت في إثابة المحسن أو معاقبة المسيء ؟ إذن : صدق كلامي كله .

كما تجلس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية ، وتحثُّه على المذاكرة فيُوفَّق في الامتحان ، ثم تسأله : ماذا فعلت في إجابة السؤال الفلاني ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام ، إنما تستعيد معه أمجاد ما أنجزه بالفعل تسأله عن توفيق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وَقْفتهم لدين الله وإعلاءَهم كلمة الحق في هذه الساعة ولا مردَّ لها .

إذن : فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم ، وشهادة بأنهم أدَّوْا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذَّب بهم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب]

والفعل الماضي هنا دليل على أن كل شيء معدٌّ وموجود سلَفاً ، ولن ينشيء الحق سبحانه شيئاً جديداً ، كذلك قال عن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إنْ آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، يعني : لن تكون هناك أزمة أماكن ، فإذا ما أخذ أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

---

(١) قال القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٣٨٨/٧) :

« فيه أربعة أوجه :

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش .

الثاني : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاه علي بن عيسى .

الثالث : ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة » .

تتبقى أماكن الذين كفروا شاغرة ، فيقول تعالى للمؤمنين : خذوها أنتم :[1] ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنيل من كرامته ، فمن الناس مَنْ يحاول التجلُّد ، ويُظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به ، في حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته ، فيناسبه العذاب المهين .

لذلك يُرْوى في التجلد أن رجلاً دخل على معاوية في مرضه ، وهو يُظهر للناس أنه بخير وصحته على ما يرام ، فقال له الرجل :

وَإِذَا المنيَّةُ أَنْشَبَتْ أظْفَارهَا ... ألفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لاَ تَنْفَعُ

ففطن معاوية إلى مقصده ، وأجابه من نفس قصيدة أبى ذؤيب[2] :

وَتجلُّدِى لِلشَّامتِينَ أُرِيهُمُوا ... أَنِّى لريْبِ الدهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ[3]

أما العذاب العظيم فلعظمه فى ذاته ، ولكبر حجمه يعنى ليس صغيراً ، أو يكون صغير الجرم ، لكن عظمته فى صفاته ، أو فى بقاء

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله فى النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣٩٤) وعزاه لابن أبى حاتم وابن مردويه .

(٢) عزاه شهاب الدين محمود الحلبى فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٣٢ لأبى ذؤيب الهذلى ، وانظر ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣ . [وعزاه ابن منظور لأبى ذؤيب فى اللسان ـ مادة : ضعع] .

(٣) الضعضعة : الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شيء . ورجل ضعضاع أى : لا رأى له ولا حزم . [لسان العرب ـ مادة : ضعضع] .

أثره فى زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأَخْذه أَخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله فى الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾[الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة فى بدر ، وانتصر على اليهود فى بنى النضير وبنى قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم فى الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] النعمة : الشيء الذى يخالط الإنسان بسعادة وبشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعِم سبحانه ، فهى إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجىء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون ، فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخَلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلون مما ننبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعةَ يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلِّه ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. ⑨ ﴾[الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسِّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرِجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـــوْدٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فِــى نَقْشَــةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدْ[١]
سَـمكٌ مِنَ البَـلـلَّوْرِ فِــى شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ[٢]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمَنْ منَّا رأى سمكاً من البللور فى شـبك من زبرجد ؟ فللشاعـر نظرته الخاصـة للصور التى يراها ، وسـبق أنْ ذكرنا الصـورة التى رسـمهـا الشاعـر[٣] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أَخَـادِعُه[٤] وغَاصَ قَذَالُه[٥] فَـكَــأَنَّهُ مُـتربِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا
وَكأنَّـمَـا صُفِعَــتْ قـفَــاهُ مَــرةً فَأحَــسَّ ثانيــةً لَهَـا فَتَجَـمَّـعا

ومنذ القِـدَم يعتبـر الشعـراء القلبَ محـلاً للحب وللمشـاعر ، لكن يخـرج علينا هـذا الشـاعـر بصورة أخـرى جـديدة من نَسْج خيـاله ، فيقول :

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَــودَّتِى فَـأُحِــسُّ مِنْها فِــى الفُؤاد دَبيبا
لاَ عُضْـوَ لِــى إلاَّ وَفيه صَـبَـابَةٌ فَـكَـأنَّ أَعْـضَــائى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفـتاة الحـسنة الخَلْق الشابة ، مـا لم تَحض . وقيل : الجـارية الناعمـة . [لسان العرب ـ مـادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع مـتداخلة فى بعضـها ، والمقـصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد . وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) الشــاعر هـو : ابن الرومى على بن العـباس بن جـريج ، شـاعـر كبـيـر من طبـقة بشـار والمتنبـى ، رومى الأصل ، كان جده من مـوالى بنى العبـاس ، ولد ببغـداد ٢٢١ هــ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هــ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذال] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ۝٩ ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها فى بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكى تُخرِج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك فى سورة الجمعة حينما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعى إلى الصلاة ، وحركة سَلْب بترْكِ البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً .. ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكْر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عز وجل - ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغى عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنِعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى ترونْه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نِعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنَّة العَدِّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عَدِّ شيء إلا إذا كان مظنَّةَ العَدِّ ، وإحصاء المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نِعَم الله - وهذا لن يحدث - فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح علْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نِعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نِعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نِعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعَمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ فى القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] ، ومرة يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشىء القبيح عمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهى أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هى القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلب للشىء المذموم ينبغى أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده فى دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدَّم فيها الرحمة على المغفرة ، والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .

ثم يرسل لنا الحق - سبحانه وتعالى - هذه البرقية الدالَّة على تأييده سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ إِذْ[1] جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا[2] وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ [الأحزاب]

فالجنود تُؤذن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبْهمة ، ثم جاءت نهاية هذه المعركة فى هاتين الجملتين القصيرتين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٩) ﴾ [الأحزاب] ولم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا أنهم من عند الله ، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم .

ثم يأتى بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ[3] وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ[4] وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾

---

(١) ذلك يوم الخندق فى غزوة الأحزاب ، قال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة ، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ، وهى وبنو قريظة فى يوم واحد . (تفسير القرطبى ٧/٥٣٨٩) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧٠) : « هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلىَّ ، فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل فى قلوبهم من الرعب » .

(٣) قال ابن وهب : سمعت مالكاً يقول : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من هاهنا ، واليهود من هاهنا ، والنجدية من هاهنا . قال القرطبى : يريد مالك أن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . [تفسير القرطبى ٧/٥٣٨٩] .

(٤) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى . وقوله فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع . القاموس القويم (١/٢٩٤) .

هذا وَصْف لما جرى فى غزوة الأحزاب التى جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبنى فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بنى النضير وبنى قريظة ، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف .

وقلنا : إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتجعل من أهل الكتاب شهداء على صدْق رسول الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولو قدَّر أهل الكتاب هذه الشهادة التى قرنها الحق سبحانه بشهادته ، لكَان عليهم أنْ يؤمنوا بصدْق رسول الله ﷺ .

والمعنى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر يا محمد وتخيَّل وتصوَّر إذ جاءكم الأحزاب ، وتجمَّعوا لحربك ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الشرق ، وهُمْ : غطفان ، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومَنْ تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أى : مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم]

فـ (زاغت الأبصار) يعنى : مالتْ عن سَمْتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين ، وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم فى اللغة ، فيقولون : رأى أى : بجُمْع عَيْنه ، ولمح بمؤخَّر مُوقِه ، ورمق أى : من ناحية أنفه .. الخ

فسَمْت العين وسَنَمها أنْ تتحرك فى هذه الاتجاهات ، فإذا فزعتْ من شىء أخذ البصر ، مال عن سَمْته من التحول ، لذلك يقول تعالى :

﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وشخوص البصر أنْ يرتفع الجَفْن الأعلى ، وتثبت العين على شىء ، لا تتحرَّك إلى غيره .

وفى موضع آخر قال تعالى عن المنافقين والمعوِّقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

لأن الهول ساعة يستولى على الأعين ، فمرة تشخص العين على ما ترى لا تتعداه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرجٍ مما هى فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائف المفزَّع .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] معلوم أن الحنجرة أعلى القصبة الهوائية فى هذا التجويف المعروف ، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع ، فحين يفزع الإنسان يضطرب فى ذاته ، وتزداد دقَّات قلبه ، وتنشط حركة التنفس ، حتى ليُخيَّل للإنسان من شدة ضربات قلبه أن قلبه سينخلع من مكانه ، ويقولون فعلاً فى العامية (قلبى هينط منى)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب]

أى : ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولى عليهم ، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسلمهم ، ولن يتخلى عنهم ، والكافرون يظنون أنهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك .

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأنْ يحكى له ما حدث ، إنما يجعله ﷺ يستحضر الصورة بنفسه ، فيقول له : اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[1]

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : اختُبِروا وامتُحنوا ، فقَوِىُّ الإيمان قال : لن يُسلمنا الله . والمنافق قال : هى نهاية الإسلام والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى الهزة العنيفة التى ينشأ عن قوتها تَخَلْخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم ، وميَّز مؤمنهم من منافقهم ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) هنا : للقريب من المكان . وهنالك : للبعيد . وهناك : للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى : عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥٤٠٦/٧] .

المنافقون هم أنفسهم الذين فى قلوبهم مرض ، فهما شىء واحد ، وهذا العطف يُسمُّونه « عطف البيان » .

والغرور أنْ تخدع إنساناً بشىء مُفْرح فى ظاهره ، محزن فى باطنه ، تقول : ما غرَّك بالشىء الفلانى كأن فى ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك ، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ (٢) لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا أيضاً بمعنى : واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ.. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يثرب : اسم للبقعة التى تقع

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا فى شك وريبة من أمر الله ، قالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حُصرنا ههنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٧٧] .

(٢) يثرب هى : المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . وقال السهيلى : سميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق . [تفسير القرطبى٧/ ٥٤٠٧] قال ابن كثير فى تفسيره : « قال السهيلى : روى عن بعضهم أنه قال : إن لها فى التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة » (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٣) . ويقول ابن منظور فى لسان العرب [مادة : ثرب] : « سماها طيبة وطابة كراهية التثريب ، وهو اللوم والتعيير » .

فيها المدينة ، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة) .

ومعنى : ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : فى الحرب ﴿ فَارْجِعُوا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يعني : اتركوا محمداً وأتباعه فى أرض المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : على هذا الدين الذى تنكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالبكم .

ثم يكشف القرآن حيلة فريق آخر يريد الفرار ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : فى عدم الخروج للقتال ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : ليست مُحصَّنة ، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء . يقال : بيت عورة إذا كان غير مُحْرز ، أو غير محكم ضد مَنْ يطرقه يريد به الشر ، كأن يكون منخفضاً أو مُتهدِّم الجدران يسهل تسلُّقه ، أو أبوابه غير محكمة .. إلخ .

كما نقول فى العامية (مَنَطٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كذبهم ، ويبطل حجتهم ، فيقول ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] إنما العلة فى ذلك ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : من المعركة إشفاقاً من نتائجها ومخافةَ القتل .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : البيوت ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : طُلب منهم الكفر ﴿ لَآتَوْهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : لكفروا . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ

يَسِيراً (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعنى : ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيراً ، ثم ينتقم الله منهم (١) .

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) ﴾

معنى ﴿ عَاهَدُوا اللَّهَ .. (١٥) ﴾ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد وقَبلوه ، وهو ما حدث فى بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله على النُّصْرة والمؤازرة . أو : يكون الكلام لقوم (٢) فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد ، فقالوا : والله لئن وقفنا فى حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً .

وعَهْد الله هو الشىء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلَّفك به ، وإياك أنْ تُخلَّ بأمر من أموره ، لأن الاختلال فى أى أمر تكليفى من الله يُعَد نقصاً فى إيمانك بالله ، فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أن توفي به ؛ لأنك إنْ وفَّيْتَ بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/٤٧٣) : « يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير » .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، همُّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٤١٠] .

واعلم أن الله مُطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أنْ تعطيه وأنت تنوى أنْ تخالفه ، إياك أنْ تعطى العهد خداعاً ، فربك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح ، وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ؛ لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ، ويكون بنقض الروح أولاً بأمر خالقها ، ثم يتبعه نَقْض البنية ، أما القتل فيقدر عليه الخَلْق ، ويتم أولاً بنقض البنية الذى يترتب عليه إزهاق الروح ؛ لأن البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الروح فيها ، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الروح .

والفرار لن يُجدِى فى هذه المسألة ؛ لأن لها أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الخَلْق عصى أمر الله ، فهدم البنية التى بناها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذى

يقول : لقد شهدتُ مائة زَحْف أو زهاءها ، وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برُمْح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعين الجبناء(1) .

ثم يناقشهم القرآن : هَبُوا أنكم فررتُم من الموت أو القتل ، أتدوم لكم هذه السلامة ؟ أتخلدون فى هذه الحياة ؟ ﴿ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (16) ﴾ [الأحزاب] وسرعان ما تنتهى الحياة ، وتواجهون الموت الذى لا مَفَرَّ منه ، وكلنا ذاهب إلى هذا المصير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) ﴾

المعنى : قل لهم يا محمد مَن الذى ﴿ يَعْصِمُكُم .. (17) ﴾ [الأحزاب] أى : يمنعكم ﴿ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (17) ﴾ [الأحزاب] كما قال فى موضع آخر : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (43) ﴾ [هود]

فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا عاصمَ لهم ؛ لأنه لا يمتنع أحد مع الله ؛ لأنه لا يوجد معه سبحانه إله آخر يدفع السوء عن هؤلاء .

---

(1) ذكره ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٧/١١٧) وعزاه للواقدى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه .

والإشكال الذى يحتاج إلى توضيح هنا قوله تعالى : ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (١٧)﴾ [الأحزاب] فكيف تكون العصمة من الرحمة ؟ قالوا : يعصم هنا بمعنى يمنع ، والمعنى : لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله إنْ أراد الله بكم رحمة .

ونلحظ على سياق الآية أنها جاءت بأسلوب الاستفهام ، ولم تأْتِ على صورة الخبر ، فلم يَقُلْ القرآن لمحمد ﷺ : قل يا محمد ، لا يُعصَم أحد من الله إنْ أرادكم بسوء ، لأن الجملة الخبرية محتملة للصدق وللكذب ، إنما شاء الله أن يجعلها جملة إنشائية استفهامية ؛ ليقرروا هم بأنفسهم هذه الحقيقة ، كأنه تعالى يقول لهم : لقد ارتضيتُ حكمكم أنتم ، ولو لم يكُنْ الحق سبحانه واثقاً من أن الجواب لن يأتى إلا : لا أحدَ لَمَا جاء بالأسلوب فى صورة استفهام ، إذن : فالاستفهام هنا آكد فى تقرير صِدْق هذه الجملة .

كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب فى الردِّ على مَنْ ينكر جميلك ، فتقول : ألم أُحْسِن إليك يوم كذا وكذا ؟ فلا يملك عندها إلا الإقرار .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)﴾ [الأحزاب] الولى : هو القريب منك ، وأنت لا تُقرِّب منك إلا مَنْ ترجو نفعه ، هو الذى يليك أو يُواليك ، فحبُّه يسبق الحدث ، فإذا ما جاء الحدث حمله حبُّه لك على أنْ يدافع عنك .

والنصير : قريب من معنى الولى ، ويدافع أيضاً عنك ، لكن يأتى دفاعه بعد الحدث ، وقد يكون ممَّنْ لا قرابةَ بينك وبينهم .

والمعنى : حين يريد الله أحداً بسوء فلن يجد أحداً يمنعه من الله ، لا الولىّ ولا النصير .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قد : حرف يفيد التحقيق ، خاصة إذا جاءتْ من الحق سبحانه ، ويأتى معها الفعل فى صيغة الماضى ، لكن هنا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل بصيغة المضارع ، وهذا يعنى أن الحدث الذى يقع الآن سيثبت أن الله يعلم المُعوِّقين ، وقد علم أزلاً .

فإنْ قُلْتَ : فالحق سبحانه يعلم قبل أنْ يكون هناك تعويق ، نقول : فَرْق بين أنْ يعلم الأمر قبل أنْ يقع ، وأنْ يعلمه إذ يقع ، فقد يقول قائل : علمتُ وسوف تجازينى على ما تعلم سابقاً ، لكن لو تركتنى فى المستقبل لن تحدث منى مخالفة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يؤكد هذا الأمر . والمعوِّق : هو الذى يضع العوائق أمام مرادك ، ويُثبِّط همَّتك ويُخذِّلك .

وقوله ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] يعنى : أقبل وتعال . وكلمة (هلم) تأتى هكذا بصيغة المفرد دائماً مع المفرد والمثنى والجمع ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبى ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ، فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف قال : هلم إلىَّ ، لقد بلغ بك وبصاحبك ـ والذى يُحلف به لا يستقى لها محمد أبداً قال : كذبت ـ والذى يُحلف به ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ، والله لأخبرنَّ النبى ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٥٨٠] .

ومع المذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا .. (١٥٠) ﴾ [الأنعام] أى : هاتوا ، وهذه هى اللغة الفصيحة .

وفى لغة من لغات تهامة يُلحقون بها علامة التثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا ، ولجمع الإناث هلُمْنَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) ﴾ [الأحزاب] البأس أى : الحرب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ففرْق بين البأس والبأساء : البأس أى : الحرب . أما البأساء ، فكل ما يصيب الإنسان من مكروه فى غير ذاته كفَقْد ولد ، أو خسارة مال .. إلخ ، أما الضراء فما يصيب الإنسان فى ذاته ، كمرض أو نحوه .

ومن ذلك قول الله تعالى عن سيدنا داود : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠) ﴾ [الأنبياء]

والمراد : صناعة الدروع التى يلبسها الإنسان على مظانِّ المقَاتل فيه ، وعلى أجهزته الحيوية كالصدر والقلب والرأس ، ولها غطاء خاص (الخوذة) ، وتُصنع الدروع مُسنَّنة . أى : بها تموُّج وتجاويف ، بحيث تتلقى ضربات السيف بإحكام ، فلا تنفلت الضربة إلى مكان آخر فتؤذيه .

لذلك يقول تعالى لنبيه داود عن هذه الصنعة ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١) ﴾ [سبأ] أى : فى إحكام هذه الحلقات المتداخلة .

وفَرْق أيضاً هنا بين لَبُوس ولباس : اللباس هو ما يقى الإنسان تقلبات الجو ، ويستر عورته أثناء الأمن وسلام الحياة ، وهذه هى الملابس العادية التى يرتديها الناس .

وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا**[1] **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ**[2] **تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)** ﴾ [النحل]

أما كلمة (لَبُوس) فهى المُعدَّة لحالة الحرب كالدروع ونحوها ؛ لذلك جاءت بصيغة دالة على التضخيم (لَبُوس) .

وهذه الآية تلفتنا إلى مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى المعجز ، فالآية هنا ذكرت (الحَرَّ) ، ولم تذكر شيئاً عن المقابل له ، وهو البرد ، والعلماء عادةً ما يلجئُون إلى تقدير هذا المحذوف عند تفسير الآية ، فيقولون : أى تقيكم الحر والبرد[3] ، يريدون أنْ يكملوا أسلوب القرآن ، وهذا لا يجوز .

---

(١) الأكنان : جمع كِنّ ، وما يُصان أو يستتر فيه الشيء ، والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القميص والدرع . وقيل : كل ما لُبِس فهو سربال . [لسان العرب - مادة : سربل] .

(٣) قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة : سربل : قيل فى قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] : « إنها القمص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد » .

وقال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » : « ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] أى : والبرد . وإنما حذفه لدلالة ضده عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] أى : والشر . وخصَّ الحر والخير بالذكر ؛ لأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز ، والوقاية من الحر أهم عند أهله ؛ لأن الحر عندهم أشد من البرد ، والخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر » .

وحين نمعن النظر فى هذه الآية ، نجد أن الله تعالى خلق الظلال لتقينا حرارة الشمس ، وجعل اللباس ، وكذلك جعل لنا الأكنان فى الجبال ، والله خلق الحرَّ على هذه الصورة التى لا يتحملها الإنسان ؛ لأن للحر مهمة فى حياتنا ، فحرارة الشمس تخدمك فى أمور كثيرة ، وإنْ كانت تضايقك بعض الوقت ، فالحق سبحانه أبقاها لتؤدى مهمةَ خير لك ، ثم حَمَاك بالظل واللباس والأكنان من شرِّها .

فإنْ قُلْتَ : فهذه الأشياء تقينى أيضاً البرد ، نقول : إياك أنْ تظن أن الدفء يأتيك من غطاء ثقيل أو ملابس شتوية ، إنما الدفء من ذاتك أنت ، فأنت تدفىء (البطانية) والفراش الذى تنام عليه ، بدليل أنك ساعة تأتى فراشك لتنام تجده بارداً ، ثم بعد مرور ساعات الليل تجده فى الصباح دافئاً .

إذن : فحرارتك الذاتية انتقلَتْ إلى الغطاء فأدفأتْه ، وكل ما يؤديه الغطاء أنه يحفظ حرارة جسمك بداخله ، فلا تتبدد فى الهواء المحيط بك .

لذلك ، لما درس العلماء مسألة حرارة جسم الإنسان وجدوا فيها مظهراً من مظاهر قدرة الله ، فالإنسان تُشع منه حرارة تكفى فى أربع وعشرين ساعة لغَلْى سبعة عشر لتراً من الماء ، ومعدل هذه الحرارة فى الجسم ٣٧° ثابتة فى قيظ الحر وبرد الشتاء ، مما يدل على أن لجسمك ذاتيةً منفصلة تماماً عن الجو المحيط بك .

ومن عجائب خَلْق الإنسان أن هذه الحرارة تتفاوت من عضو إلى عضو آخر ، والجسم واحد ، فأعضاء حرارتها ما بين ٧° - ٩° كالأنف والأذن والعين ، ولو زادتْ حرارة العين عن هذا المعدل

تنفجر ، أما الكبد فحرارته ٤٠° .. إلخ ، ومعلوم أن الحرارة تُحدث استطراقاً فى الجسم الواحد ، وفى المكان الواحد .

ومن عجائب خَلْق الإنسان فى هذه المسألة العَرَق الذى يتصبب منك فى حالة تعرضك للحرارة الشديدة ، فيخرج العرق من مسامِّ الجسم ، ليُلطف من درجة حرارته ، ويُحدث عملية تبريد ، كالتى نراها مثلاً فى موتور السيارة ، حتى عندنا فى الفلاحين تجد الفلاح من كثرة عمله فى الأرض وكثرة عرقه تتكون على جسمه طبقة مثل الجير ، وهذه أملاح تخرج مع العرق ؛ لذلك يكثر فى هؤلاء الفلاحين أكل (المش) و (المخللات) لتعويض نسبة الأملاح المفقودة مع العرق ، إذن : فالحق سبحانه لم يقل (والبرد) ، لأن الدفء كما رأينا ذاتى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) ﴾ [الأحزاب] وهذه القلة مستثناة : إما من الإتيان ، أو أنهم يأتون البأس ، لكن قلة منهم يُقاتلون بهمة ونشاط ، والباقون أتوْا ذرّاً للرماد فى العيون - كما يقولون ولئلا يُتهموا بالتخلف عن رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] الشح في معناه العام هو البخل ، لكن الشحيح الذى يبخل على الغير ، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله ، أما البخيل فهو الذى يبخل حتى على نفسه ؛ لذلك قال تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] ليس على أنفسهم[1] .

وأنت حين تتأمل الصفات المذمومة فى الكون تجدها ضرورية لحقائق تكوين الكون ، وتجد لها مهمة ؛ لذلك فَطِن الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

إنَّ الأشحَّاءَ أسْخَى النـاسِ قَاطبةً ... لأَنَّهم ملَكُوا الدُّنيا وَمَا انتفعُوا

لم يَحْرِمُوا الناسَ من بَعْضِ الذى ملَكُوا ... إلاَّ ليُعْطَوْا هُموا كُل الذى جمَعُوا

وآخر يرى للبخيل فضلاً عليه ، فيقول :

جُزِى البخيلُ علىَّ صالحةً ... منِّى لخفَّتِه علَى نَفْسِى

نعم ، البخيل خفيف على النفس ؛ لأنه لم يَجُدْ عليك بشىء يأسرك به ، ولم يستعبدك فى يوم من الأيام بالإحسان إليك ، فهو خفيف على نفسك ؛ لأنك لستَ مديناً له بشىء .

وهذا على حَدِّ قول الشاعر :

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٥٤١٢/٧) عدة أقوال فى تأويل قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] :

– أشحة عليكم : أى : بالحفر فى الخندق والنفقة فى سبيل الله . قاله مجاهد وقتادة .
– وقيل : بالقتال معكم .
– وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .
– وقيل : أشحة بالغنائم إذا أصابوها . قاله السدى » .

أَحْسِنْ إلَى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قُلُوبَهُم ... وطَالَما اسْتَعبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ

فالبخل وإنْ كان مذموماً ، فقد ركزه الله فى بعض الطباع ليعين التضاد ، ومعنى « يعين التضاد » أن البخل مقابله الكرم ، والبخيل يعاون الكريم على أداء مهمته ، فالكريم عادة (إيده سايبه) ، ينفق هنا وهناك حتى ينفد ما معه ، ومن أهل الكرم مَنْ يلجأ إلى أنْ يبيع أرضه أو بيته فى سبيل كرمه ، فمَنْ يشترى منه إذن إذا لم يكُنْ هناك مَنْ يكنز المال ويبخل به ؟

إذن : لو نظرتَ إلى كل شىء فى الوجود تجد له مهمة ، حتى إنْ كان مذموماً ، ثم إن البخيل كثيراً ما يكون ظريفاً لا يخلو مجلسه من ظُرْفه ، فقد كنا فى بواكير شبابنا نشرب السجائر ، فكان الواحد منا يُخرِج علبة السجائر يوزعها على الحاضرين ، وربما لا تكفى واحدة فأخرج الأخرى ، وكان فى مجلسنا واحد من هؤلاء ، فنظر إلىَّ فى غَيْظ وقال (يا قلبك يا أخى) .

وقد كانت هذه السجائر سبباً فى أننا جُرْنا على شبابنا ، فكان لهذا أثر بالغ علينا فى الكِبَر ، فليحمِ الشباب شبابهم ولا يدمروه بمثل هذه الخبائث المحرمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى ساعة الفزع ، يأخذ الفزع أبصارهم، فينظرون هنا وهناك ، لا تستقر أبصارهم ، ولا تسكن إلى شىء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

ومن ذلك الخبر : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتَقِلُّون عند الطمع » .

كان هذا حالهم عند الخوف والفزع ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] معنى ﴿ سَلَقُوكُم .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

آلموكم وآذوكم بألسنتهم ، وقالوا لكم : أعطونا حقنا ، فقد حاربنا معكم ، ولولا نحن ما انتصرتُمْ على عدوكم ، إلى غير ذلك من التطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

وهذا كله من معانى (السلق) ومنه : سلق اللحم ونحوه ، وهو أنْ يغلى فى الماء دون أنْ تضيف إليه شيئاً ، ومثله السلخ ، فكلها معانٍ تلتقى فى الإيلام .

وعادةً ما تجد فى اللغة إذا اشترك اللفظان فى حرفين ، واختلفا فى الثالث تجد أن لهما معنى عاماً يجمعهما كما فى سلق وسلخ ، وفى : قطف ، وقطر ، وقطم . وكلها تلتقى فى الانفصال .

وقوله تعالى ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] حداد يعنى : حادة فصيحة بملء الفم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] بعد أنْ قال ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى عمومه .

﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] لأنهم لو آمنوا لَعلموا أن الشحَّ ، شُحٌّ عليهم هم ، وليس فى صالحهم ؛ لأن الكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ؛ لأنك مؤتمن على الرزق ؛ لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوَّدْتُ

خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطع عن الناس ما عوَّدتهم . إذن : فالعطاء استدرار لنعمة الله ، وسبب للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد ، أعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ، ثم وزَّعها على إخوته ، ولم يُؤثِر نفسه عليهم ، لا بُدَّ أنك ستأتمنه ، وتعطيه المزيد ؛ لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

ونتيجة عدم الإيمان ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أنهم عملوا ، لكن أعمالهم لا رصيدَ لها من إيمان ؛ لذلك أحبطها الله أى : جعلها غير ذات جدوى ولا فائدةَ تعود عليهم . وهذه القضية أوضحها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وهذا الإحباط أمر يسير على الله تعالى ، لكن أفى حَقِّ الله تعالى نقول : هذا صعب ، وهذا يسير ؟ قالوا : كلُّ أمر الله يسير ؛ لأنه تعالى لا يفعل بمعالجة الشىء ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ ، وسبق أنْ مثَّلنا لمعالجة الأفعال بمَنْ يريد أنْ ينقل مثلاً عشرة أرادبّ من القمح ، فإنه لا يستطيع إلا أنْ يحملها مُجزَّأة ، فينقل (الجُوال) من هنا إلى هناك ، ثم الآخر ، إلى أنْ ينتهى من الكمية كلها ، ويأخذ فى هذا العمل وقتاً يتناسب مع قوته .

فلما تقدَّم العلم ، وتطوَّر الفكر الإنسانى رأينا الآلة التى تحمل كل هذه الكمية وتنقلها فى حركة واحدة ، وبمجرد الضغط على مجموعة من الأزرار والمفاتيح ، فإذا كان العبد المخلوق لله عز وجل قد استطاع أنْ يصلَ إلى هذا التيسير ، فما بالك بالخالق عز وجل ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] ولا تتعجب من هذه المسألة ؛ لأن ربك أعطاك فى ذاتك شيئاً منها ، لماذا تستبعد فعْل الله تعالى بكُنْ ، وأنت ترى جوارحك تنفعل لمجرد إرادتك للفعل ، مجرد رغبتك فى القيام ترى نفسك قد قُمْتَ ، دون حتى أن تأمر جوارحك وعضلاتك بالقيام .

فإنْ قلتَ : فلماذا لا يأمر الإنسان جوارحه وأعضاءه بما يريد ؟ نقول : لأنك لا تملك أنْ تأمرها ، فهى تنقاد لك ولمرادك بأمر الله ، فالأشياء كلها إنما تأتمر بأمر الخالق سبحانه ، ولا تتخلف عن أمره أبداً ، ألم تقرأ عن السماء ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق]

فالسماء مع عظَم خَلْقها تسمع وتطيع أمر خالقها ؛ أما أنت أيها العبد ، فأىَّ شىء تأمر ، وأنت لا تعرف أصلاً ما تأمره ؟ وهل تعرف أنت العضلات والأعضاء والأعصاب التى تشترك بداخلك لأداء عملية القيام ؟ لذلك ولعدم علمك بما تأمره جعل الله أعضاءك وجوارحك تنفعل لمجرد إرادتك .

أما هو سبحانه فيقول (كُنْ) لأنه خالق كل شىء ، وكل شىء مؤتمر بأمره ، وقال سبحانه (كُنْ) حتى لا تقولها أنت ، فكأنها سبقتْ منه سبحانه لصالحك أنت ، وأنت تفعل من باطن كُنْ الأولى التى توزَّعَتْ علينا جميعاً .

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

القرآن الكريم يحكى هذا الموقف عن المنافقين ، ويكشف نواياهم السيئة ، فبعد أنْ تجمَّع الأحزاب وخرجوا لمحاربة النبى ﷺ ما يزال هؤلاء المنافقون ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] فهذا التجمُّع يخيفهم ويروعهم ؛ لذلك لم يُصدِّقوه ، فقد رأوا النبى ﷺ ينتصر على أعدائه متفرقين ، وهذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها أعداء الإسلام على اختلافهم .

إذن : استبعد المنافقون تجمُّع الأحزاب هذا التجمع ، وبعد ذلك ينفضون دون أنْ يصنعوا حَدَثاً يُذكر فى التاريخ .

والحُسْبان : ظن ، أى : ليس حقيقة .

﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : إنْ يتجمع الأحزاب يودُّ المنافقون لو أنهم بادون أى : مقيمون فى البادية بعيداً عن المدينة ؛ لأنهم يخافون من مطلق التجمع ، ولأنهم إنْ بَقَوْا فى المدينة إما أنْ يحاربوا الأحزاب وهم غير واثقين من النصر ، وإما ألاَّ يحاربوا فيصيرون أعداءً للمسلمين .

فهم يريدون - إذن - أنْ يعيشوا فى النفاق ، وألاَّ يخرجوا منه ؛ لذلك يودون عيشة البادية مع الأعراب ، ومن بعيد ﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : ما حدث لكم فى هذه المواجهة .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : درْءاً للشبهات ، وذَرّاً للرماد فى العيون ، إذن : لا تأْسَ عليهم ، ولا تحزن لتخلُّفهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

أسوة : قدوة ونموذج سلوكى ، والرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه لصيانة حركة الإنسان فى الحياة ، وهو أيضاً ﷺ أُسْوة سلوك ، فما أيسر أنْ يعظ الإنسانُ ، وأنْ يتكلَّم ، المهم أنْ يعمل على وَفْق منطوق كلامه ومراده ، وكذلك كان سيدنا رسول الله مُبلِّغاً وأسوة سلوكية ؛ لذلك قالت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن »[١] .

لكن ، ما الأسوة الحسنة التى قدَّمها رسول الله فى مسألة الأحزاب ؟ لمَّا تجمَّع الأحزاب كان من دعائه ﷺ : « اللهم مُنزلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[٢] .

وجعل شعاره الإيمانى فيما بعد « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[٣] وما دام

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، وأبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن سعد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٤٢) كتاب الجهاد ـ باب استحباب الدعاء بالنصر (٧) من حديث عبد الله بن أبى أوفى.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٢٤) كتاب الذكر والدعاء ـ باب (١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظهما : « لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

هذا شعار المصطفى ﷺ ، فهو لكم أُسْوة .

وقال تعالى عن المؤمنين فى هذه الغزوة : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

وفى بدر يقول أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك[1] .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر ، فلَم الإلحاح فى الدعاء ؟ نقول : ما كان سيدنا رسول الله يُلح فى الدعاء من أجل النصر ؛ لأنه وَعْد مُحقَّق من الله تعالى .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾ [الأنفال]

فالرسول لا يريد الانتصار على العِير ، وعلى تجارة قريش ، إنما يريد النفير الذى خرج للحرب .

وقوله تعالى : ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ .. (٢١)﴾ [الأحزاب] كأن الأُسْوة الحسنة مكانها كل رسول الله ، فهو ﷺ ظرف للأُسْوة الحسنة فى كل عضو فيه ﷺ ، ففى لسانه أُسْوة حسنة ، وفى عينه أُسْوة حسنة ، وفى يده أُسْوة حسنة .. إلخ ، كله ﷺ أُسْوة حسنة .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٧) أن رسول الله ﷺ عدّل الصفوف يوم بدر ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد . وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع . (أى : الغبار) .

هذه الأُسْوة لمَنْ ؟ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

وصف ذكر الله بالكثرة ؛ لأن التكاليف الإيمانية تتطلب من النفس استعداداً وتهيؤاً لها ، وتؤدى إلى مشقة ، أما ذكْر الله فكما قُلْنا لا يكلفك شيئاً ، ولا يشق عليك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

يعنى : أكبر من أىِّ طاعة أخرى ؛ لأنه يسير على لسانك ، تستطيعه فى كل عمل من أعمالك ، وفى كل وقت ، وفى أىِّ مكان ، ولذلك قُلْنا فى آية الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠)﴾ [الجمعة]

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

أى : لما رأى المؤمنون الأحزاب منصرفين مهزومين ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ .. (٢٢)﴾ [الأحزاب] أى : هذا النصر ، وهذا الوعد الذى تحقق ما زادهم ﴿إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ [الأحزاب]

وهذه المسألة دليل من أدلة أن الإيمان يزيد وينقص ، فالإيمان يزيد بزيادة الجزئيات التى تُعليه ، فبعد الإيمان بالحق ـ سبحانه وتعالى ـ هناك إيمان بالجزئيات التى تثبت صدْق الحق فى كلِّ تصرف .

وتسليماً : أى لله فى كلِّ ما يُجريه على العباد .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة من المؤمنين صادقى الإيمان[2] ، إلا أنهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً ، ولكنهم عاهدوا الله إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُنَّ إليها ، ويبلُون فيها بلاءً حسناً .

وورد أنها نزلت فى أنس بن النضر ، فقد عاهد الله لما فاتته بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً ، وفعلاً لما جاءت أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى استشهد فيها ، فوجدوا فى جسده نيِّفاً وثمانين طعنةً برمح ، وضربة بسيف[3] ، وهذا معنى

---

(١) نحب : أوجب على نفسه أمراً . أو نذر نذراً . وقضى نحبه : وفَّى بنذره . والنحب النذر ويقال لمن مات فى سبيل الله : قضى نحبه . أى : وفَّى بنذره لأنه نذر أن يموت فى سبيل الله . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

(٢) قال على بن أبى طالب عن طلحة بن عبيد الله : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب] : طلحة ممن قضى نحبه ، لا حساب عليه فيما يستقبل . وقال عيسى بن طلحة : أن النبى ﷺ مرَّ عليه طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه . أوردهما الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٣) عن أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فشق عليه ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدنى الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سعد ، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحُد ، فقاتلهم حتى قُتل . قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، وقد مثَّلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٢ ، وابن سعد فى الطبقات الكبير (٤/٣٢٩)] .

﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب]

وساعة تسمع كلمة ﴿رِجَالٌ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] فى القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جدٍّ وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين ، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال . وهؤلاء الرجال وَفَّوا العهد الذى قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأنْ يبلُوا فى سبيل نصرة الإسلام ، ولو يصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] قضى نحبه : أى أدَّى العهد ومات ، والنحب فى الأصل هو النذر ، فالمراد : أدى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استُعملَت (النحب) بمعنى الموت .

لكن ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا : المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التعبير ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك نذراً . أى : انذر لله أنْ تموت ، لكن فى نُصْرة الحق وفى سبيل الله ، فكأن المؤمن هو الذى ينذر نفسه وروحه لله ، وكأن الموت عنده مطلوب ليكون فى سبيل الله .

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخَلْق يموتون من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن ؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت فى سبيل الله ، فينذرها ويقدمها لله عن رضا ، ولمَ لا وقد ضحيتَ بحياة ، مصيرها إلى زوال ، واشتريتَ بها حياة باقيةَ خالدة مُنعَّمة .

وقد ورد فى الأثر : « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقى على أحد فينا إلا أن كل

إنسان فى نفسه يتصور أنه لن يموت .

وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه ، وأنْ يضحى بها فى سبيل الله ؛ لأن الله يقول : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التى عند الله حياة على الحقيقة ، لأن الرزق سمة الحيِّ الذى يعيش ويأكل ويشرب .. إلخ ، وإياك أنْ تظن أنها حياة معنوية فحسب .

وقد تسمع مَنْ يقول لك : هذا يعنى أننى لو فتحتُ القبر على أحد الشهداء أجده حياً فى قبره ؟ ونقول لمن يحب أنْ يجادل فى هذه المسألة : الله تعالى قال : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)﴾ [آل عمران] ولم يقل : أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت ، لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون الآخرة .

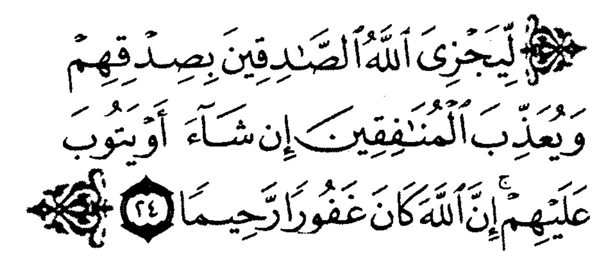
والمؤمن ينبغى أن يكون اعتقاده فى الموت ، كما قال بعض العارفين : الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك .

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة ، إنما نستقبلها مع نقيضها حتى لا نغترَّ بها .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] أى : ينتظر الوفاء بعهده مع الله ، وكأن الله تعالى يقول : الخير فيكم يا أمة محمد

باقٍ إلى يوم القيامة ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب] معنى التبديل هنا : أى ما تخاذلوا فى شىء عاهدوا الله عليه ونذروه ، فما جاءت بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أُدخل أحد منهم الحرب موارَبة ورياء ، فقاتل من بعيد ، أو تراجع خوفاً مَن الموت ، بل كانوا فى المعمعة حتى الشهادة .

ثم يقول الحق سبحانه :



تأمل هنا رحمة الخالق بالخَلْق ، هذه الرحمة التى ما حُرِم منها حتى المنافق ، فقال سبحانه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.. (٢٤) ﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تحدثنا عن صفتى المغفرة والرحمة وقلنا : غفور رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ، وأن القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب والنقائص ، ثم يتلوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك باللص تجده فى بيتك ، فتشفق عليه ، ثم تمتد إليه يدك بالمساعدة التى تعينه على عدم تكرار ذلك . وقلنا : إن الغالب أن تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقليلاً ما تسبق الرحمةُ المغفرةَ .

وقلنا : إنه يشترط فى المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال : غفر له ، وكذلك فى الرحمة فإن مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحـمة ؛ لأنه قد يعطيه عوَضاً عما قدَّم له أو يعطيه انتظار أنْ يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الغيظ : احتدام حقـد القلب على مقابل منافس ، والمعنى : أن الله تعالى ردَّ الكافرين والغيظ يمـلأ قلوبهم ؛ لأنهم جاءوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شـيئاً ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْراً .. ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] ليس الخـير المطلق ، إنمـا لم ينالوا الخيـر فى نظرهم ، وما يـبتغـونه من النصر على المسلمين ، فهو خير لهم وإنْ كان شراً يُراد بالإسلام .

وقـد رد الله الكافـرين إلى غـير رَجْـعـة ، ولن يفكروا بعـدها فى الهـجوم على الإسـلام ؛ لذلك قال سـيدنا رسول الله بـعد انصرافـهم خائبـين : « لا يغزونا أبداً ، بل نغـزوهم نحن »[1] وفعلاً كـان بعدها فتح مكة .

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] أى :

(١) أخرجـه البخارى فى صـحيحـه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمـد فى مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليـمان بن صرد . قـال العسقـلانى فى (فتح البارى ٧/٤٠٥) : « فـيه علَم من أعلام النبـوة ، فإنه ﷺ اعتـمر فى السنة المقـبلة فصدتـه قريش عن البيت ووقـعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال » .

أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة ، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت فى غير صالح المؤمنين ؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، فى حين كان المشركون عشرة آلاف .

إذن : كانت رحمة الله بالمؤمنين هى السبب الأساسى فى النصر ؛ لذلك ذُيلت الآية بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب] قوياً ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزاً : أى يغلب ولا يُغلب .

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها ، أما بنو قريظة فيقول الله فيهم :

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾

معنى ﴿ظَاهَرُوهُم .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : عاونوهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : من حصونهم وقلاعهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : الخوف وهو جندى من جنود الله ، وهذا الرعب الذى ألقاه الله فى قلوب الكافرين هو الذى فرَّقهم ، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤)﴾ [المنافقون]

ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذى نصر الله به عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : المقاتلين الذين يحملون السلاح ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾ [الأحزاب] وهم النساء والذرارى وغيرهم مِمَّنْ لا يحملون السلاح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾

معنى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها خيبر ، وكأن الله يقول لهم : انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآنى من قصة الأحزاب(١) .

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] قال : « هم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان ، وراسلوه ، ونكثوا العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ ، فبينما النبى ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه ، إذ أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : عفا الله عنك . ما وضعت الملائكة عليها السلام سلاحها منذ أربعين ليلة ، فانهض إلى بنى قريظة فإنى قد قطعت أوتادهم ، وفتحت أبوابهم ، وتركتهم فى زلزال وبلبال .

فأرسل رسول الله ﷺ فحاصرهم ، وناداهم : يا إخوة القردة فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف ، فرجوا أن تأخذه فيهم مودة ، فأومأ إليهم أبو لبابة ، فأنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٢٧) ﴾ [الأنفال] فحكم فيهم سعد : أن تُقتل مقاتلتهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقال الأنصار : آثر المهاجرين بالأعقار علينا ، فقال سعد : إنكم كنتم ذوى أعقار ، وأن المهاجرين كانوا لا أعقار لهم . فذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبَّر وقال : مضى فيكم بحكم الله » . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٥٩١] .

وينبغى علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عمَّا فى هذه القصة من بطولات ، ففيها بطولات متعددة ، لكل بطل فيها دور .

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكانا من قريظة ، ذهبا إلى قريش فى أماكنها ، وقالوا : جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد ، فأتُوا أنتم من أسفل ، وننزل نحن من أعلى ، ونحيط محمداً ومن معه ونقضى عليهم .

وكان فى قريش بعض التعقُّل فقالوا لحيى بن أخطب وصاحبه : أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر الأديان فقولوا لنا : أديننا الذى نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال : بل أنتم أصحاب الحق[1] .

سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء ، وكما يقال : آفة الرأى الهوى ؛ لذلك لم يناقشوه فى هذه القضية ، بل نسجوا على منواله ، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد

---

(١) قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾ [النساء] وعن عكرمة قال : جاء حُيى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء (الناقة العظيمة السنام) ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العانى (الأسير) ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً . [تفسير ابن كثير ١/٥١٣] .

وإرم[١] ، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيى بن أخطب ، وأن تسأله لماذا غيَّرتم رأيكم فى محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ، وفضح هؤلاء وهؤلاء ، فقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾ [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأى ، فتنتهز قريش أول فرصة حين تجد مَنْ يناصرها ضد محمد ودعوته ، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بنى فزارة ، ومن بنى مرة ، ومن غطفان وبنى أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا جميعاً للقضاء على الدين الوليد .

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرجل ليس من العرب ، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله ، وكأن الحق سبحانه يُعد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل ، إنه الصحابى الجليل سلمان الفارسى[٢] ،

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب . وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

(٢) سلمان الفارسى ، صحابى من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، رحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وعلم بخبر الإسلام فقصد النبى فسمع كلامه ، ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن تحرر من العبودية . كان ينسج الصوف ويأكل خبز الشعير من كسب يده . توفى ٣٦ هـ [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

الذى قضى حياته جوَّالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به .

وكان سلمان أول بطل فى هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعنى : جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صَفِّه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »[1] وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه .

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسى الذين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن ساقها الله لنا ، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابى الجليل ، لنعلم كما قال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وقد أوضحنا هذا المعنى فى قصة فرعون الذى كان يذبح الأطفال

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

بعد النبوءة التى سمعها ، ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه الماء ، وهو فى صندوقه ، ولا يخفى على أحد أنَّ أهله قصدوا بذلك إبعاده عن خطر فرعون ، ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما فى قلبه ، فأخذ الولدَ وربَّاه فى بيته .

وقد أحسن الشاعر الذى عبَّر عن هذا المعنى ، فقال :

إذاَ لَمْ تُصَادِفْ فِى بَنِيكَ عِنَايةٌ فَقَد كَذَب الراجى وَخَابَ المُؤَمِّلُ

فَمُوسىَ الذِى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ومُوسىَ الذى ربَّاهُ فرعَوْنُ مُرْسَلُ

البطل الثانى فى هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعى[(١)] ، جاء لرسول الله يقول : يا رسول الله لقد مال قلبى للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومى ، فقال له رسول الله : « وما تغنى أنت ؟ ولكن خذِّل عنا »[(٢)] أى : ادفع عنا القوم بأىِّ طريقة ، أبعدهم عنّا ، أو ضلِّلهم عن طريقنا ، أو قُلْ لهم أننا كثير ليرهبونا .. إلخ .

---

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، أبو سلمة . صحابى مشهور ، أسلم ليالى الخندق ، وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان فى وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا عن المدينة . قُتِل نعيم فى أول خلافة على قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل ، وقيل : مات فى خلافة عثمان ، والله أعلم . [الإصابة فى تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٧٨٠] .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٤٧) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ ، « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان فى قلبه ، وهو حديث عهد به ؟ نظر نُعَيْم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل ، وبنى قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما ، فذهب لأبى سفيان ، وقال : يا أبا سفيان ، أنا صديقكم ، وأنتم تعلمون مفارقتى لدين محمد ، ولكنى سمعت هَمْساً أن بنى قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا : إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين فى المدينة مثلنا ، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون ، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بنى قريظة لمحمد ؛ لذلك قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم .

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم : أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بنى قريظة ، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم ، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم فى محاربة محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم .

بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بنى قريظة فى هذه المسألة ، فقال : هلك الخفُّ والحافر - يعنى : الإبل والخيل - ولسنا بدار مقام لنا ، فهيا بنا نناجز[1] محمداً - هذا بعد أنْ مكثوا نيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له : هذا يوم السبت ، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم فى قتال ، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا ، ساعتها علم أبو سفيان أن كلام نعيم الأشجعى صدْق ، فجمع قومه وقال لهم :

---

(١) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

الأرض ليست أرض مقام لنا ، وقد هلك الخف والحافر ، فهيا بنا ننجو .

قالوا : إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأخبر رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئاً ، فقال : « ألا رجل منكم يذهب فيُحدِّثنا الآن عنهم ، وهو رفيقى فى الجنة ؟ » والمراد : أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم .

ومع هذه البشارة التى بشر بها سيدنا رسول الله مَنْ يؤدى هذه المهمة ، لم يَقُمْ من الحاضرين أحد ، ودَلَّ هذا على أن الهول ساعتها كان شديداً ، والخطر كان عظيماً ، وكان القوم فى حال من الجهد والجوع والخوف ، جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأنس أحد منهم قوة فى نفسه يؤدى بها هذه المهمة .

لذلك كلَّف رسول الله رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة قال حذيفة : ولكن رسول الله قال لى : لا تُحدث أمراً حتى ترجع إلىَّ ، فلما ذهبتُ وتسللتُ ليلاً جلستُ بين القومَ ، فجاء أبو سفيان بالنبأ من بنى قريظة ، يريد أنْ يرحل بمَنْ معه ، فقال : ليتعرَّف كل واحد منكم على جليسه ، مخافة أن يكون بين القوم غريب .

وهنا تظهر لباقة حذيفة وحُسْن تصرفه - قال : فأسرعتُ وقلت لمَنْ على يمينى : مَنْ أنت ؟ قال : معاوية بن أبى سفيان ، وقلت لمَنْ على يسارى : مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن العاص[1] ، وسمعت أبا سفيان

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) من حديث حذيفة « أن أبا سفيان أحس أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فضربت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى على الذى عن يسارى فأخذت بيده » (أخرجه الحاكم فى مستدركه ٣/٣١) وفى رواية أخرى ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧١) وعزاها لمحمد بن إسحاق « أن أبا سفيان قال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان » ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص . والله أعلم .

يقول للقوم : هلك الخفُّ والحافر ، وليستْ الأرضُ دارَ مقام فهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهى معقولة[١] من شدة تسرُّعه ، قال حذيفة : فهممتُ أن أقتله ، فأخرجت قوسى ووترتُها ، وجعلت السهم فى كبدها ، لكنى تذكرت قول رسول الله « لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى » فلم أشأْ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلى ، فلما أحسَّ بى فَرج بين رجليه - وكان الجو شديد البرودة - فدخلتُ بين رجليه فنثر علىَّ مُرْطه ليدفئنى ، فلما سلم قال لى : ما خطبك فقصصت عليه قصتى[٢] .

وبعد أنْ جند الحق سبحانه كلاً من نعيم الأشجعى وحذيفة لنصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروْهَا ، وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم ، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم ، ففرَّ مَنْ بقى منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر]

بعد أنْ ردَّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى ، جبهة بنى قريظة ، فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ لأْمتَك[٣] يا محمد ، ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب ؟ اذهب فانتصر لنفسك من بنى قريظة ، فقال رسول الله للقوم : « مَنْ كان سامعاً

---

(١) عقل البعير : قيده وربطه . [لسان العرب - مادة : عقل] بتصرف .

(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) ، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٧١) .

(٣) اللأمة : الدرع . وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلَقها . [لسان العرب - مادة : لأم] .

مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[١] .

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر : منهم مَنْ انصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بنى قريظة ينوى صلاة العصر بها ، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما اجتمعوا عند رسول الله أقرَّ الفريقين ، وصوَّب الرأيين .

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والعصر حَدَثٌ ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس توشك أنْ تغيب فصلَّى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصَلِّ إلا فى بنى قريظة ؛ لذلك أقر رسول الله هذا وهذا[٢] .

وينبغى على المسلم أنْ يحذر تأخير الصلاة عن وقتها ؛ لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظلُّ كل شىء مِثْلَيْه وينتهى بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تُؤخِّر العصر لآخر وقته ، صحيح إنْ صليْتَ آخر الوقت لا شىء عليك ، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت .

إذن أنت لا تأثم إنْ صلّيْت آخر الوقت ، لكن تأثم فى آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصَلِّ ؛ لذلك يقول سيدنا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه للبخارى (فتح البارى ٤٠٨/٧) من قول ابن إسحاق . وأصل الحديث عند البخارى فى صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) كتاب الجهاد - باب المبادرة بالغزو (٢٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، ولفظه أن بعض الصحابة أدركه العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرد منا ذلك . فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهما .

رسول الله ﷺ : « خير الأعمال الصلاة لوقتها »[1] فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر .

وفى مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار فى الخندقة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها ، وأن يقذفوا منها خيولهم ، فلما قذفوا بخيولهم إلى الناحية الأخرى ، فجالت الخيل فى السبخة بين الخندق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامرى[2] وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدُّوه فى المعارك بألف فارس .

ووقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه : مَنْ يبارز ؟ فقال على لرسول الله : أبارزه يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « اجلس يا على ، إنه عمرو » فأعاد عمرو : أين جَنّتكم التى وعدتم بها مَنْ قُتِل فى هذا السبيل ؟ أجيبونى .

فقال على : أبارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا على ، إنه عمرو » وفى الثالثة قال عمرو :

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّداءِ   بجمعِكُمُ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ

---

(١) عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) هو : عمرو بن عبد ود ، قرشى من بنى لؤى ، فارس قريش فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، عاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين ، وأصر على المقاتلة ، فقاتله على بن أبى طالب فقتله عام ٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٥/٨١) .

وَوقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ مَوْقِفَ القرْن المناجزْ
إنَّ الشَّجاعَةَ فى الفَتَى والجودَ مِنْ خير الغرائزِ

عندها انتفض على رضى الله عنه وقال : أنا له يا رسول الله ، فأذن له رسول الله ، فأشار على لعمرو ، وقال :

لاَ تَعجَلَنَّ فَقَدْ أتَاكَ مجيب صوتكَ غير عَاجزِ
ذُو نية وبَصيرة والصِّدْقُ مُنجى كُلَّ فَائزْ
إنِّى لأَرْجُو أَنْ أُقيم عَلَيك نَائحةَ الجنَائزْ
مِنْ ضَرْبة نَجْلاَء[1] يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

أى : الحروب[2] .

وكانت لسيدنا رسول الله درع سابغة اسمها ذات الفضول ، فألبسها رسول الله علياً وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمامته السحاب ، وكانت تسعة أكوار ، وخرج على رضى الله عنه لمبارزة عمرو بن ود ، فضرب عمرو الدرقة[3] فشقَّها ، فعاجله على بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً ، فقال علىٌّ ساعة وقع : الله أكبر سمعه رسول الله فقال : « قُتل عدو الله » .

ثم حدثت زوبعة العثْيَر[4] ـ وهو غبار الحرب ـ فحَجبت المعركة ،

---

(١) طعنة نجلاء : أى واسعة بيِّنة النجَل . وسنان منجل : واسع الجرح . ونجله بالرمح : طعنه وأوسع شقه . [لسان العرب ـ مادة : نجل] .

(٢) ذكر هذه الأبيات فى نحو هذا السياق أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٨ ، ٤٣٩) .

(٣) الدرقة : ترس يُتخذ من الجلود ، ليس فيه خشب ولا عقب . والجمع درق وأدراق . [قاله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : درق] .

(٤) العثْير (بالثاء الساكنة) : الغبار . والعثيرات : التراب . حكاه سيبويه . [لسان العرب ـ مادة : عثر] ولفظ الحديث عند البيهقى فى دلائل النبوة ٤٣٩/٣ : « وثار العَجاج » والعجاج : الغبار . وقيل : هو من الغبار ما ثوَّرته الريح .

فذهب سيدنا عمر رضى الله عنه ليرى ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه فى درع عمرو بن ود ، فقال : الله أكبر ، فقال رسول الله : « قُتل وأيْم الله » .

ومن الأخلاق الكريمة التى سجَّلها سيدنا على فى هذه الحادثة أنه بعد أنْ قتل عَمْراً سأله رسول الله ﷺ : « ألاَ سلبْتَ درْعه ، فإنه أفخر درع فى العرب » ؟ فقال على : والله لقد بانتْ سوأته ، فاستحييت أنْ أصنع ذلك[1] .

ثم أنشد رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو[2] :

نَصرَ الحجَارةَ[3] من سَفَاهَة رأْيه ... ونَصَرْتُ ربَّ مُحمد بصَوابى

فَصَددْتُ حِينَ تركْتُه مُتجدِّلاً ... كالجِذْعِ بين دَكَادكٍ[4] ورَوَابِى

وعَفَفْتُ عن أثْوَابِه ولَو أنّنى ... كنتُ المُقَنْطَر بَزَّنِى أَثْوابِى[5]

---

(١) السائل لعلى هو عمر بن الخطاب فيما أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٩) أن عمر قال له : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها . فقال : « ضربته فاتقانى بسواده (أى : بإسته) ، فاستحييت ابنَ عمى أن أستلبه » . فالله أعلم .

(٢) ذكر ابن هشام هذه الأبيات فى « السيرة النبوية » (٣/٢٢٥) وعزاها لابن إسحاق ، ثم قال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب .

(٣) الحجارة (هنا) : هى الأنصاب والأصنام التى كانوا يعبدونها ويذبحون لها .
وقد ذكر البيهقى هذا البيت بلفظ آخر :

عَبَدَ الحجَارةَ من سَفَاهَة عَقْله ... وَعَبدْتُ ربَّ مُحمد بصَوَاب

(٤) متجدلاً : لاصقاً بالأرض . والجذع : فرع النخلة . والدكادك : هو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهى الكدية المرتفعة .

(٥) القطر : الناحية والجانب . وطعنه فقطّره أى : ألقاه على قطره أى جانبه . [لسان العرب مادة : قطر] والبزُّ : السلب ، وبز الشىء : انتزعه . [لسان العرب ـ مادة : بزز] .

وفى هذه الواقعة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لو لم يكن لك يا على غيرها فى الإسلام لَكَفَتْكَ » .

لذلك قال العارفون بالله كأن علياً رضى الله عنه حُسِد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين فى ذاته ، فقُتِل بسيف ابن ملجم ، ومن هنا قالوا : أعزّ ضربة فى الإسلام ضربة علىٍّ لعمرو بن ود ، وأشأم ضربة فى الإسلام ضربة ابن ملجم لعلى .

وفى المعركة بطولة أخرى لسيدنا سعد بن معاذ[1] رضى الله عنه حيث يقول : ضربنى يوم الأحزاب حِبَّان بن قيس بن العَرِقة ، وقال : خُذْها وأنا ابن العَرِقة[2] ـ فقلت : عرَّقَ الله وجهك فى النار ، فلما أَصابنى فى أكحلى ـ والأكحل هو : العِرْق الذى نضع فيه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة .

فقلت : اللهم إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلنى شهيداً ، وإنْ كنتَ تعلم أنهم يعودون فأبقنى لأشفى نفسى ممَّنْ أخرج رسول الله وآذاه ، ولا تُمِتْنى حتى أشفى غليلى من بنى قريظة[3] .

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسى الأنصارى ، صحابى من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، شهد بدراً وأحداً ، رُمى بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً (الأعلام للزركلى ٣/٨٨) .

(٢) العرقة : هى قلابة بنت سعد بن سهم ، وتكنى أم فاطمة ، وسميت العَرِقة لطيب ريحها ، وهى جدة خديجة ، أم أمها هالة (راجع الروض الأنف للسهيلى) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٢٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٤١) ، وفيه إضافة : « اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وقد كان ، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكَماً فى هذه المسألة ، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم ، وأسر الذرارى والنساء والأموال ، فلما بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمتَ فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »[(١)] .

ثم ثار الجرح على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى خيمة رسول الله بالمسجد ، فجاءت الملائكة تقول لرسول الله : مَنْ هذا الذى مات ، وقد اهتزَّ له عرش الرحمن ؟ قال : « إنه سعد بن معاذ »[(٢)] .

وقد قال تعالى : ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ [الأحزاب]

وفى قوله تعالى : ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا.. (٢٧)﴾ [الأحزاب] بشارة للمسلمين بأن البلاد ستُفتح لهم دون قتال ، وهذا حال جمهرة البلاد

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأُرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبى ﷺ : قوموا إلى خيركم ـ أو سيدكم ـ فقال : يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسْبى ذراريهم ، فقال ﷺ : « حكمت بحكم الله ، أو بحكم الملك » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٠٤) .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٢٠٧) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك أن سعداً عاش بعدما أصابه سهم نحواً من شهر حتى حكم فى بنى قريظة بأمر رسول الله ورجع إلى مدينة رسول الله ، ثم انفجر كَلْمه (جُرْحه) فمات ليلاً فأتى جبريل رسول الله فقال له : من هذا الذى فُتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمن فخرج النبى ﷺ إلى سعد ، فوجده قد مات . فقال ابن حجر فى الفتح (٧/١٢٤) : « المراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه » .

التى دخلها الإسلام ، فغالبية هذه البلاد فُتِحَتْ بالأُسْوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نردَّ علَى مَنْ يقول : إن الإسلام انتشر بحدِّ السيف .

وإذا كان الإسلام انتشر بحَدِّ السيف ، فأىُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ؟ إذن : لا شىء إلا قدوة السلوك التى حملت كل هؤلاء على الإيمان .

وسبق أن ذكرنا أن عمر - رضى الله عنه - وما أدراك ما عمر قوة وصلابةً يقول حين سمع قول الله تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** (٤٥) ﴾ [القمر]

قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين(١) .

ثم لو انتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التى دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولَمَّا كانت للجزية وجود فى الفقه الإسلامى ، إذن : بقاء الجزية على مَنْ لم يؤمن دليل على بطلان هذه المقولة ، ودليل على عدم الإكراه فى الدين ، فالفتح الإسلامى كفل حرية العقيدة ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وعليه الجزية لبيت مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة إليه من خدمات .

فالجزية التى تتخذونها سُبة فى الإسلام دليل على أن الإسلام

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

أقرَّكم على دينكم ، إنمـا حَمْل السيف كان فـقط لحماية الاختـيار فى الدعوة ، فأنا سأعـرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أنْ أقاتل مَنْ يعارضنى بالسلاح ، من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ فى ذمتنا .

ثم ينقلنا الـحق سبحـانه إلى بيـوت أزواج النبى ﷺ ، فـيـقـول سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سِـرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَارَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] فربمـا طلبتْ زوجات الرسـول أنْ يُمتِّـعهن وينفق علـيهن ، ممـا يفتح الله علـيه من خيرات هذه البـلاد ، فجاءتْ هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسـلام ما جاء ليحـقق مزيَّة لرسـول الله ، ولا لآل رسـول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بنى هاشـم .

لكن مجىء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] دليل على حـدوث شىء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوِى عن عمر ـ رضـى الله عنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٢٢/٧) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ ، وكـان قد تأذى ببـعض الزوجات . قـيل : سألْـنَه شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذيته بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغـزونا ، بل نغزوهم[1] وبعد أنْ بشَّـرتهم الآيات بما سيُفتح من أرض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] يعنى : ليس عندى ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها ، ومعنى ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] نقول : تعـالَيْن يعنى : أقبلْنَ ، لكنهـا هـنا بمـعنى ارتفـعْنَ مـن العلو ، ارتفـعْنَ عن منـاهج البـشـر والأرض ، وارتقـينَ إلى مناهج خـالق البـشر ، وخـالق الأرض ؛ لأن السيادة فى منهج الله ، لا فى مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المـعنى أيضاً فى قـوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فتعالوْا أى : ارتفـعوا عن قوانين البشر وقـوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشتـرط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القـانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التى يتعرض لها القانون والبشر مهـما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغى أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التى تُفْـرض للزوجة عند مـفارقـة زوجهـا ، والتى قال الله فـيهـا[2] :

---

(١) أخرجـه البخارى فى صـحيحـه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمـد فى مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليـمان بن صُرَد رضـى الله عنه ، وفى الرواية الثانية عنـد البخارى « نحن نسـير إليهم » قال ابن حجر فى الفتح (٧/٤٠٥) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثيـر فى تفسيره (١/٢٩٧) : « قد استـدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتـعة لكل مطلقة سواء كـانت مفوضة أو مفـروضاً لها أو مطلقة قـبل المسيس أو مدخـولاً بها ، وهو قول عن الشـافعى رحمه الله ، وإليـه ذهب سعيـد بن جبير وغـيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعني الطلاق ﴿ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بالجمال أي : اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ؛ لأن التسريح في ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتي في القرآن مع الأمور الصعبة التي تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذي لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلماء كلام طويل في هذه المسألة : هل يقع الطلاق بهذا التخيير ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفارقة الذي يعطى للمرأة - كما نقول مثلاً : العصمة في يدها - فهي إذن تختار لنفسها ، فإنْ قَبلت الخيار الأول وقع الطلاق ، وإن اختارت الآخر فَبِها ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة[1] .

---

(١) قال الشافعي : التخيير كناية ، فإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر في عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت : لم أُرد باختيار نفسي الطلاق ، صدقت . وقال القرطبي في المفهم فقال في الحديث : إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أما الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال : لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقاً ، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق لأن فيها ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أي : بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكاني ٦/٢٤٢] .

وأَمْرُ الله لرسوله أن يقـول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجـاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شىء من النفقة .

وكلمـة الأزواج : جـمع زوج ، وتُقـال للـرجل وللمـرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تمامـاً كلمة التوأم ، فهى تعنى (واحد) لكن مـعـه مـثله ، والدليل عـلى ذلك قـوله تعـالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩)﴾ [الذاريات] يعنى : ذكـر وأنثى ، فـالذكر وحـده زوج ، والأنثى وحـدها زوج ، وهذه القسـمة موجـودة فى كل المخـلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى الأسلـوب هنا أن الحق سـبحـانه حـين يعـرض على رسوله أنْ يُخـيِّر زوجاته بـيـن زينـة الدنيا ونعـيـم الآخرة يستـخدم (إنْ) الدالة على الـشكِّ ، ولا يسـتـخـدم مـثـلاً (إذَا) الدالة على التحـقيق ، وفى هذا إشـارة إلى عدم المـبالغة فى اتهـامهن ، فـالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ فى أذهان بعض زوجاته .

وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من الـنساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قـريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفـصة ، وأم حبيـبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمـة ابنة أبى أمية . ومن غير قريش : صـفية بنت حـيى بن أخطب الذى ذكـرنا قصـته فى الأحـزاب ، ثم جـويرية بنت الحارث من بنى المـصطلق ، ثم ميـمونة بنت الحارث الهـلالية - ومَنْ ذهب عند التنعـيم وجد هناك بئر مـيمونة ، ثم زينـب بنت جحش من بنى أسد ، هؤلاء هُنَّ أمـهات المؤمنين التسـعة اللائى جمعـهنَّ رسولُ الله معاً .

فلما سألْنَ رسول الله النفقة كانت أجرأهُنَّ فى ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مُشَادّة فى الكلام ، فقال لها : « ألا تحبين أنْ أستدعى رجلاً بيننا ؟ » فوافقتْ ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال لها رسول الله : تكلّمى أنت - يعنى : اعرضى حاجتك - فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً .

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر ، فهاج وقام إلى ابنته فوجأها ، فحجزه رسول الله فتناولها ثانية فوجأها ، ثم قال لها : إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، ووالله لولا أنَّا فى مجلسه ما تركتُك حتى تموتى ، فقام رسول الله من المجلس ليفضَّ هذا النزاع ، وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها ، وقاطع الأمر كله مدة شهر(١) .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فأىُّ وَصْف أحقر ، وأقلّ لهذه الحياة من أنها دُنْيا ؟ وما فيها من مُتَع إنما هى زينة ، يعنى : ترف فى المظهر ، لا فى الجوهر ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثانى المقابل للحياة الدنيا :

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

المتأمل جانبىْ التخيير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صَعْب يوحى

(١) هذا الأمر اختلفت فيه الروايات ، فبعضها يورد هذا فى حق عائشة وأبيها أبى بكر ، وبعضها الآخر فى حق حفصة وأبيها عمر ، أما الأول فقد أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٧٩/١٠) ، وأما الثانى فقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٨) ضمن حديث طويل ، ويجوز أن الواقعة قد تكررت ، والله تعالى أعلم .

برفض التخيير بين طرفى هذه المسـألة ، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقـابل الله ، وأن تكون له زينتهـا مقابل رسـول الله ، ثم زدْ على ذلك الدار الآخرة التى لم يُذكَر قـبالتها شىء فى الجانب الآخر ، ثم إن الحـياة الدنيا التى نعيشـها حتى لو لم تُوصَفْ بأنها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها .

والحق أنهن فَهِمْنَ هذا النص واخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، ومَنْ يرضى بها بديلاً : والحمد لله

﴿ وكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يأتى جزاء مَن اختار الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب] المحسنة هى الزوجة التى تعطى من الرحمة والمودة الزوجية فوق ما طُلب منها .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أنْ خـيَّر زوجات النبى ﷺ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحـانه أنْ يُعطيهن المنهج والمبادىء التى سيـسرْنَ عليهـا فى حياتهن . ونلحظ أن آية التـخييـر كانت من كلام النبى عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبى .

﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] فبداية المسألة ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فلمـا اختـرْنَ الله ورسوله والدار الآخـرة كأنهن ارتفـعْنَ إلى مسـتوى الخطاب المبـاشر من الله تعـالى ، كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السـابق ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب]

كلمة ﴿ نِسَاء .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نعلم أنها جمـع ، لكن لا نجد لها

مفرداً من لفظها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[1] ، وفى اللغة جموع تُنُوسى مفردها بشهرة مفرد آخر أرقّ أو أسهل فى الاستعمال ، وامرأة أو (مَرة) يصح أيضاً من (امرؤ)[2] ، وهذه اللفظة تختلف عن ألفاظ اللغة كلها ، بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير ، فنقول : قال امْرُؤُ القيس ، وسمعت امْرَأَ القيس ، وقرأت لامْرِئِ القيس .

وبعض الباحثين فى اللغة قال : إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير ، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل ، ومفردها إذن (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلفاً لا داعىَ له .

وبعد هذا النداء ﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ (٣٠) ﴾ [الأحزاب] يأتى الحكم الأول من المنهج الموجَّه إليهن : ﴿ **مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبى بقوله مثلاً : مَنْ يتق الله منكن ، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة ؛ لأن القاعدة الشرعية فى التقنين والإصلاح تقوم على أن « درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » كما أننا قبل أنْ نتوضأ للصلاة نبرئ أنفسنا من النجاسة .

ومَثَّلْنا لذلك وقُلْنا : هَبْ أن واحداً رماك بتفاحة ، وآخر رماك بحجر ، فأيهما أَوْلَى باهتمامك ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على ردِّ الحجر والنجاة من أذاه ، وكذلك لو أردتَ أنْ تكوى ثوبك مثلاً وهو مُتسخ ، لا بُدَّ أن تغسله أولاً .

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسا] : « النِّساء ، والنِّسْوان والنُّسْوان : جمع المرأة من غير لفظه . وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثُرْنَ » .

(٢) قال الليث : امرأة تأنيث امرئ : وقال ابن الأنبارى : للعرب فى المرأة ثلاث لغات ، يقال : هى امرأته ، وهى مَرْأته ، وهى مَرَتُهُ . [لسان العرب ـ مادة : مرأ] .

لذلك بدأ الحق سبحانه التوجيه لنساء النبى بقوله ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا : ولم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (٦٥)﴾ [الزمر]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع فى الشرك ، إذن : فالمعنى ، يا محمد ليس اصطفاؤك يعنى أنك فوق المحاسبة ، كذلك الحال بالنسبة لنسائه : إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة ، فسوف نضاعف لها العذاب ، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإياكُنَّ أنْ تظننَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ ، وإلا دخلتْ المسألة فى نطاق : إذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق الشريف تركوه[1] .

إذن : منزلة الواحدة منكُنَّ ليست فى كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ[2] أزواجهن واقرأ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾ [التحريم]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٣) : « ليس المراد بقوله (فخانتاهما) فى فاحشة بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء .. قال ابن عباس : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه » .

ولك أن تسأل : هذا حكم الفاحشة المبيِّنة ، أنْ يُضاعَف لها العذاب ، فما بال الفاحشة منهن إنْ كانت غير مُبيِّنة ؟

قالوا : هذا الحكم خاصٌّ بنساء النبى ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن ، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبى .

فمضاعفة العذاب - إذن - لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء فى بيت النبى ، فاستحقتْ مضاعفة العذاب ؛ لأنها آذتْ شعور رسول الله ، ولم تُقدِّر منزلته وفضَّلَت عليه غيره لتأتى معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أضعاف العذاب ، فإنْ ضاعف لها اللهُ العذابَ ضعفين فحسب ، فهو رِفْق بها ، ومراعاة لماضيها فى زوجية رسول الله .

كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة ، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً ؛ لأنها فعلتْ صالحاً فى ذاتها كأىِّ إنسانة أخرى ، ثم أعطتْ قدوة حسنة ، وأُسْوة طيبة لغيرها .

فإنْ أخذْنا فى الاعتبار حديث النبى ﷺ : « مَنْ سَنَّ سنة حسنة ، فَلَهُ أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وِزْرها ، ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله . قال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

علمنا أن أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرتين ، إنما بعدد ما أثَّرت فيه الأسوة ، وفَرْق بين الضِّعْف والضُّعْف . الضِّعْف : ضعْف الشيء أى مثله ، أما الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل ، فهو أقلّ[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] يعنى : مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير ، ولن تغنى عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله شيئاً ، فهذا أمر لا يسألنى فيه أحد ، ولا أحابى فيه أحداً ، ولا بُدَّ أن أُسيِّر الأمور كما يجب أن تكون ، ولا يعارضنى فيها أحد ، لذلك كثيراً ما تُذيَّل أحكام الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ [البقرة] فالعزة تقتضى أن يكون الحكم ماضياً لا يُعدِّله أحد ، ولا يعترض عليه أحد .

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

---

(١) الضُّعْف والضَّعْف : خلاف القوة سواء كان فى الجسد أو فى الرأى والعقل . وقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا (٥٤) ﴾ [الروم] .